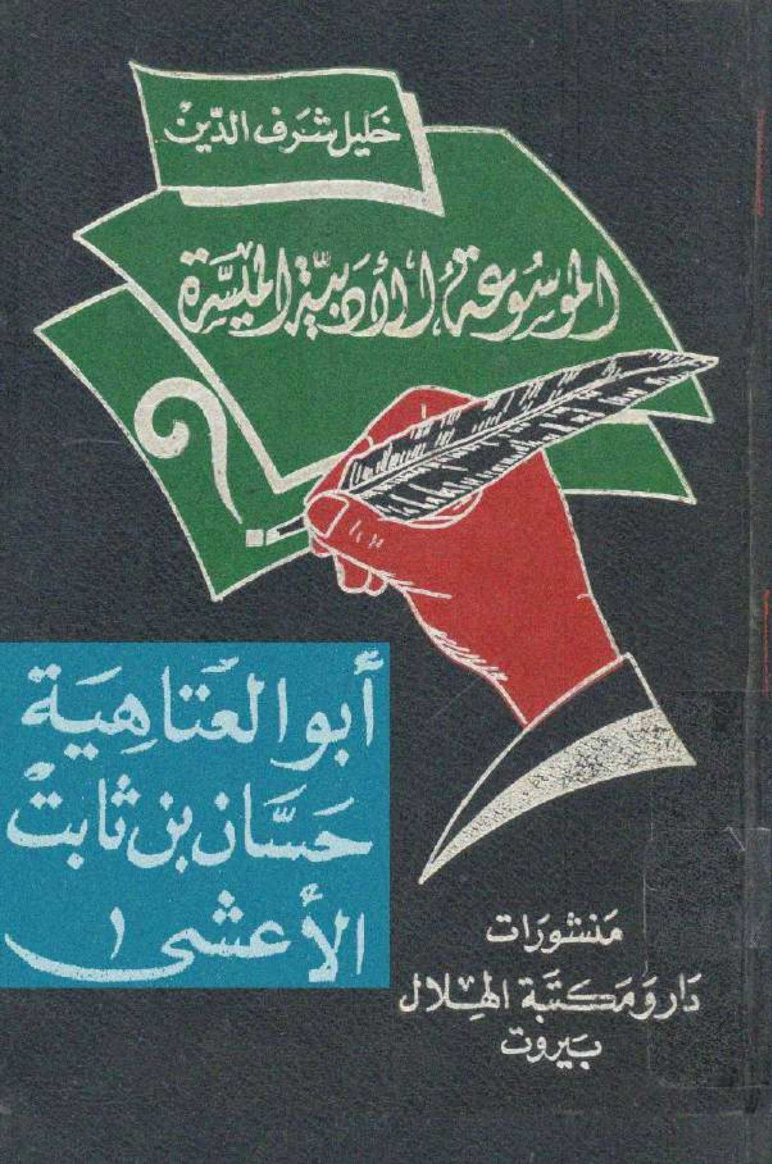

خليل شرف الدين
الموسوعة الأدبية الميسرة
٩
أبو العتاهية
حسان بن ثابت
الأعشى
منشورات
دار ومكتبة الهلال
بيروت



تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الموسوعة الأدبيّة الميسّرة

٧

أبو العتاهية

من الرفض الى القبول

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت

طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت ـ بئر العبد ـ شارع مكرزل بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ ـ ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ٥٠٠٣/١٥ برقياً مكتهلال

استهلال

انســان وضيــع، في عــرف العصــر وتقــاليــد الأريستوقراطيـة الحـاكمـة. لكنـه، في عـرفنـا ، رفيـع ومغاير. . تعملق بالشعر، وتـطاول بالمـوهبة، حتى دنـا من القمـة، وتحـدى كـالبـاشق، بغــاث الـطير. . من خلفاء وامراء وشعراء، ونقاد وحراس وزن وقافيـة . .

بـائع جـرار؟ ما هم! مـا دام الـذي يبيـع الجـرة، قـادرا على شـراء المجرة، والتـربع بـالشعر، والحـرية، عـلى عرش الشهـرة، وبالتحـدي والـرفض، عـلى متن الخلود. . أخـذوا عليه تهتكـه ومجـونـه وتماديه، فَعَتَّهوه وسفهـــوه. . حتى في زهـده بَـــوَّذوه. . وأخــذ عليهم تسترهم، وتـدليسهم، وكـل ما هم فيـه. . فـانتخى عليهم بـــالفن، وتميـز عنهم، بـــالصـــراحـــة والجـــرأة والتخطي . .

ثم انحنى امام القدر الغالب، والإله القادر، في توبة نصوح.. ضج بها شعره، كما اعتلج كيانه.. فتطهر، في المجون، بالشعر.. وفي التوبة، بالصدق، ربما، وحرقة الندم.

فمثل عصره أصدق تمثيل، بأصرح تعبير، وتواروا هم خلف تفاهاتهم ومحدوديتهم، فلم يمثلوا شيئا..

محا بالمغايرة والرفض وتألق الشاعرية، لقَبَه المفروض، ليصبح رمزا من رموز التصعلك المرفوض، والهوان المكذوب، الملتصق بأسرته، ومهنته، زورا وبهتانا..

فاذا به يتأبى على كل ذلك، بالرفض الشاعر، او الشعر الرافض.. وليجيء هذا الشعر، على طريقته هو، وقدّ قياسه، وذائقته الفنية الخاصة.. لا على طريقة وقياس وذائقة نقاد عصره وقواعد خليله..

وحين مر، في أكثر قصائده، بالوزن، فلم «يشقلبه» وبالقافية، فلم «يخربطها» فقدكان ذلك رغما عنه.. حتى اذا مشى على رسله و«تناول الشعر من

كمـه» كما يقـول، جرى شعـره مجرى الـطبع، وفـاض حتى غمـر القياس، وطغى عـلى العرف، وتخـطى كـل قيد، او كاد. . وكان، حقاً، «أكبر من العروض». .

لعله كـان، كجـراره، في ضحـالـة القـاع. . مـا إن تعبأ الجرة حتى تفيض. . لا كالغدير أو الصهريج، تترسب فيه الوحول، وتتأسن المياه، فلا تفيض. .

وهـا نحن نعالجـه بين فتكـه وزهـده، بـين رغبتـه ورهبتـه، ثـم بين زهـده وزهد الآخـرين، علنا ننفـذ الى حقيقته، كما هي، لا كما ارادها المشوهون. . .

المؤلف

أبو العتاهية

من هـو؟

هـو اسمـاعيـل بن القــاسم بن سـويــد بن كيســان، ينتسب الى قبيلة عنزة بـالـولاء، وكنيتـه ابـو اسحـاق، وامه ام زيـد بنت زياد المحـاربي، مـولى بني زهــرة. يقـول البستــاني في روائعـه (رقم ١٠): «إن أصـل اجداد الشـاعر من نصارى عين تمـر، بالحجـاز او قرب الانبار. فلما فتح خالـد بن الوليـد (سنة ١٢ .) مدينة عـين تمر ، سبي كيسـان جد أبيـه مع جمـاعة من الصبيـان، فاستـوهبه عبـاد بن رفـاعـة العنـزي من أبي بكـر، فاعتقـه، فانتسب الى عنـزة». وذلك عـلى عـادة من اسلم من أهـل الذمـة، كـما سيفعـل كثيـرون منهم كأبي تمام مثلاً[1].

(١) هذا رأي بعض المستشرقين في حقيقة نسب أبي تمام أما المحققون العرب كصاحب الأغاني فإنه يجعل من أبي تمام عربياً أصيلاً.

أبوه:

كان القاسم والد أبي العتاهية حجاماً، مما زاد في ضعة نسب الشاعر، في نظر العصر، فاضطر أبو العتاهية (١) وهو المتقدم على عصره، كما سنرى، الى ان يرد هذا العار المزعوم بقوله:

ألا انما التقوى هي العز والكرمْ
وحبك للدنيا هو الفقر والعدمْ

---

(١)عتاهية لقب غلب عليه، اطلقه عليه الخليفة المهدي حين قصده الشاعر من الكوفة، فرده المهدي قائلاً انت انسان متحذلق معته .. فاستوت له كنية غلبت عليه، دون اسمه وكنيته، واشتهر بها . .قال الاصفهاني: ويقال للرجل المتحذلق عَتاهية، كما يقال للرجل الطويل شناحية. ويقال ابو عتاهية (باسقاط الالف واللام)، الاغاني ٤/ ٢ . وقيل بل لقب كذلك، لأنه كان يحب الشهرة والمجون، والتعته. وجاء في لسان العرب: رجل معته اذا كان عاقلا معتدلا في خلقه .. لكن ابن منظور يرجح التعته بمعنى الجنون، او ما يقرب منه. قال: كان الشاعر قد تعته (اي تدله) بجارية للمهدي، واعتقل بسببها. فعرض عليها المهدي ان يزوجها له. فأبت. واسم الجارية عينة. ونحن نرجح صحة هذه الرواية على الرواية الاولى. وقيل لقب بذلك لأنه كان مضطربا. وقيل لأنه كان يرمى بالزندقة الخ الخ ... اما لفظة عتاهية فقد كانت اسما، لا لقبا فحسب، كحسان بن عتاهية والي مصر سنة ١٢٧ هجرية. وابن دريد العالم اللغوي الشهير (٣٢١هـ)كان اسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن جشم (الفهرست ص ٩٧ ووفيات الاعيان ١/ ٤٩٧ .

وليس على عبد تقي نقيصةٌ
اذا صحح التقوى، وان حاك أو حجم

لكن العصر، ومقاييس العصر، كانت أقوى من الشاعر، فالتصقت به ضعة النسب، كما التصق اللقب.. وهذا والبة بن الحباب الشاعر الماجن يهجو ابا العتاهية، فيقول:

كان فينا يكنى ابا اسحاق
وبها الركب سار في الآفاقِ
فتكنى معتوهنا بعتاه
يا لها كنية اتت باتفاق

وواضح، من هذا الهجاء، ومن سيرة أبي العتاهية، ان شاعرنا كان في أول شبابه متهتكا، ومن عصبة المجان التي على رأسها والبة هذا وأبو نواس. وحين تزهد ، كان من الطبيعي ان يهجر العصبة، ويندد باعمالها وأوزارها. كما كان من الطبيعي كذلك، ان يهجوه رئيس العصابة التي ظلت سادرة في غيها، متنقلة بخطاياها بين الكوفة وبغداد.

سمته:

كان أبو العتاهية طويل القامة، رقيق

التكوين. يصفه الاغاني نقلا عن محمد بن موسى بأنه كان قضيفا (أي دقيق العظم، قليل اللحم)، أبيض اللون، أسود الشعر، له وفرة جعدة[1] وهيئة حسنة، ولباقة وحصافة[2] ورشاقة في الحركة، والايماء. روى عبد الله بن المعتز، انه كان ضعيف البنية، ويضيف المسعودي، الى ذلك، قوله: وكان مليح الوجه، مليح الحركات، حلو الانشاد، شديد الطرب.

أصله النبطي:

كان أبو العتاهية نبطي الأرومة عنزي الولاء. فمن هم هؤلاء النبط أو الانباط. وهل من صلة روحية وراثية تصله بهم؟

نشأ في العصور الجاهلية، غير دول الجنوب، بضع دويلات زهت في شمال الجزيرة وأواسطها، وكان ازدهار هذه الدويلات الشمالية، كازدهار شقيقاتها دول الجنوب يعتمد على التجارة. وكانت

---

(١) تذكرنا وفرته هذه المجعدة، بوفرة المتنبي المجعدة الشقراء التي ذكرها في بواكير شعره عندما كان في المكتب العلوي بالكوفة قال:
لا تحسن الوفرة حتى ترى معقودة الضفرين يوم النزال الخ

(٢) مروج الذهب ٢٤/١٣

أقدم هذه الدويلات مملكة الأنباط . واعتمادا على عامل الوراثة الذي لا شك فيه، فاننا لا نستغرب ان يحترف والد أبي العتاهية الحجامة وبيع الجرار، وأخوه التجارة. [1] وينسج شاعرنا على منوال أبيه وأخيه، فيحترف مثلهما الحجامة وبيع الجرار، بادىء امره ثم لا يرى ضيرا في ذلك.

والانباط كانوا عربا على ما يرجح الدكتور حتي[2] اما ما جاء في سفر أيوب من أن «نبايوت» و«نبتاي» و«نبيتو» في الاشورية، هم الانباط فمغلوط، وليس صحيحا، يضيف الدكتور حتي. اذن هم من العرب على الارجح، وكانت عاصمتهم البتراء[3] في شرقي الاردن. أزدهرت مملكة البتراء في ختام القرن الرابع قبل الميلاد، وظلت نحو اربعمائة سنة تشغل مركزا على طريق القوافل الذي يقطع الصحراء واصلا

---

(١) على حد قوله: انا جرار القوافي، واخي جرار التجارة (الاغاني ٤/ ١٠) وكان اسم اخيه زيدا.

(٢) تاريخ العرب المطول/ص ٨٧

(٣) بتراء: كلمة يونانية، ومعناها الصخر (حتي: ٨٨)

بين سبأ في الجنوب، وبين ثغور بحر الروم [1].
وكان أوج ازدهارها أيام عبيدة، أو أبوداس الثاني (٩٨- ٩ ق .م.)، وخاصة أيام حاريثة أو الحارث الرابع، وكانوا يتكلمون العربية التي لم يكن لها حروف تكتب في تلك الايام، فأخذ الانباط صور الكتابة الأرامية عن جيرانهم في الشمال. . وما لغة القرآن، ولغتنا الحاضرة، سوى من ذلك الحرف النبطي. [2]

على هذا يكون ابو العتاهية ذا أصل عربي شمالي صريح، فلماذا انتسب الى عنزة، أو لخم بالولاء؟

تلك كانت عادة عند المسلمين العرب الاقحاح، وليست قانونا، ان يعمد الذمي، حين يريد ان يُسلم، الى تغيير اسمه أو تعريبه، وابدال اسم عائلته باسم قبيلة من القبائل العربية. وهو ما كان يسمى الانتساب بالولاء. يقول البستاني في «روائعه» المضغوطة، ان أصل اجداد هذا الشاعر من نصارى عين تمر (قرب ألانبار). فلما فتح خالد بن الوليد (١٢

(١) المصدر نفسهُ ص ٩٢

(٢) المصدر نفسهُ ص ٩٣

هجرية) هذه المدينة سُبي كيسان جد والد أبي العتاهية، مع جماعة من الصبيان، فاستوهبه عبادة بن رفاعة العنزي من الخليفة ابي بكر. فاعتقه فتولى عنزة. كما تقدم. على ان ابا العتاهية لم يكن يتمسك بهذا الولاء الموروث إلا عند الحاجة، كما صرح هو بذلك قائلا: «ذلك شيء احتجنا اليه في ذلك الزمن. وما في واحد ممن انتميت اليه خير، ولكن الحق احق ان يتبع..» وهو يقصد انتماءه الى اليمن، بعد انتمائه الى عنزة.

ثم نراه وفقا لوضعه، يتنقل في ولاءاته، من حي الى حي، ومن قبيلة الى قبيلة. ها هو يعلن ولاءه للخميين، حين يرى من بينهم من يرعاه، ويدرأ عنه اذى الهجائين، والمفترين، ثم يعود الى اليمانية، ايام المهدي، لأن اخوال الخليفة منها.. ومن هؤلاء الاخوال يزيد بن منصور الذي كان يحب ابا العتاهية، ويقربه، حتى اذا مات يزيد هذا انقلب الى ولائه الاول.. وهكذا فمن عنزية الى يمانية، الى لخمية الى... كل ذلك بدافع وضعه الدقيق، واحساسه العميق بأنه دون علية القوم، ودون الحاكمين مكانة ونسبا.. الا انه

احساس كان يرفضه ويتحين الفرص لإزالته . ومما زاد في اضطرابه وازمته النفسية إحساس آخر بانه وان كان دون هؤلاء نسباً، إلا أنه أفضل منهم شاعرية، وان عدته في تسلق الشهرة اوفر، وادعى الى تحقيق النصر، من عدتهم وعديدهم.

من هنا نشأ الصراع النفسي عنده، ولكنه لم يكن حادا، اذ بدأ بالهجاء حينا، وبالملاينة حينا آخر. ظهر كل ذلك في اضطرابه، وتناقض مواقفه، وجاء شعره مرآة صافية تنعكس عليها هذه المواقف، وذلك الاضطراب. .

فلم يكن غريبا منه رفضه وتحديه، واغراقه في الملذات، واستغراقه في المجون. ومن ثم ردته الى الزهد مرة. . وارتداده الى المجون مرات. . الى ان استقر به الأمر الى ما يشبه العزلة السلبية، واجترار حياة يائسة، خائفة، مستسلمة. .

تأثير الصفات والسمات

كان لصفاته وسماته الخلقية والخلقية تأثير كبير على تكوين شخصيته واخلاقيته. فاذا استثنينا ضعف بنيته، ورقة عظامه، وشيئا من ترجحه بين الاهتزاز والاضطراب والخفة، نراه انسانا موهوبا، حبته

الطبيعة بسمات متعددة ذات أصول موروثة، كما رأينا، رزق بمقتضاها ملاحة الوجه وحسن الهيئة، وحلاوة الانشاء، وسرعة الطرب والإطراب. ودقة التمييز السمعي، والتوقيت الايقاعي. وهي قدرات، واستعدادات عقلية تشير بوضوح الى القدرات الفنية الكامنة فيه (١).

وهذا كله يعني التميز بذكاء خارق لا يتاح، في العادة، الا للموهوبين، وذوي الشخصية الخلاقة. وينبغي ان نلاحظ أن الرهافة الحادة، بمقدار ما هي سمة مميزة وايجابية العطاءات، ذات خطورة بالغة على كيان المرء وسلوكه. وبالتالي فهي ذات عطاءات سلبية. . وبتعبير أصح، ذات مفاعيل هدامة، يبرز معها صاحبها صراعيا،ومتناقضا مع واقعه الاجتماعي، والنظم السائدة فيه. لا سيما اذا كانت هذه من النوع السخيف المرفوض عقليا. . كاعتقاد الناس، يومها، بان كل من تعاطى عملاً، او صنعة، كان وضيعاً مرذولا!. أو ان كل من لم يكن نبيلا، او عربيا صليبا، او صريح النسب، او اذ نسبه لا يرقى

---

(١)للاستزادة انظر كتاب: تحليل الشخصيةد . محمد بركات ص ٦٩ القاهرة .

الى كبار القوم، وكبريات القبائل، كان مذموما . .
فكيف اذا كان مطعونا في دينه، او عقيدته . . ان مجرد
الإحساس بهذا الواقع المؤلم، وشدة وقعه على النفس،
يجعل من صاحبه انسانا مغايرا، في نظرنا، حتى اذا
جاهر برفضه كان انسانا متقدما. تماما كما جرى
لبشار، وأبي نواس، وابن الرومي، والمتنبي، وأبي
العلاء، والى حد فني كبير أبي تمام . .

هؤلاء اختلفوا احساسا بالفاجعة، وتوافقوا
عقلاً وروحا، ويبدا ابو العتاهية كأنه يرهص،
برفضه، لما رفضوه، ويضع اسس ثورتهم على أوضاع
عصرهم، ومفاهيم اللغة والشعر لديهم . .

عصره:

ولد ابو العتاهية، كما ذكر ابنه محمد
سنة ١٣٠ هجرية. أي انه ولد في رحم الثورة
العباسية الكبرى، او الانقلاب الكبير الذي حدث في
تاريخ الدولة الاسلامية، وانتقال العرب والمسلمين
من حياة البداوة، او نصف البداوة، الى حياة
الحضارة التامة، الملقحة بشتى التيارات الثقافية،
والدينية والمذهبية والفنية الوافدة . . وتلك العلوم التي

حملها الداخلون في الدين الاسلامي من انماط الحياة الجديدة، وطرائق العيش، وفنون العمارة والموسيقى والادب والفكر والفلسفة، ومفاهيم اللذة.. فكان أن أحدث، كل ذلك، ثورة اخرى، لاتقل خطرا عن الثورة، الانقلابية المسلحة الأولى. الأمر الذي خلق واقعا جديداً كان على الانسان العربي ان يحياه بكل مظاهره، وان يتفاعل مع خالقيه، بكل أبعاده، سلباً أو إيجاباً. مما أثار صراعاً عنيفا في النفوس، وأحدث اضطرابا خطيرا في المفاهيم، وزج بالعقول الناشئة في أتون رهيب من الجدل والشك والبلبلة.

وكان طبيعيا ان يبرز على ساحة بغداد والبصرة والكوفة انسانان: انسان عربي مسلم محافظ، وآخر مسلم غير عربي، ثائر على كل قديم، داع لكل جديد. والناس بينهما حائرون مرتبكون، مذهولون او مندهشون، والدوامة تعصف بالجميع، وتخلخل اركان المجتمع[1]

(١) وهذا ماسمي بالحركة الشعوبية. وهي حركة داخلية نشأت ضمن اطار الاسلام، بين مسلمين عرب ومسلمين من غير العرب. هؤلاء =

وبديهي ان الشعراء أقرب الناس الى الانفعال بكل هذه التيارات، واسرعهم الى الأخذ بجديدها، وابرازه حارا لاهبا في شعرهم، لا سيما من كان متوفز الحس تواقا الى كل مغاير، سريع التلقي، كأبي العتاهية. وسنرى، كذلك، ان الصراع بين هذين الانسانين سيكون شرساً ومدمراً. مما سيرمي بكثير من الشعراء والادباء في جحيم من الشك والارتياب، بل والكفر احياناً، كما سيرمون، من قبل التيار المحافظ، بالزندقة والفسق، لما كان يبدو عليهم من حياة العبث والمجون والهرطقة.

اما مكان مولد الشاعر فهو على التحديد في

= يحملون بذور حضاراتهم القديمة ومدنياتهم الغابرة، يريدون ان يبذروها من جديد في التربة العربية الخالية من البذور الحضارية اللهم إلا بذرة الاسلام. واولئك يحاولون انقاذ دينهم وبراءة انسانهم من ان يداخلها الشك والزيف والتحريف. وعندي ان الانفتاح على الخارج قد افاد العرب كثيرا من الناحية الفكرية والادبية والفنية والاجتماعية، كما أضر من الناحية السياسية. وما جره الموالي الفرس ولا سيما الاتراك من مآسٍ غيرت مسيرة الثورة العباسية تغيراً جذريا خطيرا.. اما الانغلاق، بداعي الحرص على الدين فلم يفد في شيء.. ولو عرف العرب المسلمون كيف يتعاملون مع هذه الموجة لتغير وجه التاريخ.. المؤلف

عين ثمر القريبة من الكوفة. ولا نعلم شيئا عن نشأته هناك، ولكن الواضح انه نشأ فقير الحال، يساعد أباه في بيع الجرار والحجامة، ويبدو ان الأب قد ضاق بوضعه، وتاق الى حياة أوسع، فانتقل الى الكوفة حاملا معه ابنيه الصغيرين، زيدا وابا العتاهية. وما كاد هذا الأخير يشب عن الطوق حتى نراه يجنح مع الجانحين، وينتظم في سلك المخنثين الذين تكاثروا في الحواضر، بفعل الموجات الحضارية الوافدة والتي تحمل في ثناياها بذور التخنث والخلاعة والمجون، الى جانب ما تحمله من افكار جديدة، وفلسفات، وطرائق عيش لم تألفه الأجيال العربية فيما مضى، وطبيعي ان يسرع هذا الفتى في الجنوح، أكثر من غيره، لما كان يعتمل في نفسه من شعور بالضياع، وإحساس عميق بالدونية، كانا ينميان فيه كبتا كثيفا، لم يجد معه ابو العتاهية بداً من التنفيس عنه بالانزلاق في حمأة المجون من جهة، وبتفجير ملكاته، في اعمال تدميرية مثيرة.. كما يؤكد علماء النفس اليوم.. او بابداعات فنية، والاتيان بروائع مدهشة، في اطار مواهبه الخاصة، من جهة أخرى..

وهذا تقريباً ما فعله ابو العتاهية المسحوق المحبط المزق داخليا، الذي سرعان ما نراه يتدفق بالشعر، مهما كان نوع هذا الشعر، وبتعبير أصح، يتنفس بالشعر، وينفس به عن غلوائه، ويرتاح الى قذفه، يوميا، في وجوه الناس، مداعبا، او ناقدا، او هاجيا، او متغزلا. . ثم. . واعظا وزاجرا، وداعيا الى الله. . ولعل هذا، كان سلاحه الوحيد في محاربة «الآخر» وتحديه وتهشيمه، والوصول، بالتالي الى الشهرة، ومحو العار المصطنع الذي ألصق به وبأسرته، ومهنته، وأصله. .

وكانت بداية «المشوار» الطويل على طريق الشهرة وتحقيق الذات، في الكوفة، حيث راح المتشاعرون والصبية يتهافتون عليه لينشدهم أشعاره، فيسارعون الى تسجيلها على ما نثر من الخزف في دكان أخيه زيد. أو على ما يشترونه من الجرار[1].

وتلا ذلك خطوة ثانية هي الانخراط الكلي، هناك، بعصبة المجان من الشعراء أمثال مطيع بن

---

(١) اغاني ٩/٤

إياس، ووالبة بن الحباب، وأبي دلامة، وحماد عجرد، ويحي بن زياد، وغيرهم ممن كانوا «حلية الأرض، ونقش الزمان»(١) على حد تعبير الثعالبي

هؤلاء كانوا قد ملأوا الدنيا مجونا وخلاعة، وخلقوا موجة عارمة من الفسق والزندقة، اجتاحت الجيل، خاصة الجيل المثقف المترف، ممن كانت الكوفة تعج بهم وبأمثالهم من عرب، وفرس وسريان، وصابئة(٢). مما ولد نشاطا فكريا ضخما في شتى الميادين. وكانت أرض الكوفة تنطوي على بذور قديمة لديانات وعقائد كثيرة: كالمانوية التي تجمع بين الزراداشتيةوالنصرانية، الى جانب بذور البوذية، والمزدكية، هذه البذور ظهرت على السطح فتأثر بها الجيل العربي المسلم الناشيء، وخلقت فيه نزعة قوية الى الشك امام كل شيء. . يقابل ذلك ملل ونحل اسلامية كانت قد تشكلت ونمت بحكم استمرار الصراع الديني والسياسي القديمين: كالشيعة المعتدلة، والغالية، وبقايا الخوارج. وطبيعي ان يتأثر شاعرنا

(١) الثعالبي ثمار القلوب ط ١٩٠٨ ص ٤٠٧
(٢) من صبأ بمعنى خرج عن الدين الى دين آخر

المتحفز بها جميعا، فيظهر على سلوكه، وفي شعره، وأقواله، الشيء الكثير منها.

كما وجد تيار أدبي آخر، أدخله الوافدون على الكوفة، ليشاركوا عصابة المجان مجونهم، كابن المقفع في أول أمره، ومحمد بن الأشعث، وابن عون العبادي.

ولعل أسلوب ابن المقفع في كلامه، وفي أدبه الذي نعت بالسهل الممتنع، هو الذي تأثر به شاعرنا في قول الشعر« السهل الممتنع» اذا جاز التعبير.. الى جانب مؤثرات اخرى سنذكرها حين نعرض لتحليل خصائص شعر أبي العتاهية الفنية.

ها قد وجد شاعرنا في الكوفة كل ما يبتغيه، ويتوق اليه، ليستر ضعف نسبه، ويمحو ذلّ نشأته[1]. وهذه هي بيئته الاولى يجول فيها باكورة

---

(١) وجدنا في المراجع القديمة والحديثة اجماعاً عربياً غريباً على ضعف نسب ابي العتاهية، فقط لأنه كان نبطيا، ونصرانيا.. فاذا كان اصحاب المراجع القديمة معذورين لجهلهم التاريخ، ولتعصبهم على كل من لم يكن عربيا قرشيا اصيلا،وذا نسب صريح.. فما بال اصحاب المراجع الحديثة يجارونهم في جهلهم مؤكدين ضعة نسب ابي العتاهية، لمجرد انه كان نبطيا.. تماما كما قال القدامى؟! ولو تبصروا قليلا، =

جولاته، اما بيئته الثانية فكانت بغداد المهدي والهادي والرشيد. فكيف انتقل اليها؟

كان شاعرنا قد تعرف، في الكوفة، الى مغنٍ نبطي ناشيء هو ابراهيم الموصلي. وكانا صديقين متحابين. وحين ضاقت بهما الكوفة، على رحبها حرية ولذاذة عيش، ووفرة علم وأدب وفن، توافقا على ان ينتقلا الى بغداد «عاصمة الدنيا» آنذاك، وملاذ الطامحين الى الشهرة والمجد من كل نوع. . انتقلا اليها ليواجها مصيرين مختلفين: ابراهيم الموصلي ليصبح المغني الاول في بلاط المهدي، ولا سيما بلاط الهادي واخيه الرشيد، وشاعرنا لينال من المهدي، بدل الجائزة، لقبا حمله الى الأبد هو أبو العتاهية!.

وهكذا فاجأه الفشل فور قدومه الى بغداد، ولعل ذلك عائد الى جرأته وتحديه، وتسرعه في طلب الشهرة.

= واطلعوا على حقيقة اصل النبط، او الانباط(راجع ص ٣ من هذا الكتاب) لعلموا انهم كانوا عربا انشأوا امبراطورية قوية تحدث روما نفسها ايام الرومان. الا اذا كان سبب الطعن دينيا.. وذلك ادهى وأمر..

ترك ابو العتاهيةبغداد، وفي قلبه حسرة وحقد، عائدا الى الكوفة، عن طريق الحيرة. وفي الحيرة رأى فتاة تدعى سعدى تستأجر كنائحة في المآتم لرقة صوتها، وكانت مولاة لبني معن بن زائدة، ذات جمال ودلال، فأحبها، وتغزل بها. لكن سعدى أعرضت عنه وشكته الى مولاها عبد الله بن معن، فزجره ونهاه، فتصدى له الشاعر بالهجاء المقذع، فعاقبه الأمير على هجائه بمائة سوط!(١) وتدخل مواليه من عنزة، وكفوالسانه..

وفاء الاصدقاء:

لم يمكث ابو العتاهية طويلا في الكوفة، اذ ما لبث ان ارسل اليه صديقه ابراهيم الموصلي، يطلب منه اللحاق به، فقد اقبلت عليه الدنيا، في خلافة المهدي، وأصبح المغني الاول في البلاط، لكنه لم ينس صديقه الشاعر المسكين..

طار اليه ابو العتاهية، وهناك قدمه الى الخليفة، فمدحه ابو العتاهية بقصيدة نالت إعجابه، ورضي

---

(١) ما شاء الله! كم كانوا حريصين على جواريهم! ولو عقلوا لحرصوا على امبراطوريتهم قبل ان يسرع اليها الزوال!

عنه، وقربه، ولكن اللقب ظل يلازمه، غير ان شوقي ضيف في كتابه«العصر العباسي الاول صفحة ٢٣٩ يرجح ان يكون اللقب(ابو العتاهية) الذي اطلقه عليه المهدي، جاء بعد اللقاء الاول مع الشاعر، وبعد فترة الاعجاب المتبادل، اذ يقول: «وتمر الأيام بأبي العتاهية باسمة. لكن سحابة لا تلبث ان تنعقد في سمائها، فقد تعلق الشاعر بجارية من جواري زوجة المهدي رائطة بنت السفاح[١] وهي عتبة، وكانت تزدريه، كما ازدرته سعدى من قبل. ومضى لا يكف عن غزله بها، ولا يرعوي، فعرفت مولاتها خبره، وأثارتها عليه، فحدثت المهدي بشأنه، فغضب لتعرضه لحرمة جواري قصره، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه! ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري ان شفع له لدى المهدي، فعفا عنه ورد عليه حريته. ويقول الرواة انه لم يكن يحبها حبا صادقا، انما كان يريد الشهرة في الاوساط الادبية بذكرها، وانه امتحن في حبها، واثبت الامتحان

---

(١) جاء في مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٥ ان عتبة هي جارية الخيزران وليس رائطة.

كذبه، وانه انما كـان يتكلف هذا الحب تكلفـا[1] لكن المسعودي يتبت في «مروجه» انه كان صادقا في حبه، بدليل ان المهـدي بعد ان رضي عنـه «أمر لـه بخمسين الف درهم، ففرقها ابو العتاهية على من كـان بالبـاب» . فـوجـه اليـه: مـا حملك عـلى ان أكـرمتـك بكـرامـة فقسمتها؟ قال: ما كنت لآكل ثمن من أحببت» الخ.

ومهما يكن من امر تاريخ هذا اللقب، فانه لقب أصبح قدر الشـاعر المقـدور. ولم يضره في شيء.. بـل لقد أصبح، مـع الأيام رمـز شاعـر موهـوب لامعته.. ولعله الشـاعر الـوحيد الـذي ننسى، في رحابـه، مْعاني لقبه..

ويتوفى المهدي، فيخلفـه الهادي(١٦٩ ـ ١٧٠هـ.) ويتقرب منه ابو العتاهيـة، مطلقـا فيه مـدائحه،ويجـزل الخليفـة عطايـاه على الشـاعر. ثم يستخلف الـرشـيد (١٧ ـ ١٩٣هـ.) وكان شاعرنا عـلى صلة وثيقة بـه ايام ابيـه المهدي، فـوصل مـا انقطع، ولازم ابـو العتـاهيـة قصـر الـرشيـد لا يبـرحـه، مـرافقـا الخليفـة في حِله وتـرحالـه. وكـان يجـري عليـه كـل سنـة خمسـين ألف

---

(١) نقلا عن زهر الاداب وتاريخ بغداد.

درهم ، فضلا عن الجوائز السنية» [1] واخذ الشاعر يمدح كبار رجال الدولة، امثال يزيد بن مزيد الشيباني، وينال جوائزهم، ما عدا البرامكة الذين كان لهم شعراؤهم، مثل أبان اللاحقي، واشجع السلمي، فلماذا لم يقربوه مع إعجاب زعيمهم جعفر بن يحي به وكذلك الحسن بن سهل الذي كان يجري لأبي العتاهية ثلاثة آلاف درهم كل شهر؟ أغلب الظن ان الشاعر قد اسرع في الميل الى التزهد، فانقلب واعظا ، والامراء لايعجبهم الوعظ ولا يصغون اليه، ومنهم البرامكة. .

هنا، يبلغ شاعرنا القمة في الشهرة والثراء والتهتك. فقد راح ينفق المال على ملذاته، ومجونه، وتسريه، مع عصابة السوء اياها، سادرا في غيه وفجوره، برفقة والبة، ومطيع، وأبي نواس، أو لنقل بلغة اليوم: متسعملا حريته الى أقصاها، مستغلاشبابه وظروفه حتى مداه. . وكان قد تجاوز الاربعين من عمره، فكأنه أراد، بهذا، نسيان أيام الجوع والتشرد، والفقر والضياع من جهة، وتحقيق الذات

(١) اغاني ٤/٧٤

وتحـدي«الآخـر»من عصـر، وتقليـد، وقيم أهـين بهـا لافتقاره اليها، كالعروبـة الخالصـة والنسب الصريـح، والعقيدة الصافية، من جهة أخرى. .

انقلاب خطير

الى ان حـدث ما ليس بـالحسبان: لقـد أعلن ابـو العتـاهيـة زهـده، وانصـرافـه عن العصـابـة، وقصـر الخليفة، فلماذا؟ وما هي الأسباب؟

سنة ١٨٠هجرية انتقل الرشيد الى الـرقة، وانتقـل ابو العتاهيـة الى إلزهـد. .لكنها كـانت مجرد صـدفة في التزامن، اثارت الرشيد، فحـاول ان يردشـاعره الى مـا كـان عليه من حيـاة المجون، ومـا كان يـطرب الرشيـد من رقيق غـزل الشـاعـر وجـزيـل مـدحـه. . لكنـه امتنـع. . ويضيق الخليفة بـامتنـاعـه، ويـأمـر بضـربـه وحبسـه. . ثم بالتخفيف عنـه طمعا بعـودتـه. غـير ان الشاعر يأخذ في استعطافه بمثل قوله:

انمـا انـت رحمـة وسـلامـةْ
زادك الـلـه غـبـطةً وكـرامـةْ
لـو تـوجـعـت لي فـروحـت عـني
روَّح الـلـه عـنـك يـوم الـقـيـامـةْ

ويروّح الرشيد عنه ويُطلقه. . ويمضي الشاعر في تزهده، والاكثار من ذكر الموت والفناء، والثواب والعقاب يوم الحساب، والدعوة الى الاعتبار، والاقلاع عن مثل ما كان هو فيه، من فساد وغي واستهتار. اما انه لم يذكر المعاد والحساب في زهدياته، فليس صحيحا، كما سنرى.

السبب الأقوى:

يبدو لنا ان الشاعر بعد ان اوغل في الخطيئة، واسترسل في الغواية وقد ارهق جسديا ونفسيا، وتقدم به السن حيث شارف على الخمسين، ومل حياة المجون، اراد ان يمضي ما بقي من عمره في انتهاج نمط حياة هادئة، رزينة، تأملية، يكفر فيها عن ماضيه المثقل بالأوزار. وذلك أمر طبيعي حدث ويحدث للكثيرين أمثاله. من مرهفي الاعصاب والمشاعر. حتى ابو نواس، احد رفاق الشاعر في العصابة، كان في فترات عديدة، يستفيق على ما هو فيه، فيهوله، فيطلق ضراعات شعرية تنم عن مكنونات نفسية ملتاعة، نادمة، منيبة، لاسيما في لياليه الموحشة، حين

كان المرض يستبد به، وتشتد عليه نوبات الربـو. . [1] هـذا الداء الـذي يصيب عادة المـدمنين عـلى الخمـرة، المستهترين بصحتهم. لكن ابا نـواس سرعـان ما كـان يعـود الى غيه ومجـونـه بمجـرد ان يـطلع عليـه الفجـر، وتزول نوبة المرض العضال، فيبـدأ نهارا جديـدا، وكأن شيئـاً لم يكن، امـا ابـو العتـاهيـة فلم يكن يسـرع في العـودة. كزميله، ولعله مـا عاد مـطلقا، كـما يفهم من سيرته، مهما قيل في صحة زهده، ومداه. .

السبب الأوهى:

اما ما يقال عن اختلافه مع رئيس عصـابة المجـان والبة، واحتدام ذلـك الخلاف حتى تكـرس في مهاجـاة حـادة متبادلـة، نال فيهـا ابو العتـاهية من والبـة منـالا عظيما، رغم تقدم هذا عليه بالسن والشهرة، فان هذا

---

(١) انظر كتابنا: ابو نواس: مجدد ام شعوبي: الصادر عن دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨١

(١) اغاني ١٢/٤

ليس سببا معقولا، لينتقل شاعرنا من ضفة الى ضفة، ومن حياة الى حياة.

السبب غير المباشر:

الى جانب ذينك السببين المباشرين: النفسي والشخصي، نحن نرى سببا آخر بعيد مدى المفعول، هو تأثر شاعرنا بفلسفات، وعقائد قديمة مختلفة. فقد رأيناه يعيش في بيئة علم ومعرفة، وتثقف عن طريق السماع والمعايشة والمدارسة، لكل ما كانت تعج به الكوفة، وبغداد، وقصور الخلفاء، المهدي والهادي والرشيد، من تيارات فكرية، وجدل كلامي وعلوم وافدة، وفنون راقية. ورأينا شاعرنا يعتز بكل ذلك، ويشارك فيه. حتى انه كان يعد نفسه«عالما». وكتب السير تشير الى علمه وثقافته في غير موضع. . لذا جاء زهده متأثرا بكل تلك التيارات الفكرية، ولا سيما المانوية والبوذية.

الشاعر ـ العالم:

جاء في الاغاني: «حدثنا النوشجاني قال: اتاني البواب يوما فقال لي: أبو اسحاق الخزاف بالباب. أئذن له. فاذا ابو العتاهية قد دخل. فوضعت بين يديه قنو موز. فقال: قد صرت تقتل العلماء بالموز! قتلت ابا عبيدة بالموز، وتريد ان تقتلني به! لا والله لا أذوقه.» فهو بهذا يساوي نفسه بأبي عبيدة كبير شيوخ وعلماء هذا العصر في علوم اللغة العربية وآدابها وأخبارها، فقد ذكر له ابن النديم في فهرسته أكثر من مائة مصنف في القرآن والامثال والفتوح والانساب والفقه، والأخبار والتراجم(١).

لكن هذا رأي شخصي لانعتد به، اذا لم يؤيده علماء ومؤرخون آخرون. روى الخطيب البغدادي ان صديقا لأبي العتاهية دخل عليه في مرضه الذي مات فيه، وكان قد أغمض عينيه. قال: فقالوا: كلمه. فقلت: يا أبا اسحاق. فلما سمع صوتي فتح عينيه. فقلت: أعزز على العلماء بمصرعك»(٢).

---

(١) الفهرست ٨٥ـ ٨٦

(٢) تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٦

وهــذا جامــع ديوانــه ابن عبد البــر النمـري يعـده من العلماء، ويذكـر الخصـومـة التي كـانت بينـه وبـين منصور بن عمـار في: بـاب قـول العلماء بعضهم في بعض، من كتـاب العـلم. كـما يقــول عنــه انـه «داخل العلماء والصالحـين، ونـظم مـا استفـاده من أهــل العلم من السنن و ســير السلف الـصــالــح في قصائد زهدية اعتبارية، تدعو الى الاقتداء بهم، وتحث على مكارم الاخلاق.

غير ان هذا لا يعني انـه كان عـالما متفـرغا. او ان علمــه ذو سمـة منهجيــة أكـاديميــة اذا صـح التعبــير شيـمة معاصـريه من العلماء او الفـلاسفة او المنـاطقة او المتكلمين. كل ما في الأمر انـه كان مـراقبا ومقتبسـا من هؤلاء. فقـد كـان لــه، في شبــابــه، منصــرف آخر، ومعايشة من نوع آخـر: كان متخصصـا بالمجـون ومعاشرة الماجنين. وكان له من تجـاربه، ومن مكـونات شخصيتـه، ودقـة مـلاحظته، واستعــداده الفـطري، ويقـظة حواســه، وحدسـه ما استـطاع به ان يغني، في شعره، الكثير من الآراء والتـأملات في الحيـاة والموت، فضلاً عن اقتباسـاته من الافكـار، والعلوم السائـدة في

عصره. وهذا ديوانه مختبر لكل تلك التجارب ، وبوتقة انصهرت فيها كل مسائل المعرفة ، والخبرة، والدراية في شؤون الناس وشجونهم، ومفاهيم الحياة والأحياء، من مضى منهم ومن عاصر، لا سيما مصائر كبار القوم من ملوك واباطرة، وقياصرة، واكاسرة. كما تناول في شعره الزهدي الله وصفاته واوامره ونواهيه، ومسألة الخير والشر ،والجبر والاختيار، والايمان والكفر، والقضاء والقدر، والحساب والعقاب، والحشر والجنة والنار، وأخلاق الناس، وما هم عليه من تقوى وفجور، وغنى وفقر، وكفاف وقناعة، ولهو وشباب، ومشيب، ونسيان وتذكر، الخ. .كل ذلك في نشيد صريح، او نشيج ينم عن شخصية منفعلة احيانا، يكل ما اختلط على الناس فهمه، او شذوا عنه، او دعوا اليه، واحيانا أخرى، عن شخصية غير منفعلة، تورد الحكمة او الموعظة ايرادا تقريريا باهتا. تماما كما وردت في كتب التعاليم، وخطب الحكماء، وكلام العظماء، دون تغيير او تبديل، الا بالقافية. . ولولا هذه لما شعرنا بأن ما يقوله هذا الواعظ، شعر او نظم. .

مذهب الشاعر:

يخبرنا الأب لويس شيخو، وفؤاد افرام البستاني في«روائعه»نقلا عنه) ان أهل الشاعر كانوا من النصارى. اما الشاعر فقد اسلم، ولكن على غير اسلام صحيح، كما زعم البعض. غير ان اشعاره واخباره لا تشير الى شيء من هذه التهمة التي لا شك في ان بعض خصوم الشاعر من متدينين محافظين، او شعراء حاسدين قد قذفوه بها، كما قذفوا غيره من شعراء المجون، ورموهم بالكفر والزندقة، لما هم فيه من استهتار بالطقوس الدينية، لا لما انطووا عليه من اسلام وايمان.

حدث الصولي في اوراقه قال: كان مذهب ابي العتاهية القول بالتوحيد. وان الله خلق جوهرين متضادين، لا من شيء[1] ثم انه بنى العالم هذه البنية منهما، وان العالم حديث العين والصفة، (محدث)، لا محدث له الا الله. وكان يزعم ان الله سيرد كل

---

(١) تعبير الصولي غير دقيق فلسفيا. فكلمة خلق تعني الخلق من شيء. فاذا كان المخلوق من لا شيء كان مبتدعا. من ابدع وليس خلق.

المؤلف

شيء الى هذين الجوهرين المتضادين، قبل ان تفنى الأعيان جميعا. وكان يذهب الى ان المعرفة واقعة بقدر الفكر والاستدلال، والبحث طباعا. وكان يقول بالوعيد، ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة، لا يتنقص احدا، ولا يرى الخروج على السلطان، وكان مجبرا...»

وعلى هذا يكون ابو العتاهية قد أخذ بنصيب من الفلسفة الاسلامية، او التفلسف، كما أخذ عن المانوية، وهو الذي امض ثلاثين سنة من شبابه في الكوفة، ثم في الحيرة، ،أخيرافي بغداد: عاصمة الفكر والفقه، والفن، والشعر والفلسفة. هذه الفلسفة التي بدأت تفعل فعلها في عصر الشاعر، اثناء حركة النقل الكبرى عن الفارسية واليونانية، بواسطة تراجمة سريان وفرس، لكثير من العلوم والمذاهب، والعقائد، والفلسفات.

كما سنرى انه أفاد من الحكمة، وشعر الاعتبار اللذين نقلا مع ما نقل من الهندية والفارسية، واليونانية، ومن مصادر أخرى غير اسلامية كالنصرانية والمانوية(١). وقد أتضح ذلك في سلوكه، وبعض

---

(١) نسبة الى ماني بن فاتك الحكيم (٢١٥ ق.م.) البابلي المولد.

شعره. واذا ما علمنا انه امضى ردحا من حياته في الحيرة، وهي من المراكز المسيحية الهامة، وان عين التمر، مسقط رأس الشاعر، هي ايضا من تلك المراكز، واذا ما عرفنا ان المانوية ليست سوى مزيج من النصرانية والزراداشتية وانها عقيدة لعبت دورها على مسرح الافكار والعقائد، بلسان زنادقتها من مفكرين، وشعراء، وكتاب، ووزراء، ادركنا ما كان لتلك المراكز، ولهذا الدور، من تأثير خطير على تفكير علماء المسلمين وشعرائهم، وكتابهم. حتى ان الخلفاء العباسيين « قد أفزعهم ذلك» على حد تعبير صاحب الفهرست لكثرة ما نفشوا من افكار، وما بشوا من

الفارسي الأصل. قضى حياته يبشر بدين جديد، ويحارب المجوس ويحاربونه. حتى تغلبوا عليه وصلبوه دون ان يقضوا على فكرته. كان والد ماني من المغتسلة . وهي فرقة مسيحية ضالة، تدعو الى التطهر بالعماد ولبس الثياب البيض رمز الطهارة ادعى ماني انه المسيح الثاني، اي البارقليط الذي وعد به يسوع... وانه جاء العالم «بديانة الخلاص» وقد اخذ من الديانات الايرانية، الثنوية التي تجعل في العالم مبدأين: مبدأ خير ومبدأ شر، نور وظلام، والخلاص من الشر ممكن بواسطة التطهير، وهذا التطهير يكون عن طريق المعرفة الخ .. انظر: تاريخ الفلسفة العربية ج ١ ص ٢٦ وما بعدها للدكتور خليل الجر وحنا فاخوري دار المعارف بيروت ١٩٥٧.

عقائدهم الثنوية القديمة، تارة في علانية متحدية جسورة، وتارة في سرية مقصودة تحت شعار من ملل ونحل اسلامية مختلفة. وقد لعبت الشعوبية دورها، الرديف لذلك الدور، مما بلبل الأفكار، واشاع الشك، ونشر الزندقة[1]. وواضح تأثر أبي العتاهية بهذه العقائد عامة والمانوية خاصة، فهو يرى في اصل التكوين جوهرين متضادين ، يصير العالم اليهما قبل فنائه. فمن المعروف، ان مبدأ ثنوية المانوية تقوم على هذين الجوهرين المتضادين، اذ يرى ماني واتباعه ان العالم نشأ عن أصلين هما : النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر، وكل منهما لا يقدر على الآخر! . وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجا تاما. وفي رأس المانويين ان هذا العالم شر، لأن امتزاج النور بالظلمة فيه، شر. . ولهذا نزعوا منزعا رهبانيا، فحرموا النكاح استعجالا للفناء. . وهم بهذا انما يجعلون اعمال الانسان من خير، او شر، جبرية، لانها تصدر عن هذين

---

(١) نيكلسون: تاريخ العرب الادبي ص ٣٧٢

الاصلين او المصدرين: النور والظلمة، او الخير والشر.

وسنجد في اقوال وأشعار أبي العتاهية ما يكوّن مذهبا في الحياة هو مذهب الجبرية نفسه القائل بالجوهرين المتضادين، يقول ابو العتاهية: «ان كل ما فعله العباد من خير وشر فهو من الله.»

وهذا تأكيد لقول الجبرية يكاد يكون حرفيا. فهم ينفون ـ كما علمنا ـ الفعل عن العبد ويضيفونه الى الله الفاعل القادر الخالق[1].

وحين نسترسل في استقراء اخباره واشعاره واقواله نقف على شخصية مثقفة ارادت، بطموحها، ان تحقق مجدين على الأقل: مجد الشعر، ومجد المعرفة، فنهلت من كل ينبوع، وما أكثر الينابيع، في عصره، على ضحالة بعضها، من دينية، ومذهبية وفلسفية، فجالت جولات، واعطت آراء، ولكنها لم تلتزم بواحد منها، ولم تجهر بما يصيبها من أذى.. كانت شخصية انتقائية، اذا جاز التعبير، تأخذ من كل لون بطرف،

---

(١) الملل والنحل ص ٥٩ ـ ٦٢

وان كـانت في مسألـة «الجبر» متميـزة تماما لعمق تأثـرها بالمانوية.

اما تهمة « الجهـل » التي الصقهـا بعض الاغـرار بأبي العتاهية، فتأتي تأكيدا لجهل مطلقهـا ورعونتـه، لا أكـثر، .. كما فعـل أحـد الـطبـاخـين ، ويـدعى عمـروس، وكـان جـارا للشـاعـر، حـين قـال: ان ابـا العتـاهية كـان من اقل النـاس معرفـة، نقلا عن أحـد كبار المرجئة[1] . في ذلك العصر، لعله بشر المـريسي. اذ ان من عـايش عصره، معـايشة عميقـة، وتـأثـر بكـل شيء، وقبس من كـل نـار، كـأبي العتـاهيـة، لا يمكن ان يسمى جـاهـلاً .

---

(١) المرجئة من ارجأ بمعنى امهل وأخر. سموا بالمرجئة، لأنهم يرجئون أمر أصحاب الفرق الاسلامية الذين سفكـوا الدمـاء كالخـوارج والعثمانية، الى يوم القيامة. فلا يحكمون على فريق دون فريق والمرجئة فريق وسط مسالم (فجر الاسلام ص ٢٨٠) لا يكفر بني امية، ولا يكفر أصحاب علي. من كبار أئمتهم أبو بكرة، وعبدالله بن عمر، وعمران بن الحصين. ومن أقوالهم المستغربة في الايمان «ان الايمان الاعتقاد بالقلب. وإن أعلن الكفر بـاللسان»! ومن شعرائهم ثابت بن قطنة القائل:

نرجي الامور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو فندا

وابـــوالعتــاهيـــة لم يكن عـــالمـــاً بمعـنى التـلقي والاختـــزان، بـل كـــان نـاقـــدا ورافضـــاً لمـــا لا يتفق وعقيـدتـه. كمسـألـة خلق القـرآن [1] التي جـاء بهـــا المعتزلة تكريسا لقدم الله وروحانيتـه. قـال سـاخرا من القاضي احمد بن أبي دؤاد:

لـو كنت في الـرأي منسـوبـا الى رشـدٍ
وكـــان عـزمـــك عـزمـــاً فيـه تـــوفيق
لكـان في الفقـه شغـل، لـو قنعت بـه
عـــن ان تـقـــول: كـــلام الله مخـــلوق

فهـو يرى ان الاشتغـال بمسألـة خلق القرآن لـون من العبث والجهـل، لا فائـدة منه.. وهـذا نـاتـج عن

(١) خلق القرآن: مسألة كلامية هامة شغلت حيزاً كبيراً من فكر المعتزلة، وحوارا مريرا بين الفقهاء لا سيما ايام المأمون الذي كان على رأي المعتزلة بان القرآن مخلوق كأي شيء مخلوق آخر. وذلك تنزيها لله عن ان يكون معه قديم آخر إلا هو.. حتى انقلبت المسألة من قضية فكرية الى محنة.. عانى منها الكثيرون.. وكاد يذهب ضحيتها الامام احمد بن جنبل نفسه. للاستزادة انظر ضحى الاسلام ص ١٦١ وما بعدها.

موقفه العدائي من المعتزلة الذين كان بينه وبينهم عداء مذهبي، مرده الى انه من القائلين بالجبر، وهم يقولون بالاختيار. ومرة أخرى ينهض كل هذا، دليلاً على ثقافة الشاعر الدينية، وعلو كعبه في شتى ميادين الفكر والشعر.

تقلبه:

اما كون شاعرنا متقلبا، فهذا مما اجمع عليه دارسوه مؤكدين على انه لم يكن يلتزم بموقف، أو مبدأ، وقد ظهر ذلك في سلوكه. قال الصولي: كان ابو العتاهية مذبذبا في مذهبه، يعتقد شيئا. فاذا سمع طاعنا عليه، ترك اعتقاده اياه واخذ بغيره... واذا عد غيرنا ذلك نقيصه، فنحن لا نرى في تردده وترجحه بين رأي ورأي، نقيصة او عيبا، بل نرد ذلك الى عصره، وناس عصره والنظام القائم، وما في مجتمعه من قيم مشوهة، ومفاهيم ملتوية، واعتبارات طبقية، ومذهبية تسيء الى حرية الانسان، وتفسد عليه انطلاقه الصحيح، فاذا وجد انسان موهوب، كشاعرنا، يملك طاقة هائلة على الابداع، لكنه لا يملك ثراء ولا نسبا عريقا، وكل ما يملك رقة حاشية، وشعور

متـوفـز، وطمـوح، وحب للشهـرة، ورغبـة في النقـد والسخـريـة، اذا وجـد انسـان كهـذا عـد مجنـونـا، او كـالمجنـون، واعتبـره المهـدي معتهـا. . . لا لشيء الا لأن الشاعر تجرأ على التغـزل باحـدى جواري القصر! وقـد سلم رأس شـاعـرنـا لأن تغـزلـه كـان بـإحـدى الجواري. وليس بربة القصر مثلا! وما المهـدي وامثالـه سوى الرمز البشع لكـل ما كـان عليه العصـر من زيف اجتماعي، وخلل في النظـرة الى الانسان المميز. . .

ابو نواس استطاع ان يصرخ بصـوت حاد وسـاخر في وجـه هكـذا مجتمـع، وهكـذا مفـاهيم. . .واعلن ثـورته. . لكن ابـا العتاهيـة لم يستطع ان يفعـل الشيء نفسه، وبنفس القوة والصراحة لاسبـاب ذاتية. فـابتلع لسـانه احيـانا كثيـرة، ولجأ الى التقيـة. . اتقـاء لبـطش السلطان وغضبـه. . .ثم الى التقى، ابتغاء للراحـة من عناء النفس ومعاناة الحياة، ومـالم يستطع ان يـظهره في أقـواله وشعـره ومواقفـه، حفر في نفسـه اخـاديـد من الألم، وأشعل نقمة مكبوتة، أكتوت بها حنـاياه. .فـوقع في صـراع نفسي حاد، ظهـر على تصـرفاتـه وحركـاتـه وسلوكـه. فعـدوا ذلـك منـه تـذبـذبـا، وزادوافعـدوه جنوناً. . . ولو عاش شاعرنـا في عصر متقـدم كعصرنـا

لكان له شأن آخر بين يدي محللي الشخصية الفذة من علماء النفس التجريبيين. .

ومن المؤسف ان بعض دارسيه من المعاصرين، وضعوه في المكان نفسه، ونسبوا تقلبه وسلوكه المضطرب الى عاهات ذاتية فيه. فلم يروا فيه انسانا مميزا او مغايرا او بعضا من هذا، يتمتع بشخصية هجومية وبشاعرية تجديدية اصيلة، اراد معها ان يجدد فلم تسعفه الاداة، وان لم يفتقر الى الروح او الارادة. .

ومهما يكن فقد كان على دارسيه اليوم ان يقيسوه بمقياس النقد الحديث، وان تحلل شخصيته في مختبر التحليل النفسي الجديد. وإلا فما معنى او ما فائدة الدراسة العصرية اذا كانت، امام الدراسة القديمة، حذو النعل للنعل؟!

صحيح ان ابا العتاهية كان ضحية عصره، ومفاهيم مجتمعه، رغم محاولاته الجريئة والمتعددة للخروج من وضعه، ولقبه، ونظرة الناس اليه، خاصة رجال الدين. . . الا ان الصحيح ايضا هو انه وامثاله، لا يزالون ضحيتنا، نحن العائشين في أواخر

القرن العشرين، ما دمنا ننظر اليهم نظرة سلفية محافظة، وكأننا نخشى ان تضام عهود الماضي، على علاتها. . ويساء الى ملوكهم (ولا نقول خلفائهم) حين نكتشف، في بعض شعرائنا، انقلابيتهم، وحبهم للتجديد، والثورة على كل ما اهترأ في مجتمعهم وتعفن! من قبلية، وعصبية، ومذهبية، وطبقية، واتوقراطية وتيوقراطية، حيث كان أمثال ابي العتاهية، وابي نواس، وبشار بن برد يداسون بالاقدام لمجرد دعوتهم للتجديد، أو ثورتهم على رجال الدين المتزمتين، او حريتهم الجريئة في الجهر بآرائهم، ومعتقداتهم، والدعوة الى ما يرونه حسنا، ومنسجما مع الحضارة الوافدة وروح العصر. . ان عصرا يضرب فيه بشار (الاعمى) حتى الموت، ويسمم فيه ابن الرومي، و«يجنن» ابو العتاهية، ويقطع ابن المقفع إربا إربا ثم يحرق. . لهو عصر تافه ومجرم لا يهمنا الانتساب اليه، والمفاخرة به، . . ولولا ما التمع فيه من حضارة، وارهص لفلسفة، واهتم بعلم: لولا عصر المأمون بالذات. . . ثم لولا امثال هؤلاء الشعراء المسحوقين والادباء التجديديين الذين استطاعوا ان يصلونا بهم، وباحلامهم، وبأفكارهم، ولغتهم

الشعرية الخاصة، وأسلوبهم المشرق، لكانت صلتنا بالتراث اوهى من خيط العنكبوت.. وبذلك العصر صلة المستريب..

حرصه على المال:

ولا نقول بخله، لأن من نشأ نشأة ابي العتاهية فقيرامعدما، ينفق عليه أخوه زيد الخزاف، سيكون من أشد أهتماماته الوصول الى الثروة باي طريق، وبأي حيلة، حتى اذا وصل رأيناه يعض على دراهمه بالنواجذ. وهذه حالة طبيعية، لمن كان في مثل وضعه، ومثل عصره، لا يحترم فيه أشباه الناس سوى الغني، ولا يمجدون الا ذوي الجاه والسلطان، ولو كانوا من المجرمين او اللصوص! فكيف بشاعرنا وهو الذي يحس احساسا عميقا بمواهبه، وانه جدير بالشهرة والمجد، الحالة نفسها ستحدث للمتنبي الذي طمح الى مجد التربع على عرش الامبراطوريتين : امبراطورية الحكم، وامبراطورية الشعر، فمات دون الاولى، وعاش فوق الثانية ولا يزال . . .

المسألة اذن ليست مسألة بخل لمجرد البخل. انها الحرص على الآلة الوحيدة لصناعة المجد المادي،

توصلاً الى تحقيق المجد الشعري، وتحقيق الذات، في ذلك الزمن الرديء الذي يرسب فيه الدر وتطفو الجيف، كما يقول ابن الرومي، والذي يرى فيه شاعرنا كلّ الناس اشحاء بخلاء.. في تقديرهم للمواهب وفي احترامهم لاصحابها، وفي... كل شيء..

فاضرب بطرفك حيث شئت
فلن ترى الا بخيلا

فليكن هو مثلهم.. نكاية بهم،! انها سخرية الاقدار تضطر أمثال ابي العتاهية الى ان تصبح صفة الحرص والشح من صفاتهم الراسخة، في زمان قلّ فيه الكرماء، وشحت الاريحية الا على من لا يستحقها من الاتباع والمبخرين!

وتروي كتب السير كالاغاني، وتاريخ الادب العربي لنيكلسون، وكتاب بغداد لطيفور، و مروج الذهب، وغيرها، قصصا غريبة عن حرص ابي العتاهية وشحه، حتى ان كثيرين من متشددي الاسلام الذين عاصروه، اتهموه في دينه لأنه يرى ان

الزكاة حرام.. وهذا الجاحظ المعجب بشعره، قد ذكره بين زمرة الأشحاء في كتابه«البخلاء». اما انه فاسد العقيدة ضعيف الاسلام لأنه بخيل، كما يؤكد بعض الدارسين (١) فهذا أمر عجب!! واذا صح فيصبح ٩٠ ٪ من المسلمين غير صحيحي الاسلام!

اما كيف اهتدى هذا الدارس، الى مثل رأيه ذاك، فرواية لأبي الفرج الاصفهاني عن ثمامة بن اشرس يقول فيها: « انشدني ابو العتاهية:

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه
تملكه المال الذي هو مالكه
الا انما مالي الذي انا منفق
وليس لي المال الذي انا تاركه
اذا كنت ذا مالٍ فبادر به الذي
يحق، وإلا استهلكته مهالكه

---

(١) هو الدكتور محمد محمود الدش . انظر كتابه: ابو العتاهية، حياته وشعره ص ١٣١ وما بعدها. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٨

فقلت لـه: من اين قضيت بهذا؟ قـال: من قـول رسول الله: انما لك من مالك ما أكلت، فافنيت، او لبست فـابليت، او تصدقت فـامضيت، فقلت لـه: اتؤمن بـان هذا قـول رسول الله، وأنه الحق؟قـال نعم. قلت: فلم تحبس عنـدك سبعـا وعشـريـن بـدرة في دارك، ولا تـأكـل منها ولا تشـرب، ولا تـزكي، ولا تقدمها ذخـرا ليوم فقـرك، وفاقتـك؟ قال: يـا أبا معن والله: ان مـا قلتـه لهـو الحق، ولكني اخـاف الفقـر والحاجة الى الناس، فقلت: وبم تزيـد حال من افتقـر، عـلى حـالـك وانت دائم الحـرص، دائم الجمـع، شحيح على نفسك، لا تشتري اللحم الا من عيد الى عيد؟ فترك جـواب كلامي كله. ثم قـال لي: والله لقد اشتـريت في يوم عـاشوراء لحـما وتوابله . . . ومـا يتبعه بخمسـة دراهم . . . فلما قال لي هـذا القول اضحكني حتى اذهلني عن جـوابـه ومعـاتبتـه، فـأمسكت عنـه، وعلمت انه ليس ممن شرع صدره للاسلام!!»

* * *

انسـان ذاق مرارة الفقـر، في الكـوفـة، و اكتـوى بنـار الحرمـان في شبـابـه، حتى اذا جمـع منـه قليـلا او

كثيرا، طالبه ابو معن هـذا بانفـاق زكاة مـاله، حتى اذا تحايل عليه الشاعر فادعى انه ينفقها عـلى عيالـه، شك في اسلامه فتأمل!!

ونحن لا نلوم ابـا معن الـزميت، بقــدر مـا نلوم الـدكتور« الـدش» الذي اخـذ روايات الاقـدمين عـلى هـزالها، ولم يخضـع ابا العتـاهية«البخيـل» لمقاييس علم النفس الحـديث، فيبـرئـه او يعـذره.. ولا يـرميـه بـالزنـدقة، كـما رموه. حتى ان نـظرة عميقة الى مـوقع الشـاعر من عصـره ونـاس عصـره، تغني عن مقـاييس علم النفس..

ومهما يكن من أمر بخـل شاعـرنا، وحـرصه عـلى المال، فلسنا هنا لندافع عن اسلام ابي العتـاهية. فقـد يكون ضعيف الاسلام لأسباب أخرى، لكنه، قطعـا، ليس كذلك، لأنه بخيل..

ثروته:

جـاء في كتب السير ان ثـروة ابي العتـاهيـة كـانت تقريباكالآتي:

- ٢٧٠ ألف درهم من مصـادر مختلفة، لأنـه كان يعرف كيف يهز أريحية الخلفاء والامراء والقواد.

- ٥٠ ألف درهم من الرشيد سنويا مضروبة بخمسة أضعافها على الأقل.

- ٢٠ ألف درهم من المأمون مضروبة بعشرة أضعافها على الأقل.

- ٣ آلاف درهم من الحسن بن سهل مضروبة بعشرة أضعافها على الأقل.

- ٢ ألفا درهم سن زبيدة ام جعفر + ٢٠ ديناراً سنويا [١] مضروبة بخمسة أضعافها الى ما هنالك من أعطيات زهيدة..

ليعذرنا القراء الكرام على هذا التدقيق في ثروة ابي العتاهية.. اذ ليس هذا من شأن مثل هذه الدراسة، لقد كان ذلك منا على سبيل التحري العلمي لنستنتج انها ثروة متواضعة بالنسبة لما كان

(١) كانوا يسمون كل عشرة آلاف فرنك ذهبا: بدرة ويقدر نيكلسون كل ٥٠ ألف درهم بألفي جنيه. اما الدينار فهو وحدة نقد ذهبية سكها العرب على غرار الدينار الهرقلي، وهي تزيد وزنا على نصف الليرة الانكليزية بقليل (٦٦ قمحة) وكان الدينار يعرف اولاً بعشرة دراهم ثم اخذت اسعار الفضة تتقلب بحيث بلغ احيانا عشرين درهما: انظر كتاب: ابو العتاهية: رائد الزهد في الشعر العربي ص ١٥ د. اسامة عانوتي منشورات المكتبة الاهلية بيروت ١٩٦٢.

يحصل عليه محظوظون آخرون، اقل شأنا من شاعرنا. فهذا مروان بن ابي حفصة وهو شاعر يكاد يكون مغمورا امام ابي العتاهية، ينال الف درهم ثمنا كل بيت يقوله في مدح المهدي! والمهدي اياه يمنح عبد الله بن دحمان المغني مائة الف دينار دفعة واحدة[1] والمأمون يفرق في يوم واحد ٢٦ مليون درهم ومائة الف درهم ثمن صوت يغنيه اسحاق الموصلي ليحي بن خالد! فحري بأبي العتاهية ان ينتزع ثروته انتزاعا، قبل ان تذهب لغير الاكفياء ثم يحرص عليها ذلك الحرص الشديد، فيصون كرامته ، ولا يسيء الى اسلامه، في زمن كان الاسلام الصحيح في واد، وأكثرية المسلمين في واد آخر. وكان الذين يرمون ابا العتاهية بالزندقة احق الناس بالرمي والرجم.

---

(١) فاذا اجرينا على هذا الاساس عملية ضرب وقسمة كان مجموع ثروة ابي العتاهية النقدية ما يقارب ٣٨٥٠٠ دينار. وهي ثروة لا بأس بها. كانت كفيلة بتأمين حياته وكرامته اثناء الزهد والشيخوخة، وتأمين عياله. لكنها زهيدة بالقياس الى ثروات المحظوظين الآخرين. .المؤلف

فصل خاص

تاريخ الزهد في العالم الشرقي القديم:

قبل أن نتكلم عن زهد أبي العتاهية، وقيمته، ومدى صحته، علينا، من باب الفضول والتوسع، ان نلقي نظرة عابرة على تاريخ الزهد عند الامم القديمة، بشكل عام، ثم عند العرب. قبل الاسلام وبعده، لننتهي عند زهد أبي العتاهية بشكل خاص..

من قديم الزمان يوم صحا الانسان على واقعه، وذاته، ومصيره، وراح يتساءل، ويسأل: مَن انا؟ وما الحياة والموت، والى اين المصير، وما قيمة ان احيا واعمل ثم اموت؟! وحين استطاع ان يعبر عن ذلك بشكل انشودة أو أهزوجة او اغنية، او مرثاة، . كان ينشيء ادبا شفهيا، هو مزيج من نثر وشعر، قوامه الحكمة، وغايته الاعتبار، وما بينهما تنفيس عن كربته وضيقه، وأحزانه... حتى اذا تعمق في النظرة الى

الكـون، وسر الـوجود، ولـج في السؤال، انقلب ادبـه فلسفة او تفلسفا، وانتهى الى وضـع مبادىء ونـظريات يفسر بها العالم والكون والله والانسان . .

وهذا نموذج من اناشيد قدماء المصريين، يعبـر فيه الشاعر عن حيرته امام الحياة والمصير في عبثية واضحـة امام الحياة، وغبطة تامة امام الموت:

ما التكاثر في الارض، والنهاية القبر؟!
تشبه بالحي الأبدي العادل
الذي لا يظلم احداً
السلام الذي لا يحب تعكـير الصفاء ابدا
اليه يرجع الناس كلهم . .
اذا خلق الانسان، دعي الى سبل الرشـاد
ووعظ بأن يكون سليما معافى،
يعمل الخير، ويذكر الموت
حتى اذا جاء اجله استقبل القبر جذلانَ مغتبطا . .

ايهـا الكاهن: ان المـوت الذي تتحدثون عنـه ليس الا الاتحاد بأرباب الابدية![1]

---

(١) انظر كتاب: على هامش التاريخ المصري القديم لعبد القادر باشا حمـزة. وكتـاب مصـر القديمـة بجـزئيـه للاستـاذ سليم حسن بك.

هذا الشعر الزاهد، او ما كانوا يسمونه الادب الاعتباري، جاء في شكل هواجس يطلقها الشاعر تحت تأثير الجو الديني الضاغط، وما كان الكهنة يثيرونه في نفوس الناس من رعب وخوف من هول المصير، ولعنة الألهة التي تصب على رؤوس الخطاة.

ونجد عند الصينيين الكثير من هـذا القبيل، يتلوه الكهنـة في بيعهم، ويصيغونـه مواعظ زجـرية للغـواة، وتمجيدية لنبيهم الاكبر كونفوشيوس.

اما الزهدالمجسدالذي تمثل انسانا، وضـج ايمانـا فكان في الهند.. حيث عاش فلاسفـة وادباء وشعـراء كثيـرون جسدوا الـروح الهندية التـواقـة الى الـزهـد والتصـوف، والـدعـوة الى طهـارة القلب، وصفـاء النفس. فعاشوا هذه المثل والاخلاق، قبـل ان يغنوها شعـرا، او يكسبوهـا في قـوالب الحكمـة، ونـظريـات الفلسفة. فهذا بـوذا يكرس هـذا الاتجاه الـروحي تكـريساً تاما. فبعـد ان هجر الحيـاة الارستقـراطيـة، واتخذ منعـزلا يـأوي اليـه انـاء الليـل واطـراف النهـار مفكـرا متـأمـلا، بينـا لـداتـه من الفتيـان يلهـون، ويلعبون، سادرين غير مدركـين، كما ادرك هـو، أن كل

هـذا الجمال الـرائع فيهم، وفي مـا حولهم، من مفـاتن الـطبيعة سـائر الى القبـر. . لقد ادرك ان كـل مـا ومن تلده الحيـاة مقضي عليه بالتغير والفنـاء. وان شبابهم هـذا المتـوهـج بـالحيـاة، ستلفحـه ثلوج الشيخـوخـة، فيجمـد ويخبو. . والحيـاة نفسها ستتحـل عنـاصـرهـا، وتزول، وهي على قصـرها مليئـة بالهم والعنـاء. ومهد الـوليد كقبـر الفقيد متـرع ما بينهـما بالأسى والعـذاب والبـلاء. . وكل جهـد يبذله الانسان مفعم بـالمـرارة. وليست هنـاك سعادة دائمـة في هذه الحيـاة الـدنيـا بـل ليست هنـاك سعادة عـلى الاطلاق، (كما سيؤكـد ذلـك شوبنهور الالمـاني في القرن التـاسـع عشر) اذ مـا معنى سعـــادة يسبقهـا ألم الحصـــول عليهـــا، ثم يعقبهـــا ألم السرعة في فقدانها، وعدم القدرة على الاحتفاظ بها . . كما يقول هذا الأخير . .

ويصرخ بوذا :

آه لـو استطاع الانسـان ان يتخلص من الحياة التي لا تسبب لـه سوى الهم والشقـاء. لكن الانتحـار عبث لا يجـدي. . لأنه لا يقتلع الشـر من جـذوره. فقـطف الثمـرة، لا يقتل الشجـرة، اذ سـرعـان مـا تـزهـر ثم تثمـر. . ان جذر الحيـاة هـو الـرغبـة في الحيـاة، فـان

محوت من نفسك هذه الرغبة، فقد قتلت مصدر الألم، ومحوت الشر، واعددت نفسك للطمأنينة الكبرى[1]. . هذا ما دار في رأس الفتى الشاب بوذا، فلما اكتملت رجولته كان قد صمم على العزلة. وفي التاسعة والعشرين من عمره، غادر قصر ابيه، تاركا وراءه زوجة جميلة، وطفلا رضيعا. وكان في صحبته رفيق واحد. ولم يمضِ في رحلته طويلا حتى أعاد هذا الرفيق، واعطاه سيفه وحصانه. وصادف في طريقه فقيرا فبادله ثوبه الجميل بثوب ممزق بالٍ . . لقد هاجر بوذا الى . . نفسه . . ولم تكن هجرته عزلة هروبية يائسة، بل باتجاه الناس، لا لكي يحكمهم، كأبيه، بل ليكون حكيمهم وهاديهم . .

ومن اقواله:

دعني ازل شعري ولحيتي، دعني ارتد ثوبا اصفر(هو ثوب الزاهدين)واغادر حياة الأسرة، الى حياة بغير مأوى. .

---

(١) قصة الادب في العالم ج ١ ص ٥٧ للاستاذين احمد امين وزكي نجيب محمود.

ثم راح يتلقى مبادىء الدين عن البراهمة. لكنها لم تعجبه.. فازدرى تعاليم الفيدا لأنها تدعو الى التحكم الديني المطلق. فمن يبعث الطمأنينة في نفسه الحيرى؟ الاشراق الروحي؟ اجل. انه ذلك التألق الروحي الذي يفيض على نفس الزاهد المتأمل فيملأها نورا.. حينئذ يهتدي الى حقيقة وحيدة كفيلة بخلاص الانسان من خطيئته وشقائه هي: ان يحب الانسان كل كائن حي حباً لا يرجو من ورائه غاية غير الحب. هذا الانسان الممتلىء حبا هو وحده القريب من نعيم النيرفانا(١) ذلك الفناء الذاتي هولب البوذية ورائدها. وسيكون لتعاليم بوذا اثرها العميق في مختلف الديانات الارضية والسماوية المقبلة. لكنها ستختلف عنها بأنها لم تسن لاتباعها طقوساً دينية يمارسونها.

من اشعار البوذيين الاعتبارية ما جاء في ديوان

---

(١) النيرفانا حالة روحانية يمحي فيها كل تفكير في الذاتية الشخصية: فكلما سرت خطوة في انكار نفسك دنوت من. النيرفانا (ومن طقوسها اليوغا) وكلما حصرت تفكيرك في نفسك ونزواتها بعدت عنها. للاستزادة: انظر المصدر السابق ج ١ ص ٥٩ وما بعدها.

«طـريق الحق» لاحد شعـرائهم والذي تـرجم نماذج منـه الى العـــربيـــة الاستـــاذان احمــد امــين وزكي نجيـب محمود[1]

ان الكراهية في هذا العالم، لا تمحوها كراهيه مثلها
انما يمحو الكراهية الحب
ان الخير للعقل ان يخفف حدته
فالعقل جموح صعب المراس
ينزع الى ميله، وهواه
انك لن تجني من الخطيئة ثمرا
وقد يحسها الحمقى مترعة بـالرحيق
لكن اذا تم للخطيئة نضجها
هوى الحمقى باثمهم في هاوية الأسى . .

وتنقـل تعاليم بـوذا الى اليابـان والصين، وتصبـح دستـورا للوعاظ والـزهاد والمتصوفين..وفي بـلاد فـارس يـظهر نبي جـديـد هـو زارا دشت اوزردشت[2] وقـوام

---

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٦١

(٢) نسبـة الى زرادشت بن يورشب الـذي ظهـر في زمـان كشتـاسب بن لهراسب الملك (بين العـاشر والخـامس ق.م.) أبوه من أذربيجـان وأمـه من الري واسمهـا دغدويه زعموا ان الله بعثـه رسـولا بعـد ان

الزردشتية: العيش وفق قوانين الطبيعة. فلكي يكون الانسان جزءا سليما في هيكل الكون ينبغي ان يعيش صحيحا معافى. والا يكون ضعيف النفس والجسد. وان يكون ذا ضمير حي، وحدس شفاف ليميز الدنس من الطهارة، والحق من الباطل، فيحيا وفق ارادة الله.

ومن هذه العقيدة سيقتبس ماني عقيدته الجديدة، وان كان يختلف وزردشت في نظرتهما للانسان،

= بلغ الثلاثين يهدي الناس الى عبادة الله واجتناب الخبائث. من اركان دينه: ان النور والظلمة اصلان متضادان وكذلك يزدان واهرمن، وهما مبدأ وجود العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة والله هو خالق النور والظلمة ومبدعهما. وهو واحد لا شريك له ولا ضد. وما الخير والشر الا من امتزاج النور والظلمة ولولا هذا الامتزاج لما كان العالم وهما يتقاومان ويتغالبان الى ان يغلب النور الظلمة... وذلك هو سبب الخلاص. فالنور هو الأصل ووجوده وجود حقيقي اما الظلمة فتابع (كالظل بالنسبة الى الشخص) لزارادشت كتاب معروف هو زند اوستا الخ. الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها) اما المحتوى الاجتماعي للزردشتية فهو: الدعوة الى الاصلاح واحلال النقاء الروحي محل الطقوس. والانتصار للخير والتطهر الداخلي الذي يقود الى السعادة وقد ظلت الزردشتية مسيطرة في ايران حتى الفتح الاسلامي. المؤلف.

وطـريقة سلوكـه في الحياة وصـولا الى النيرفـانـا. مـاني تـزهـد، وكـان زهـدهسلبيـاً. امـا زردشت فكـان يؤمن بـالحياة الحـرة القـوية الطاهـرة، والاحيـاء الاقـويـاء الاحـرار الأطهـار، فلم يتـزهـد بمعنى الانقـطاع عن الناس، والكفر بالحياة، وتفضيـل الفنـاء عـلى البقاء. . بـل كـان، ضمن الحيـاة، صـراعيـا داعيـا الى انقـاذ الانسـانية، وخـلاص الانسان بـالتطهـر. وخير مـطهـر هو«النار» التي اصبحت معبـودة فيها بعـد عند المجـوس والفرس عامة، بعد ان كانت عند زردشت رمزا. .

من اقوال زردشت الاعتبارية:

اياك والكبرياء من اجل كنوزك ومالك
لأنك تاركها، ولا شك، في نهاية امرك
ايـاك والفخر بنسبـك وحبـك فـانمـا تـركن، في نهايتـك ، الى مـا قدمتـه يداك . وايـاك والعجب بحياتـك نفسهـا.
فان الفناء لاحقك عند آخر المطاف
وسيعود الى الارض جزؤك الفاني. .

ونمر بشعراء العبرية الاعتباريين الـزاهدين مـرورا سـريعا لكثـرتهم في التـوراة. حتى ليكـاد كـل نبي من

انبيـاء اليهود ان يكـون شاعـرا. . ما بـين حكيم وباك وراث وزاهـد بالحيـاة. تكاد التـوراة تصبح مجمـوعـة رثـائيات وبكـائيات تنـدب مجد صهيـون الغـابـر، كـما تبكي الهيكـل والشتـات وويـلات الحيـاة: فمن سفـر ايـوب، ونشيـد الانـاشيـد، الى سفـر اشعيا الـزاهـد المتشـائم، الى سفـر ارميـا، الى سفـر دانيـال صـاحب «الانـاشيـد» ـ التعـازي، الى مـزامـير داود (ويسميهـا العـرب الزبّـور) الى كتاب الأمثـال، وسفـر الجـامعـة. ويبـدو ان واضعه حكيم زاهـد، خبير بـاحـوال الـدين والدنيا، فاقد الأمـل من صلاحهـا، حيث يطلق هـذه الصرخة البـائسة عـلى لســان ابن داود (سليمان) ملك اورشليم:

«باطل الاباطيل، وكل شيء باطل»!
ماذا يجني الانسان من جهده تحت الشمس؟!
ما كان سيكون، وما سبق سيعاد عمله
ولا جديد تحت الشمس. .
كل ما تحت الشمس باطل، وقبض الريح. . .

ونكتفي بهـذا القـدر،اذ لم يكن رائـدنـا من هـذا الاستعراض السريع لمظاهـر ودوافع الـزهد عنـد بعض

الأمم الشرقية، الالنؤكدحقيقة جامعة لخصائص هذه الأمم وهي: النظرة المتقاربة الى الكون والانسان، ومفهوم الالوهية، وموقف المفكرين، والانبياء والرسل، والشعراء من الحياة وقيمتها، والموت وما بعد الموت، وقد اقتبس هذه الافكار وبرمجها كثيرون من فلاسفة اليونان.

حتى اذا انتهينا الى ابي العتاهية، وهو الشاعر والمثقف، لم نجد بدعاً زهد،، ولا موقفه من الحياة وسنرى، وقد رأينا، ان زهده هذا، مهما قيل فيه، هو حصيلة ثقافة، ونتاج عقيدة، وافراز طبيعي لحالات وجدان شرقي، في وجدانية وجودية عاشها وعاناها انسان وجد نفسه بين فكي الضياع والهوان.. ثم بين فكي الفسق والندم.. وهما حالتان من شأنهما، بل لا بد لهما الا انتقذفا بهذه الشخصية المرهفة، المثقلة بالاوزار والافكار، خارج حلبة الصراع المادي والفكري الى حيث التطهر بالزهد والتأمل والاعتبار شيمة اولئكالحكماءوالانبياء والشعراء.

الزهد العربي:

اما العرب في جاهليتهم فقد كان لهم

حكماؤهم وزهادهم ونساكهم وسواحهم ورهبانهم فكان لهم شعر زهدي كثير كثرة هؤلاء.

ولقد اتشح زهد الجاهليين بوشاح النسك او التنسك. ويستدل زكي مبارك[1] على ذلك بلفظتي «الديان» و «الرباني» الواردتين في شعر زهادهم، ويؤيد مبارك رأيه «بصيام الأبد» الذي كان ذائعاً في الجاهلية. وفي الحديث: «لاصام من صام الأبد». وهذه اشارة واضحة الى مثل هذا الصيام عند نساك الجاهلية، وإلا لما ذكره النبي. وهذا الجاحظ حين يذكر الشاعر عدي بن زيد العبادي يصفه بأنه «كان ربانيا وصاحب كتب» فنحن نعرف عنه انه كان نصرانيا، متأثرا بتعاليم النصرانية التي تدعو الى التضحية والزهد والرهبانية. حتى اذا نكب ايام النعمان الثالث، ثم مات في سجنه خنقاً، ظهر في شعره هذان المؤثران الكبيران: النصرانية والنكبة التي حلت به، مع انه كان قبل ذلك فتى فاتكا وصاحب مجون.

---

(١) في التصوف الاسلامي د. زكي مبارك ص ٥٣.

وهكـذا تحول شعـره، بتحول حيـاته، الى قصـائد في الزهد والاعتبار، يطلقها وجدان ملتاع وعقل صحـا على تفاهـة الحياة وهـول المصير. وان الانسـان، مهما عظم، ما هـو، الالعبة القـدر. حتى ولو كـان «كسرى الملوك انـوشـروان» او سـابـور قبله، او«ملوك»الـروم الخ[١]. وهذا حنظلة بن أبي عفراء[٢] الشاعـر يتنسك ويـزهـد، بعـد ان تنصـر،حتى انـه بنى ديـرا عُـرف بـاسمه. كـما يروي صـاحب تاريـخ بغداد ان هـارون المـذكور في الآيـة القرآنيـة ﴿يا اخت هـارون﴾. الـخ كان رجلاً صـالحاً في بني اسـرائيل. والصـلاح هنا هـو النسك واخت هارون هي مريم ام المسيح.

ومن هؤلاء الـزهاد من لبس الصـوف، والخرقـة، ممهدين بذلـك، الى ظهور حـركة التصـوف الكبرى في الاسـلام (في القرنـين الثالث والـرابـع الهجـريـين) الى جانب التمهيدات والمؤثرات الخارجية الأخرى بالطبع. تلك الحـركة التي انقلبت الى حـركـة فلسفيـة وطقسيـة

---

(١) المجاني الحديثة ج ١ ص ٢٥٥ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٠

(٢) معجم البلدان.

وحلولية، لها مناضلوها وشهداؤها؛ ثم انتهت من «حرقة الى خرقة» كما قيل عنها. اي من فلسفة الى شعوذة، وانقطاع تام عن الدنيا. وحسبنا اخيرا ان نذكر من زهاد الجاهلية ونساكها وربانييها ورقة بن نوفل (١) وزيد بن عمرو، وامية بن ابي الصلت، واكثم بن صيفي وقسّ بن ساعدة، لنتأكد من ان نزعة الزهد كانت موجودة بكثرة في الجاهلية (٢) يجسدها هؤلاء وامثالهم قولا وعملا..

جاء في الأغاني:

ان زيد بن عمرو كان من بين الذين اعتزلوا عبادة الاوثان، وهم قليل. وامتنع عن اكل اضاحيهم. وكان يقول: «يا معشر قريش، ايرسل الله قطر السماء. وينبتُ بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره؟! والله ما اعلم

---

(١) ورقة بن نوفل هو ابن عم السيدة خديجة زوج النبي الاولى. وهو احد من اعتزل عبادة الأوثان، وتزهد. وصفه النبي بقوله: « قد رأيته في المنام كأن عليه ثياباً بيضا. فقد اظن انه لو كان من النار لم أر عليه البياض (الاغاني ٣/ ١١٩) وقد نهى النبي عن سبه.

(٢) ابو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي ص ٨٠ د. اسامة عانوتي منشورات المكتبة الاهلية بيروت ١٩٦٢

عـلى ظهر الأرض احـدا على دين ابـراهيم غيري» ولـه كما لورقة شعر روحي زهـدي غايـة في الندم والتحـرق وحرارة الايمان . .

ولم يكن حـال امية بن ابي الصلت بـأحسن من حـال هذين الزاهـدين، فقـد قيـل عنـه: انـه نـظر في الكتب فقـرأها، ولبس المسوح تعبداً، وذكـر فضـائـل ابراهيم، واسماعيـل، والحنيفية، وحـرّم شرب الخمـر وشـك في الاوثان، والتمس الـدين، حتى انه طمـع في النبـوة. لأنـه قـرأفي الكتب ان نبيـاً يبعث من العرب، فكان يرجو ان يكونه . .

وهنـاك شعـراء جـاهليون كثيـرون تـأثـروا بسيـرة وتعـاليم النساك في الجـاهلية، وطـريقة حيـاتهم. نعـد منهم ولا نعـددهم: امثال عمـرو بن ضحيـئة، وزهـير بن ابي سلمى، والأعشى، عـلى تهتكـه. كـان متـأثـراً بذلك لكثرة تردده علي رهبان «كعبـة نجران» وعبـاديي الحيـرة. ولبيـد، والممـزق العبـدي، وعمـروبن الأهتم التميمي.

وهكـذا نـرى نـزعـة الـزهـد، معتـدلا ومتـطرفـا، تشكـل تيـاراً كبيـراً في الجـاهليـة، وفي حضـارات

وفلسفات الامم الشرقية القديمة، مبعثه هذه الحضارات والفلسفات نفسها، مضافة الى واقع كل زاهد، وما كان يعتريه من حالات اليأس والشك حين يتقلب به الدهر من نعيم الى جحيم، ومن شباب الى شيخوخة، فلا يجد امامه سوى التأمل واستجلاء حقائق الحياة من وراء سرابها الخادع فينطق بالحكمة الاعتبارية كما رأينا عند الادباء الحكماء والانبياء والوعاظ ثم بالشعر الزهدي التائب المنيب عند الشعراء الخاطئين، لعلهم بهذا الشعر النشيج يهدئون من روع انفسهم، ويكفرون عنها اثم اوزارها، او يتسترون عليها، كما فعل ابو العتاهية احيانا كثيرة. . .

الزهد الاسلامي:

كان للقرآن الكريم وتعاليمه أثر بالغ في نفوس المسلمين الأوائل، على صعيد الفكر والروح. فتحولوا من عشق الذات الى عشق المثال، وتخففوا من ربقة المادة الى رفقة الروح. . وكان النبي خير مجسد لتلك المثل والتعاليم الإلهية، حين عاشها اولا، ثم دعا الى ان يعيشها حواريوه واقرباؤه

وصحابته. ومن الواضح في سيرته وفهمه لتلك المثل، انه لم يكن مغاليا فيها ولا مقتصداً، لا مفرطاً ولا مفرطا اي انه كان «وسطا» في كل شيء.

ومن جملة دعواته دعوته الى الوسطية او التوسط تارة في القرآن، كما في الآية: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا﴾ وتارة على لسانه «كنتم امة وسطا» و«خير الامور اوسطها». من هنا كان الزهد الاسلامي الأول لا شطط فيه، فلا صوفية، ولا انقطاع تام عن الدنيا فلا رهبانية.. وقد مدح النبي الدنيا بقوله: الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستعملكم فيها ينظر كيف تعملون[1] كما مدح العمل وذم السؤال والفقر وكان قبل البعثة تاجرا.. كل ذلك بمواقف واقوال كثيرة لا مجال لذكرها هنا[2].

---

(١) مروج الذهب ج٢ ص ٣٠٢

(٢) للاستزادة اطلب اقوال النبي واحاديثه عن ابي اسحاق و« المجتبى » لابن دريد، وما جمعه منها الزجاجي والمبرد، ونفطويه، وجعفر بن محمد بن حمدان الموصلي وغيرهم.

وراح المسلمون الأوائل يأخذون من الدنيا حظاً يقيم الأود، ولا يفتن، ويدعون نوافلها وما فيها من بهرج خادع ومتاع الغرور فجاء زهدهم محمديا ايجابياً لا زهدا مانويا سلبيا زهداً يدعو الى العمل خير العمل والكسب الحلال، زهدا في الحياة لا عن الحياة.. جاء في القرآن الكريم: ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، واحسن كما أحسن الله اليك**[1] **والمال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا**[2] **ومن كان يريد الحياة الدنيا، نوفِ إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يُبخَسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا فيها يعملون**﴾[3] يروى عن النبي أن رجلاً جاءه فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته احبني الله واحبني

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) سورة الكهف الآية ٤٦

(٣) سورة هود الآية ١٥ـ١٦

الناس، فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس [1]. وقيل للنبي: من ازهد الناس في الدنيا. قال: من لم ينس المقابر والبلى، وآثر ما يبقى على ما يفنى، وعد نفسه مع الموتى[2].. وعلى هذا، وفي ما لا حصر له من الآيات والاحاديث والمواقف، نجد ان الزهد الاسلامي الاول كان مثالا يحتذى ورمزه النبي، ونهجا يتبع ومثاله سيرته. جاء زهداً صافيا لا يشوبه كدر الاقتباس من العقائد السالفة، كما لم يأت تحويرا لها او تطويراً إلا ما كان منه متمماً لمكارم الاخلاق الشرقية القديمة، والسنن القدسية القديمة.

الشعراء والحكماء الزاهدون:

كان لا بد للاسلام الاول ألاَّ يُروج للشعر، فلا يقرب الشعراء. لاسيما وان النبي نفسه قد اتهمه اعداء دعوته بأنه شاعرٌ مجنون[3].. فرد عليهم

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦٦

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٧١

(٣) ومجنون هنا لا تعني فقدان العقل، بل تعني أن جناً قد خالط عقله، واوحى له بتلك الآيات... كما كانوا يأفكون.

الوحي بقوله: « وما علمناه الشعر، وما ينبغي له... »
لكن هذا لا يعني الا ينهض من بين المسلمين شعراء متأدبون بأدب النبي، ومتأثرون بروعة الكلم في القرآن الذي يقرب مما ينظمون، لكنه يسمو عليه سموا روحيا وتعبيريا كبيرا، فيدافعون بقصائدهم الايمانية عن الدعوة الجديدة، والداعي الجديد، ويبشرون بالقيم الجديدة.. كحسان بن ثابت الانصاري، وكعب بن زهير بن بي‌سلمى، وجعدة بن الطبيب، والحصين بن الحمام (سيد بني مرة الذبيانيين) والنمر بن تولب، وأبي ذؤيب الهذلي. ومن رثاء هذا الاخير لابنائه الخمسة الذين ماتوا في وباء:

واذا المنية انشبت أظفارها
ألفيت كلّ تميمة لا تنفع
والنفس راغبة اذا رغّبتها
واذا ترد الى قليل تقنع

ومعن بن أوس المزني يدخل في شعره الحكمي ما توحي به الآيات القرآنية من برٍ بالاقرباء، وصلة بالرحم، والحلم، والتعفف. كقوله:

وذي رحم قلمتُ أظفارَ ضغنهِ

بحلمي عنه، وهو ليس له حلم

وعمرو بن احمر الباهلي، يلوذ بربه مستغفرا منيبا، حين يدهمه المرض، فيقول:

اليك إله الحق ارفع رغبتي

عياذا، وخوفا ان تطيل ضمانيا

فان كان برءا فاجعل البرء نعمة

وان كان قبضاً فاقض ما انت قاضيا

اما كعب بن زهير فقد اوفى على الغاية في تصوير الجو الاسلامي الذي اشاعه النبي، وخاصة حين أطلق في مدحه لاميته الشهيرة «بانت سعاد» بعد ان قبل النبي منه اسلامه، وخلع عليه بردته.. وقد دعيت عصماء هذه بالبردة.

ثم راح كعب يمسح شركه الماضي بزيت النبوة، وهدي القرآن، فاذا به، سيرة وشعرا، اقرب ما يكون الى زهاد المسلمين الذين تكاثروا، ايام النبي، وبعيد وفاته، الى أن رقت حاشية الاسلام بعد ان تحول المسلمون تدريجياً، نحو الدنيا وما فيها من حكم

وسلطان وطغيان، ولذائذ ومتع وشهوات، فتراجع الزهد وكادت تطوى تلك الصفحة المشرقة من حياة الزاهدين المسلمين الأوائل الذين جمعوا الدين والدنيا في إهاب واحد.

ردة فعل:

وقد حدث ما كان متوقعا من ردة فعل نفسية، ففي العصر الاموي، رغم انتشار المجون، والغناء، وظهور الغزل الاباحي، وانتشار الفسق والزندقة، خاصة في الحواضر كالمدينة ومكة والطائف، وما قرب منها كوادي العقيق، ظهرت، مقابل ذلك، موجة مضادة مثلتها فئة كبيرة لها وزنها وتأثيرها، هي فئة الزهاد والمصلحين الداعين الى الدين، والعودة الى الينابيع الاولى، من قرآن وسيرة ونهج قويم، فحاربوا الفسوق والمروق والزندقة. وكان على رأس هؤلاء الحسن البصري، الفقيه الاكبر، الذي كان مدرسة بحد ذاته، تدعو المسلمين الى أصول دينهم وصلاح دنياهم، بالبر والتقوى، والعمل الصالح، فكان لهذه المدرسة الاثر البالغ في تقويم الاعوجاج، وسد الشرخ الكبير الذي اصاب المسلمين من جراء تفشي

الزندقة، وانحراف الجيل عن الجادة، لكثرة ما أصاب من حرية ورخاء، واستمتاع بنعم الفتوح، واستغلال لانفتاح السياسة الاموية على اجيال المعارضة لصرفهم عن الثورات والثارات.

فجاء الحسن البصري، بسيرته وتعاليمه، يضرب المثل الصالح للزهد المتعفف او التعفف الزاهد، داعيا الى تقوى الله ومرضاته، وان ما عنده خير وابقى، ومن عظاته: « يا ابن آدم بِعْ دنياك بآخرتك، تربحهما جميعا، ولا تبعْ آخرتك بدنياك، فتخسرهما جميعا. . . يا ابن آدم، اذا رأيت الناس في الخير، فنافسهم فيه، واذا رأيتهم في الشر، فلا تغبطهم به، الثواء، ها هنا، قليل، والبقاء هناك، طويل، فالوحاء الوحاء، والنجاءالنجاء. . . » او قوله: « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم، ويؤثرون بالفضل. الا ان هذا الموت، قد أضر الدنيا ففضحها، فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا، فإياكم وهذه السبل المتفرقة. التي جماعها الضلالة، وميعادها النار، والذي نفس الحسن بيده، ما اصبح في هذه القرية مؤمن إلاّ وقد أصبح مهموماً حزينا، وليس

لمؤمن راحة دون لقاء الله» [١].

وكان الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز احد كبار المتأثرين بنزعة الزهد الاسلامي لشدة اقتدائه بسيرة الحسن البصري وتعاليمه ومواعظه.

وخلاصة القول في حقيقة الزهد الاسلامي انه كان زهدا ايجابيا صريح المصادر، ومصادره، كما يراها نيكلسون، ويراها الكثيرون: القرآن، وسيرة النبي والخلفاء الراشدون، وكبار الصحابة، فلم يداخل هذا الزهد اي مؤثر خارجي، بالرغم من وجود هذا المؤثر على تخوم الدولة الاسلامية الناشئة.

ومن الشعراء الزاهدين زهدا اسلاميا صريحا وايجابيا: ذو الرمة وصاف الطبيعة المشهور، والنابغة الشيباني، وابو الاسود الدؤلي، والامام الشافعي، سيرة وشعرا.

ومن شعره الزهدي الابتهالي:

---

(١) البيان والتبيين ٨ /١٥٧و ٣/ ١٣٢ وما بعدها.

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي
جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي، كان عفوك أعظما
فلولاك لم يغدر بأبليس عابد
فكيف، وقد أغوى صفيك آدما

لكن هذا الزهد الاسلامي، لم يبق على صفائه، فقد خولط، عند بعض شعراء العصر الاموي، بشيء من مانوية، او بوذية، نتيجة اتساع الفتوح التي جاءت بالموالي من فارس والهند والصين، والروم. وهؤلاء كان منهم الزنديق، والمانوي، والزردشتي، والبوذي. فكان لا بد ان يتأثر بعض شعراء الزهد بمفهوم هؤلاء للكون والطبيعة والله، والخير والشر، والمعاد، كعبد الله بن عبد الاعلى الذي قال عنه صاحب الامالي« انه كان سيء العقيدة» وفي شعره يقف طويلا عند فكرة الفناء كقوله:

يا ويح هذي الارض ما تصنع
أكلَّ حي فوقها تصرع

تـزرعـهـم، حـتى اذا مـا أتـوا
عـادت لهـم تحـصـد مـا تـزرع

كما شاعت عند بعضهم فكرة« التـوكـل» التي فهموها اتكالية، ونبذاً للعمل: أي ان الله يرزق العباد دون جهاد او سعي. وعلى هذا فسروا الآية «وما من دابة إلا على الله رزقها» تفسيرا خاطئا، ولم يربطوها بآيات أخرى كثيرة تحض على العمل والسعي والجهاد في سبيل العيش الكريم.

كما تناسوا سيرة النبي نفسه واقواله في الحث على العمل الشريف مهما كان ضئيلا. كقوله: «لئن يأخذ احدكم أحبله، ثم يغدو الى الجبل، فيأتي بحزمة على ظهره، فيبيعها، فيأكل، ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس، اعطوه او منعوه».

تدخل النبي لدى غلاة الزاهدين:

وحين طغت موجة الزهد الاسلامي الاول، وتعاظمت عند كبار الصحابة، وكادت تميل بهم عن الزهد المقبول، الى نوع من التصوف المرفوض.. تدخّل النبي ليخفف من غلواء بعضهم

كعبدالله بن عمر الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل، ويختم القرآن كله في ليلة[1]. وينصحه النبي بالتخفيف، فيقول: « يا رسول الله، اني آخذ قوة.. » فيقول له الرسول: « ان لجسدك عليك حقاً».. وعثمان بن مظعون يؤثر التعبد الطويل «على مشغلة البيت والزوج» فيردعه ناصحا.

ويتعذر على النبي ان يتعرف على «كهمس الهلالي» حين رجع اليه، لما أصابه من نحول ووهن في جسمه، وسأله عن سبب ذلك. فقال: « اني والله ما أفطرت بعدك نهارا، ولا نمت ليلاً» فقال النبي: مَن أمرَكَ ان تعذب نفسك (ثلاث مرات)..

حتى ان نفراً من مثل هؤلاء، كان يَفِر من زحمة الحياة والأحياء، ويلوذ بنفسه ودينه الى الخلوات، كعروة بن الزبير التابعي. وصلة بن أشيم، يخرج الى المقبرة، ويتعبد فيها حتى يموت.. غير ان نفراً آخر من الصحابيين والتابعين كان، الى شدة زهده ولبسه الصوف، وكثرة تعبده، لا يدع الدنيا وشأنها، والناس

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٩ وما بعدها

وما هم عليه من بـلاء وشقاء وظلم، بمعنى انـه كان لا يسكت عن ظلم ولايقـر بـاستبداد . فـلا يتحـــرج من نصح الخلفاء والولاة، واحياناً تهديـدهم وتحذيـرهم من مغبـة ظلمهم، واغتصابهم لحقـوق النـاس. لاسيـما في عهد عثمان الذي يحدثنا المسعودي،وابن خلدون، انـه كان من أسوأ العهود. فقد استشـرى الفساد، وسـادت الـطبقية، وعـظم ثـراء الانسبـاء، والـولاة، والقـواد، وكـان طبيعيا ان تنشـأ، مقابـل هذه الـطبقـة المستغلة، طبقة أخرى هي عامة الناس، تعاني من الفقر والشقاء مـا تعـاني، وان يـطلع من بينها شعـراء زاهـدون، مـوغلون في زهـدهم، حيـال مـا يـرون من فسـاد، واستئثـار وطغيـان. لكنهم، كـأنـوا عـلى تـزهـدهم، لاينصـرفـون عن الـدنيـا وعن النـاس نهائيـا بـل ينبـرون الى الـطغـاة، مهـما عـلا شـأنهم، ينصحـونهم ويحـذرونهم من مغبة طغيـانهم. وكانـوا بذلـك يعبرون عن الضمـير الديني والاجتمـاعي للأمـة، أمثال أبي ذر الغفـاري، وعامـر بن قيـس ، وهذا ضـرار بن ضمرة الكنـاني لا يجد بـأساً من وصف الامـام عـلي في مجلس معـاوية فيقـول: « كـان، والله، بعيـد المـدى، شـديـد القـوى، يستـوحش من الدنيا وزهـرتهـا، ويستـأنس

بـالليل وظلمتـه، وكان، والله، غـزير العبـرة، طويـل الفكـرة، يقلب كفـه، ويخـاطب نفسـه، يعجبـه من اللباس ما قصر[1] ومن الطعام ما خشن . . » ويمثل هذه الروح والثقة يدخل ابو حازم الاعرج على بعض خلفاء بني مروان ناصحا ومحذرا، وابن شبرمة لا تعجبه هذه الهالة من العظمة الزائفة يحيط بها خالد بن عبد الله القسري نفسه، فينشد في حضرته قول الشاعر ابن حطان:

فـان كـانـت الـدنيـا تحب فـانها
سحـابـة صيف عن قليـل تقَشَّـعُ

اما المتعظون بالزهـاد، فقد كـانوا كثـرا، حتى من الخلفـاء. فهـذا عبـد الملك بن مـروان يبكي حتى بَـلَّ طرفَ ثوبه، حين قـرأ كتاب ذر بن حبيش، الـذي جاء في آخـره: ولا يـطمعـك، يـا أمـير المؤمنـين، في طـول الحيـاة، ما يـظهر من صحتـك، فانت اعلم بنفسـك، واذكر ما تكلم به الاولون:

(١) نشأة التصوف الاسلامي ص ٩٨ وما بعدها د. ابراهيم بسيوني- دار المعارف بمصر ١٩٦٩

اذا الـرجـال ولـدتْ اولادهـا
وبـليـت مـن كِـبَـر اجـسـادهـا
وجعلت اسقـامهـا تـعـتـادهـا
تـلك زروع قـدنـا حـصـادهـا

لقد ايقظ هؤلاء الحكماء الزهاد ضمير الحاكم، الى حد بعيد، واعطوا من تزهدهم، وترفعهم، عن الدنس والدنايا، وبهارج الحياة، المثل والقدوة، فكانوا مصلحين ثوريين، في نظرنا، وان على تقطع انفاس... واذا كانوا قد لبسوا الصوف، ولزموا المساجد، وأكثروا من ذكر الموت، ورهبة الحساب، فلأجل هذه الغاية، دون سواها: غاية الاصلاح ومحاربة الفساد..

انه الفعل وردة الفعل فيّ كل زمان ومكان، وبأساليب كل زمان ومكان..

حتى اذا استفحل الشر، وسادت الفتن والحروب، واشتجر الخلاف بين سفيانيين ومروانيين وعلويين..ثم، بعد الثورة العباسية، بين عباسيين وفرس وعلويين، وفرق من كل مذهب ودين..رأينا الزهد ينقلب تصوفا، اصلاحيا اول الأمر، ثم هروبيا

وحلوليـا، آخـر الأمـر ويصبـح الـوعظ بـالسيف لا بـالحوار، والاقنـاع بـالقتـل، لا بـالحجـة ،. ويصبـح التصوف حيلة المفلسين. .

وكالمنارة ترسل أشعتها عبر المحيط
كان ابو العتاهية، قبل المعري، يرسل
اشعة فكره، ووجدانه، باتجاه محيط المحيط: الله . .
لاكفيلسوف، شيمة ابي العلاء، بل كمتأمل .
أغنته التجاريب عبر رحلة الشباب والعذاب. .
كـما أغنـاه فكـره عـبر السفـر، والمشـايـخ، والقراطيس. .

فتـزهـد، عـلى طـريقتـه، كـما قـال الشعـر عـلى طريقته. .

ارضى الديانين، في توبته، أم لم. .
المهم انـه «شعَرَ» في أعمـاقه، بـأنه قـد أرضى رَبَّـه ونفسه. .

عود على بدء

دوافع زهد الشاعر:

هناك، إذن، أسباب كثيرة دفعته الى الزهد، منها

المباشر، وغير المباشر، وقد ذكرنا بعضها في مطلع هذه الدراسة نتيجة استطراد اضطراري. وها نحن نذكر الباقي:

فشله في حب عتبة التي أخلص لها الحب، لكنها لم تكن على مستوى هذا الحب، كما يخيل الي. فهي جارية من جواري المهدي، تعيش في بلاط ينظر الى الناس من علٍ، حتى جواريه.. وكانت حجتها، في رفضه، امام سيدها المهدي: انه بائع جرار، قبيح المنظر(؟) يتكسب بالغزل! ويقضي الشاعر المتيم سنوات من عمره يتغزل بها، ويتدله في حبها، حتى ضاقت به الدنيا، فقرر ان.. يتزهد.. هكذا يرى المسعودي.. لكنه، في نظرنا، سبب من جملة أسباب، ولعله أقواها لا اوحدها..

ومنهم من قال كالبستاني: ان الباعث على تزهده، حبُّه هذا النوع من حياة التأمل والعزوف عن حياة كبار الناس، في عزلة «متكابرة أنوف» [1]: وميله،

(١) على حد تعبير مجدد دائرة المعارف الاستاذ فؤاد افرام البستاني. انظر دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٤٢.

أصلا، الى حياة الـزهاد، والنسـاك، وتوقـه الشديـد الى التعبـير عنها في شعـر اعتبـاري، ربمـا اراد السبق فيـه، والتفـرد بـه، ليـذكـربـه، من بعـده [1] وقـد اعتمـد البستـاني، في ذلـك، عـلى روايـة ابن منـظور عن أبي مخـلد الطائي قال: جاءني ابو العتـاهية. فقـال لـي: «إن ابـا نؤاس لا يخـالفـك، وقـد أحببت ان تسـألـه ألا يقـول في الـزهـد شيئـا، فإني قـد تـركت لـه المديـح، والهجاء. والخمر، والرقيق، وما فيـه الشعراء، وللزهـد شوقي». فبعثت الى ابي نؤاس، فجاء الي، واخذنا في شأننا، فقلـت له،: ان ابا إسحـاق (أي ابا العتـاهية) من قـد عرفت جـلالته، وتقـدمه، وقـد أحب انـك لا تقـول في الزهـد شيئا. فـوجم ابو نؤاس، عنـد ذلك، وقال: يا ابـا مخلد، قد قـطعت علي مـا كنت احب ان ابلغـه من هذا، ولا اخـالف ابا اسحـاق في مـا رغب اليه!.

ما هذا؟! كأن الشعر سلعـة! فهذه للنسـاء، وهذه للرجـال، او رزق حـرام يتقـاسمـه اللصـوص. . او

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٤٣

هواية من الهوايات، يوزعها، الهواة الفارغون، على بعضهم، كل لما قدر له، او هوعقد مشبوه بين تاجر ومستهلك!! حقا. ان هذا ما اساء الى قيمة الشعر العربي القديم، حين اعتبره أهله سلعة، او هواية، لا أكثر.. وإلا فما معنى هذه المقايضة يا ابا العتاهية؟

وهناك دافع آخر نراه وجيهاً، في تبرير زهد ابي العتاهية، وهو دافع نفسي فقدأراد هذا الفتى المتهتك ان يكفر، بالزهد، عن اوزار نفسه، وبالشعر الزهدي ينفس فيه عن كآبة دفينة فيه، وضيق بكل اوضاع مجتمعه. فقد نشأ فقيرا معدما، او شبه معدم، متهما بنسبه، ودينه، وعقيدته، وسلوكه، واستطاع، بطموحه وتحديه، ان يصل الى بلاطات الخلفاءويحيا حياة القصور، ويستقطب من حوله، كبار الاصدقاء، والمعجبين، من أمراء، وقواد، ومغنين، وملحنين، ويمحو بهذا، ذلك العار الذيألصق به زورا وبهتانا.. كما استطاع ان يكنز المال، ويقتني البيوت، والخدم والجواري. ويلد البنين والبنات...

لكن هاجسه كان أقوى من وضعه القديم

والجـديد، وعقله الـرازح تحت وطأة مـزاج سـوداوي. انتهيابه الى رفض كـل ذلـك، حـين رأى فيـه سـرابـا خـادعـا، واحس، رغم النعيم الـذي وصـل اليـه، بـالغبن الاجتماعي الفـادح، وبجور الحكـام وتقلبهم، وفتكهم بـأقرب النـاس اليهم، وأخلصهم، وقـد عـانى هـو من هذا الجـور والتقلب الشيء الكثير. . فتكشفت له الدنيا عن عبث مطلق، وتفـاهـة لا حد لهـا. وان لا عيش فيهـا للكـريم الشـريف، او العـامـل الحـر. . ولعله، لهـذا، فكـر في تلك العـزلـة المنشـودة، او المحـدودة على الاصـح يُغني فيها أحـلى ما تـاق اليه من معـاني الزهـد والاعتبار. فتهـدأ تلك النفس اللهيفـة، وتُهدهد هاتيك الاعصاب الرهيفة.

امـا ان زهده كـان سلبيا، بمعنى الهـروب التام من الحيـاة والأحياء، فـلا. اذ بـالـرغم من انـه ودع حيـاة اللهـو والمجون والغـزل، الى حيث لا رجعـة، وحـطم كؤوسـه، وهجر مـلاعب لهـوه وعبثـه، فقـد كـان يحن اليهـا، بين الفتـرة والفتـرة، لكن، سـرعـان مـا يـردع نفسه، ويعودالى الزهد. ويجمـع الرواة عـلى انه لم يقـل شيئـا في الغزل بعـد تنسكه. كـما يجب ان نـلاحظ انـه

يفرق بين الحياة والأحياء. فهو يرى الحياة الدنيا شرا كلها. وهذا من تأثير المانوية، التي ترى ان الظلمة او الشر عنصر غالب في هذه الحياة. والنور او الخير عنصر مغلوب. وما الانسان سوى الضحية او الفريسة لذلك الشر الغلاب والإلّهِ القادر. فنرى الشاعر يقف أكثر شعره الزهدي على نصح «الفريسة» بألا تغتر بجاه او مال او شباب. ما دام الموت بالمرصاد. كما تظهر«جبريته» في قوله بأن الانسان مجبر على فعل الشر والخير، ولا خيار له فيهما.

خليلي مالي لا تزال مضرتي
تكون مع الاقدار حتماً من الحتم

وكلتا الجبرية وغلبة الشر، من تعاليم المانوية، كما رأينا، في حين ان الاسلام الصحيح، لا جبرية فيه، ولا شر سائد او غالب، لا سيما لدى مفكري الاسلام الاحرار: المعتزلة. الذين قالوا بالاختيار، وكانوا على خلاف مع ابي العتاهية، ربما لهذا السبب نفسه، على انه من المغالاة القول بأن هذه النظرة عند شاعرنا كانت تحدد موقفا نهائيا له فهو شاعر وليس فيلسوفا. .

اذن، هو مع الأحياء، في زهده، لا مع الحياة، مع المظلوم، لا الظالم. القتيل لا القاتل..، يذم هذه، وينصح ذاك.. ولكن متى؟ أحين عب من رحيقها شابا، وخاض في عبابها فاتكا؟أم حين داهمه الهرم، والوهن والخذلان، فلم يستطع؟!

كثرة شعره في الزهد:

اذا قسنا عدد قصائده،واراجيزه الزهدية، بعدد قصائده في غير الزهد، لفاقت نسبته ثلاثة ارباع ديوانه. فما السبب يا ترى؟ هل اصبح هذا الزاهد ولا عمل له سوى النظم في الزهد؟ تراه انقطع للزهد، فلا يجد امامه سوى آيات الاعتبار، ينظمها شعرا حكميا زاهداً؟ وهل كل هذا نابع من اعماق تجربته القاسية مع الحياة والوجود، وذوبان روحه في استشراف سبل الخلاص؟ ام ماذا؟الواقع ان تجربة الزهد، ومعاناة حياة الزاهدين، لم تكن حارة، ولا عميقة في كيان الشاعر، بقدر ما كان توقه الى تصوير تلك الحياة، بكل معانيها، ومعطياتها، واجوائها، والرغبة في التخصص، دون سواه، بهذا اللون من

الشعر الذي قل الناظمـون فيه، في عصـره، رغم كثرة الزهاد يـومذاك، هـو الدافـع الخارجي الحقيقي الـذي دفـع بأبي العتـاهيـة الى الاكثـار من مثـالث زهـديـاتـه ومثـانيها، تـارة، وقصائـدها الـطوال تـارة أخـرى. ولم يخف هـو هذا الـدافـع، حـين طلب من أبي نؤاس ان يتـرك له الـنظم في الزهـد، كما أسلفنـا، فـوافقـه عـلى ذلك.

وانصافا للواقع، علينا ألا ننكر زهده، او انه لم يعيش حياة التزهد والتقشف، كما انكـر عليه ذلـك، بعض معـاصـريـه، من خصـوم وحـاسـدين، ورجـال دين.. حتى ابـو العلاء المعـروف بذلـك الزهـد الملتزم في عزلته الطوعية، وبدقة نقده، ورقة حسـه، وشفافيـة حـدسـه، قـد شـك في صـدق زهـد ابي العتـاهيـة، وتنسكـه، حـين قـال في شيء من السخرية:

الله يـنـقـل من شـاء رتـبـة بـعـد رتـبـة
ابـدى الـعـتـاهـي نـسـكـا وتـاب عـن حـب عـتـبـة..

مشيرا الى انه لم يبدِ نسكا، الا بعد فشله في الحب. . . وهذا ليس انكاراً، على كل حال. والاصفهاني، في حديث رفعه الى مخارق المغني، يربط بين هذا التنسك، وبين ذلك الفشل في حب عتبة.

قال مخارق : «جاءني ابو العتاهية يوما فقال لي: قد عزمت ان اتزود منك يوماً تهبه لي. فمتى تنشط لذلك؟ فقلت: متى شئت، قال: اني أخاف ان تقطع بي. قلت: لا، ولو طلبني الخليفة. فقال: يكون ذلك في غد؟ فقلت أفعل. فلما كان الغد، باكرني رسوله، فجئته، فادخلني بيتاً نظيفاً، فيه فرش نظيف. ثم دعا بمائدة وعليها خبز سميد، وخل، وبقل، وملح، وجدي مشوي، فأكلنامنهاحتى اكتفينا: ثم دعا بسمك مشوي. فأكلنا منه شيئا، أيضاً، ثم دعا بفراخ ودجاج وفراريج مشوية، فأكلنا منها حتى اكتفبنا. ثم أتونا بحلواء، فأكلنا، وغسلنا ايدينا. ثم جاؤونا بفاكهة وريحان، وألوان من الانبذة. فقال لي: اختر ما يصلح لك. فاخترت وشربت. وصب قدحا ثم قال: غن لي قولي:

أحمد قال لي، ولم يدر ما بي
أتحب الفتاة عتبة حقاً؟
فتنفست، ثم قلت نعم حـ
ـباً جرى في العروق عرقاً فعرقا

فغنيته، فشرب اقداحا، وهو يبكي أحر بكاء، ثم قال لي: غن لي قولي:

ليس، لمن ليست له حيلة
موجودة، خير من الصبر

فغنيته وهو ينتحب ويبكي. ثم قال: غن ايضا قولي:

خليلي، مالي لا تزال مضرتي
تكون مع الاقدار حتما من الحتم!

فغنيته اياه. وما زال يقترح علي كل صوت غني به في شعره، وانا اغنيه، ويشرب ويبكي، حتى صارت العتمة، فقال لي: أحب ان تصبر حتى ترى ما أصنع. فجلست، فأمر ابنه وغلامه، فكسرا كل ما كان بين أيدينا من النبيذ، وهو يبكي، حتى لم يبق من ذلك شيء. ثم نزع ثيابه واغتسل، ولبس ثياب

بيــاض من الصـوف، ثم عــانقني ويكى. و قــال: عليـك السلام يـا حبيبي، وفـرحي من النـاس كلهم، سـلام الفـراق الـذي لا لقـاء بعــده. وجعـل يبكي، ويقـول: هذا آخـر عهدي بـك في حـال تعـاشـر اهـل الـدنيا. فـظننت انها بعض حماقـاتـه. وانصـرفت. فـلما لقيتـه زمانـا. ثم تشوقتـه، فاتيتـه، فاستـأذنت عليـه. فاذن لي فدخلت، فاذا هو قد أخذ قـوصرتـين(١)وثقب احـداهما، وادخـل رأسه ويـديه فيهـا، واقـامهـا مقـام القميص، وثقب الاخرى،واخـرج رجليه منها، واقامهـا مقـام السراويـل. فلما رأيته نسيت مـا كـان عنـدي من الغم عليه، والوحشـة لعشرتـه، وضحكت ضحكا مـا ضحكت مثله قط. فقـال لي: من اي شيء تضحك، لا ضحكت! فقلت اسخن الله عينـك! هـذا اي شيء هـو؟ من بلغـك انـه فعـل مثــل هـذا من الانبيــاء او الزهاد ، أو الصحابة، أو التابعين، أو المجانين؟ أنزع عنـك هذا يـا سخين العـين. فكأنـه استحى مني. . . ثم بلغني عنـه انـه جلس حجـامـا، فجهــدت ان اراه

---

(١) القوصرة: وعاء يرفع فيه التمر من البواري. وتلفظ: قَوْصَرَّة، وَقَوْصَرَة. انظر: لسان العرب مادة قَصَرَ.

بتلك الحالة. فلم أره. ثم مرض. فبلغني انه اشتهى ان أغنيه، فاتيته عائدا، فخرج الي رسوله يقول: ان دخلت، جددت لي حزنا، وتاقت نفسي الى سماعك، والى ما قد غلبتها عليه، وانا استودعك الله، واعتذر اليك من ترك الالتقاء.. ثم كان آخر عهدي به...»[1].

وروايـة مخارق هذا، على ما فيها من اسلوب الاختلاق، والصنعة الروائية الواضحة، ان صحت، فانما تدل على ان الرجل دخل في الزهد، وحياة التنسك، من بابها العريض، رغم ما في حركات هذا الدخول من غرابة وهجنة.

وهناك روايات كثيرة عن طريقة زهده، وكلها تجمع على انه تزهد فعلاً.. لكن على طريقته الخاصة.. بمعنى انه انقطع عن حياة اللهو، لا عن الحياة كلها، شيمة البوذيين المانويين، فقد ظل ملتصقا بالناس واعظاً، ورادعا، ومذكراً، حتى انه عاد بعد الرشيد (وفي أيامه تزهد الشاعر)، الى معاشرة ولديه

(١) انظر: دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٤٢ بيروت

الأمين، ثم المأمون، مادحا وواعظا. . فكيف ينعتون زهده بانه زهد بوذي بعيد عن روح الاسلام؟ وقد علمنا ان بوذا تنسك وهجر الملك والسلطان، وانقطع عن الحياة نهائيا. . وترهب. . مطبقا على نفسه تعاليمه التي تقول بالتصوف والانقطاع؟! واذاكان ابو العتاهية قد اعجب بصورة بوذا ـ الملك ـ الزاهد. وكررها في شعره. كما في قوله:

يا من تشرف بالدنيا وطينتها
ليس التشرف رفع الطين بالطين
اذا أردت شريف الناس كلهم
فانظر الى ملك في زي مسكين

وكررها في قوله:

لله أهل قبور كنت اعهدهم
اهل القباب الرخاميات، والغرف
يا من تشرف بالدنيا وزينتها
حسبُ الفتى بتقى الرحمان، من شرف

أو قوله:

من قر عينا بغنى بلغة
يوما بيوم، عاش عيشة الملك

او قوله:

لما حصلت على القناعة لم ازل
ملكا، يرى الاكثار كالإقلال

اذا كان قد اعجب بهذا المثال الرائع للملك الزاهد حين يدفع به ايمانه الى قتل النفس وشهوتها الى القوة والسلطان ورآه متجسدا في بوذا، فقد رآه متجسدا كذلك في المسيح ـ الملك الذي دعا الى القناعة والعيش عيشة الكفاف: «اعطنا خبزنا كفات يومنا» والى الترفع والترهب.. حتى الاستشهاد.. فصوره وراح يتغنى به.. فليس معنى هذا ان ابا العتاهية كان بوذي المنهج والطريقة والروح في زهده، او نصرانيا في تنسكه..

كل ما هنالك انه، كشاعر، متزهد، تعجبه صورة ملك او أمير، من ابناء الملوك كبوذا هجر الملك والسلطان طائعاً مختارا، وعاف، كل ما اتيح له من لذائذ الحياة، وتنسك.. او كالمسيح يسوح في فلسطين حافيا متنسكا مبشرا ونذيراً... فيعكس كل هذه الامثلة الرائعة في شعره كنماذج خالدة، والواعظ الزاهد بحاجة الى الأمثال والأمثلة كلما أراد ان يدعم موعظته بالحجة الدامغة، والمثل الحي..

كـان عليـه، في نـظر بعض البـاحثـين، ان يتخـذ مثـاله من سيـرة السلف الصـالـح وحـده، حتى يصـح اسـلامه، ويصـدق زهده، وإلا فهـو زنديق او بـوذي! منـطق تعصبي ضيق، لا يثبت على محـك النقـد الادبي الصحيح، في اي حال.

ومهـما يكن فليس ابـو العتـاهيـة، الشـاعـر، اول ضحيـة، ولا آخر ضحيـة من ضحـايـا بعض بـاحثينـا الـذين ينظرون الى من يـدرسون من الادبـاء والشعـراء والفنـانين، نـظرة سلفية محـدودة، واحيانـا مشبـوهـة. . وخـطأهم انهم يؤرخـون، ولا يحللون، ويعتمــدون في تأريخهم، على أقوال شائعة يعتبرونها مسلّمات. .

امـا نحن، فنميـل، بعــد التحليـل، الى اعتبــار زهـده حقيقـة من حقـائق تـطور الشـاعـر، ورشحـا مـن رشـوح ثقافته، وطبيعـة مـن طبائعـه التي غطـى عليها الشباب يوماً. فقـد كان. كـما علمنا، بعيـدا عن الناس لصيقــا بهم في آن. بعيـدا بعدا نفسيـا وعقليا، لا بعدا جغرافيا او ماديا، بمعنى انه كـان رافضا للكثـير من عـاداتهم، ومفاهيمهم، ومعتقـداتهم. ومن كان هـذا شأنـه، منذ البـداية، لا بـد ان يدفـع بـه اليـأس اخيـرا، وبعد تجـارب قـاسيـة، في الحب وغـير الحب،

معهم الى العودة الى تلك الطبيعة النافرة المستنفرة الساخرة.. الى ذلك المزاج السوداوي الذي فطر عليه.. ولم يكن الفشل في الحب الا تلك الشرارة الاولى التي أشعلت حطب شبابه اليابس، والهبت وجدانه البائس..

والمؤسف ان القدامى وبعض المعاصرين، لم يربطوا، كما يجب، النتائج بأسبابها الحقيقية في قضية زهد أبي العتاهية، جماع ما قالوه: لقد فشل في حب عتبة، فتنسك. وكان نسكه مزورا.. لأنه قسري، لا طوعي.. كما لم ينطلق من منطلق اسلامي ايماني صريح. فهو اذن زهد ملغوز.. مانوي.. بوذي! وكفى الله المؤمنين شر النقد والتحليل، والانصاف..

في هذا الجو النفسي الذي بدأ يعيشه الشاعر، ومع كل ذلك الاستعداد الفطري، وكل تلك الرغبة في الزهد، والتطوع لتصوير حياة الزاهدين ومواعظهم شعرا، كان لا بد لأبي العتاهيةالا يقول الشعر الا في الزهد والتنسك والاعتبار، حتى اصبح الزهد هو الموضوع الوحيد الأثير لديه حين يتكلم، وحين ينظم، وحين يعظ.. ترفده في كل ذلك

شاعرية فياضة وقدرة قادرة على صياغة الكلام العادي شعرا.. وحرية في التصرف بالقوالب والبحور والقوافي ميزت سائر قصائده واراجيزه، بالسهولة المطلقة، والعفوية التامة.. حتى بدا وكأنه يتنفس الشعر تنفسا.. فأي معنى شائع من معاني الحكماء والبلغاء والفلاسفة، وحتى العاديين، سرعان ما يتناوله الشاعر فيصبه في قالب نظمي سهل سريع، واذا به يتجسد حكمة شائعة، وقولا مأثوراً.

ولم يكن من الضروري،، ان يمرر كل هذه المعاني على محك وجدانه، او ان ينبثق من كيانه، وتجربته الخاصة.. كما سيفعل المتنبي، مثلا، حين كان ينفعل بمعانيه المقتبسة، انفعالا شديدا، ثم يقذفها، عبر تجربته العقلية والوجدانية، فاذا بها حارة عميقة، حرارة وعمق وجدانه وعقله.

كان المتنبي، في هذا المجال، كالمولد الكهربائي Générateur. كما سميناه[1] وكان ابو العتاهية كالآلة الحاسبة، او العقل الالكتروني (كمبيوتر) يفرز، في

(١) انظر كتابنا: المتنبي: أمة في رجل الصادر عن دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٠

دقة متناهية، كل ماتدخله في جهازه من معلومات، وكل ما تطلبه كنتائج ومحصلات.. وكما يتميز المولِّد بالحرارة؛ واتصال الاشعاع، يتميز الكمبيوتر بالبرودة والانقطاع.. والقذف بالمعلومات تباعا، وبالنتائج، في تراكمية كثيفة، طوال فترة الطلب والعرض!

من هنا كان لا بد لشاعر، هذا شأنه، بل لناظم هذه آلته، أن يكثر ويكثر من النظم عند كل طلب، وبعد كل مناسبة وما كان أكثر الطلب، في زمانه، وأكثر المناسبات! كان الناس والمريدون، أمامه، كأنهم أمام ماكينة تعمل آليا، وبمجرد «كبسة زر» تنطلق في الفرز والافراز، بلا هوادة، وينطلق المريدون بالالتقاط والحفظ والتدوين.. كميات هائلة، اذن، من الشعر الزهدي، وغير الزهدي، افرزته تلك الآلة العجيبة.

ولا بد انها جمعت في ديوان.. ولكن اين هو هذا الديوان؟[1] وهل منه نهتدي الى تلك الكثرة الكاثرة لقصائد الشاعر واراجيزه؟

---

(١) لقد جاء ديوان ابي العتاهية الذي بين ايدينا ناقصا ومبتورا. اولا: =

كـلا. فقد ضـاع أكثر قصـائـد ابي العتـاهيـة، في مهب رياح الفتن والحروب التي اصـابت الأمة العـربية عبـر تاريخها الطويـل، كـما ضـاع غيـرهـا من نفـائس التراث..

=لأنه جمع بعد وفاته. وثانيا: لأن جامعيه لم يوفقوا الى جمع كل ما قاله نظراً لتناقصه عبر الزمن، وجراء الفتن والحروب، وموت الرواة الاوائل، وثالثا: لأن ابا العتاهية نفسه قد ساعد على ذلك، لأنه، بعد ان تزهد، كان يغفل الكثير من قصائد اللهو والمجون والتهتك لئلا يؤخذبها.

ولم نعرف له ديوانا شبه متكامل الا على يد ابن عبد البر النمري. وهو لا يزال مخطوطا، محفوظا في دار الكتب المصرية رقم ٣٩٣ ـ ادب. وفي المكتبة الشرقية ببيروت. وما قبل هذا لم يكن هناك سوى كتب لم يؤلفها اصحابها لجمع قصائد ابي العتاهية وحدها: ككتاب الفهرست والاغاني واختيارات اشعار الشعراء لطيفور، ومروج الذهب وزهر الآداب. والاوراق الخ. وفي عصرنا هذا نجد ابرز ديوان او مؤلف هو: الانوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية ط. بيروت للأب لويس شيخو، الذي لم يكتف بمخطوطة دار الكتب المصرية، بل أضاف ما عثر عليه من اشعار زهدية اخرى لابي العتاهية مبثوثة في ثنايا كتب التارخ والأدب. المؤلف.

وسبب آخر ضيّع العديد من قصائد الشاعر، واراجيزه نراه في تعصب الرواة ضده.

فكلما شموا منها رائحة زندقة، او مانوية، او تهجماً على رجل دين او عقيدة، شطبوها من ذواكرهم، وكراريسهم.. اذ لا يعقل ان يكون ما ضمه الديوان، هو كل ما قاله ابو العتاهية، من قصائد، ومقطوعات، واراجيز، وهو من هو، إكثارا، ورغبة شديدة في صياغة كل معنى يخطر على باله شعرا، حتى كاد ينطق، حين ينطق، بالشعر.. ألم يقل يوما: ان الناس، وليس هو فقط، حين يتكلمون ينطقون بألشعر، ولا يدرون. وهويقصد، ان كلامهم هذا، في صوره، وتفاعليه المختلفة، يأتي موزونا، وايقاعيا، على نحوما، وهو بالتالي شعر، في نظره، او على الأصح: نظم، في نظرنا.. او قول موزون وموقع.. فكيف به وهو الشاعر الموهوب، والمتخصص، قبل الزهد وبعده، بكل فنون القول، وموضوعات الشعر، وان كان الغزل اقلها..

يقول ابو العتاهية(في رواية لابن عساكر) انه قال في الزهد عشرين ألف بيت، وبالطبع فقد اضاف

عليهـا، مئات ان لم نقـل آلافا، بـين قولـه ذاك، وبين موته، ويقول صاحب الاغاني[1] انـه قـال في ارجـوزة واحـدة. وهي المسمـاة بـذات الأمثـال، اربعـة آلاف بيت وهاهي بين ايـدينا لم يبق منهـا سوى خمسـين بيتا. او أكثر قليلا، كما يجمع المؤرخـون ورواة شعره، ان لـديهم ما قـاله قبـل الزهـد، ما يقـارب عـدد قصـائـد الزهد، ان لم يزد عليها. ومعنى هذا بالارقـام: ٢٠ ألف بيت في الزهد+ ٥٠٠ بيت اضافية على الأقل+ ٤٠٠٠ بيت قـوام الاجـوزة= ٢٤٥٠٠ + ١٧٥٠٠ بيت تقـريبـا في اغراض شتى قبل الزهد = ٤٢٠٠٠ بيت فيكون مجموع ما قاله على وجه التقريب اثنين واربعـين ألف بيت من.. الشعر. اما مـا وصل الينـا فلا يتجـاوز الخمسة آلاف بيت!! أي فـوق العشـر بـقليـل. ونـحن لم نـورد هـذه الاحصـائية، لابـداء أسفنـا علـى هكـذا شعـر، غـث، مكرور في أكثره، بـل لنسجل ظـاهرة خـطيرة، يؤسف لهـا حقـا، هي ان الكثـير من كتب التـراث، وآثـار الادباء والعلماء، والشعراء خاصـة، قد ذهب، لا

---

(١) الاغاني ٤/ ٧٨ و ٣٥

(٢) العمدة ١/ ٢٢١ و ٢٢٢

بفعل الفتن والحروب، والغزو الخارجي فحسب، بل على يد الرواة العرب والمسلمين انفسهم الذين مزقوا واحرقوا ما لا يعجبهم من آراء وعقائد بعض الشعراء والادباء والعلماء والفلاسفة التي ضمنوها اشعارهم وآثارهم.. تماما كما فعل ديوان التفتيش في اسبانيا.. فحرمونا من الزبدة، ربما، وابقوا على الزبد.. والمؤسف ايضا، ان ابا العتاهية نفسه، قد احرق، او مزق، كثيرا من قصائد المجون والغزل، حرصا على تخصصه في الزهد، ووقاره في حياته الجديدة بعد الخمسين. وليذهب النتاج الاعمق والاجمل: نتاج الشباب بكل زخم التجربة.. الى الجحيم!

مسكين ابو العتاهية، لم يكفه ان جنى عليه الجناة، بعد الممات، فطمسوا معظم آثاره، فجاء هو يمهد لهم الطريق، فيعفي على الاجمل منها، عنيت الاهم قيمة فنية، واعلق في النفوس، من المواعظ والنصائح المكرورة الباهتة، التي يمجها الناس من الزاهدين الحقيقيين، فكيف من زاهد كأبي العتاهية، لم يعشها ، كما يجب !..

كـما يـلاحظ ان الخمســة آلاف بيت التي وصلت الينا، وهي العشر، لم تخل من انتحال، ودس، لا سيما في الجانب الزهدي من الديوان، فهناك أبيات في العتاب، والزهد، قد خلت الديوان، وهي ليست للشاعر، بل هي تارة لأبي نواس، وتارة لابن دحمان، وسواهما. ذلك لأن الرواة، قدنسبوها اليه لانسجامها مع روحه في التنسك، وطريقته في الوعظ، ومن جهة ثانية، فقد انتزع من أبي العتاهية، ابيات في الزهد، والاعتبار، والحقت، خطأ، بغيره. .حتى ان بعضها قد نسب الى شعراء جاهليين كالحطيئة وزهير، كقول أبي العتاهية:

الحمد لله أني في جوار فتى
حامي الحقيقة، نفاعٍ وضرارِ
لا يرفع الطرف إلا عند مكرمة
من الحياء، ولا يغضي على عارِ

يقول ابن رشيق في عمدته: «ورواه بعضهم للحطيئة. وهذا شرف عظيم لأبي العتاهية ان كان الشعر له. ولا أشك فيه.» ومثل هذا الأمر نجده في ما يرويه الخطيب البغدادي: « واخبرنا عبدالله بن يحي

السكري. قال: نبأنا جعفر بن محمد بن احمد بن الحكم الواسطي قال: عن ابن عباس انه قال: وجدت جمجمة في الجاهلية مكتوبا عليها:

أذنُ حي تَسَمَّعي
اسمعي، ثم عي وعي
انا رهن بمصرعي
فاحذري مثل مصرعي

والخطيب نفسه يروي هذا الشعر، في قصة أخرى، فيقول: حدثني عبد العزيز بن علي الوراق قال: سمعت عبيد الله بن احمد بن علي المقري يقول: سمعت محمد بن مخلد العطار يقول: سمعت اسحاق بن ابراهيم البغوي يقول: قرأت على قبر أبي العتاهية:

اذن حي تَسَمَّعي
اسمعي ثم عي وعي
انا رهن بمضجعي
فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجة
ثم فارقت مجمعي

ليس زاد سوى التقى
فخذي منه، او دعي..

ويروي ابو الفرج هذه الأبيات الاربعة، مع اختلاف يسير في اللفظ، وان ابا العتاهية أمر ان تكتب على قبره، ورغم ان الذي نسب هذه الأبيات الى شاعر جاهلي هو ابن أبي العتاهية، فان الروايات المتواترة قد اكدت نسبتها الى ابي العتاهية دون سواه، والميزان الفني يرجح هذه النسبة، لكون الابيات تنسجم وروح ابي العتاهية في الوعظ والوقوف على القبور.. ولعل ابن الشاعر قد اراد نسبة هذا الشعر لغير ابيه، من شعراء الجاهلية، لينفي عنه عادة الكتابة على القبر، وهي عادة جاهلية. وفي هذا تشويه لسمعة الأب الذي عرف بالزهد والتنسك[1] اذ يكفيه ما شكك فيه...

ومهما يكن من امر ابي العتاهية، فقد كان غزير

(١) ابو العتاهية: حياته وشعره ص ١٨٧ د. محمد محمود الدش. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨

المادة، سيال الموهبة، طويل الباع، في نظم النثر، ونثر النظم... ولا تضيره إضافة ابيات الى ديوانه، او حذفها منه، ما دام كذلك الزراع الذي يذهب الى الحقل فاتحا جعبته المليئة بالبذار، ناثرا منها ذات اليمين وذات اليسار، قمحاً صليبا او زؤانا غريبا، غير آبه، وقع البذار في التربة الخصيب، ام على الصخر الجديب! المهم انه يبذر ويبذر، ولا يكف عن البذار!..

كثرة الحكمة في شعره:

لانستطيع القول ان الحكمة عند شاعر ما، هي دائما وليدة تقبل الشاعر للعقل، والانطلاق، نتيجة هذا التقبل، الى صياغة المعاني صياغة عقلانية مضغوطة، بحيث تتقولب هذه المعاني في قالب تقريري لتصبح وكأنها من النظريات الشوابت التي تعبر عن موقف الشاعر امام الحياة والاحياء، والقيم الاجتماعية السائدة..

بل قد تأتي الحكمة نتيجة ضعف التجربة الشعورية.. اذ سرعان ما ينقلب شاعر رومنسي كابن الرومي، الى حكيم.. خاصة في مطولاته، حين تبرد

العاطفة وتضعف التجربة، ويخف الانين والحنين والوجع، في هـذه الحالـة، تنعـدم «الحال» ليطل العقل بكـل منطقيتـه، وبـرودتـه، فيـأتي الشعـر غثـا بـاردا، تتخلله صفتـان هما من اهـم صفـات العقل وافـرازاته: الحكمة المقولبة، والنثرية الجـافة، حتى اذا خـلا، مثل هـذا الشعر من الحكمة،وقع الشـاعر اسـير التقـريـريـة وحـدها. . حيث يمـوت الشعـر. . وهـذا بـالضبط مـا ضبط فيه ابن الورمي، في قصائده الطوال، متلبسا. .

وحـين رفض ابو نـواس مثـلا، الـرؤيـا العقليـة، وغـاب، لنسيـانها، في نشـوة اللذة المـاديـة، لا سيـما في الخمرة حيث يسقط العقـل، وتستيقظ كل المدارك الشعورية. . حينذاك كان شاعرا حقـا، وحين صحـا، لم يكن. . إلا بمقدار. .

والمتنبي انسـان عـاقـل، او عقـلاني. . بمعنى انـه يدرك اكثر ممـا يتأثـر، وبتعبير اصـح: انه قـادر على ان يعقلن تأثره. فتـأتي رؤياه العقليـة، او تجربتـه العقلية، ذات خميرة شعورية لذات يحركها «الأنا» المشبـوب، فـاذا به يصـوغ كل هـذا حكمـة حـارة مثيـرة، وكـأنها بكل معانيهـا ررموزهـا من صنع هـذا الشاعـر العظيم

الذي استطاع ان يدرك العالم من خلال ذاته التـواقة، وان يدرك ذاته من خلال العالم، وبكلمة، : امكنه ان يجد الصلة التي يتجاوز بها ذاته الى «الآخر» او يتجاوز «الآخر» الى ذاته، في معادلة عقلية. شعورية، رجح فيها العقل فكانت«الحكمة» ولم تنعدم الذاتية، فكانت الاثارة وتحتم بيننا وبينه، الاتصال.

فالحكمة، على هذا الاساس ليست فلسفة، لأن الفلسفة تهدف الى ايجاد النظرية التي تفسر علاقات مجموعة من الأشياء، او تحدد موقف الانسان من الحياة، والموت، والله. والحكمة لا تفعل ذلك. فالشاعر ـ الحكيم. اذن، ليس فيلسوفا على الاطلاق، وحين يحاول الانتقال الى الفلسفة، يسقط كشاعر، وقد لا ينجح كفيلسوف، كما فعل ابو العلاء. . اراد ذلك، ام لم. . فما هي الحكمةاذن، واين موقعها من الشعر؟

الحكمة دون نعت، تصبح رأيا خاصا، او منقولا، وتسقط فنيا، اما اذا نعتت «بالممتعة»او المثيرة فهي التي عناها «نيتشه» حين قال انها تلك التي تثير الخيال، وتطلقه، مدركا ومثيرا في آن، والخيال الواعي

هـو ، في نـظره: «ولادة حتمية لالتقاء الارادة بالعقل» حتى اذا شطح هذا الخيال، ووصل الى منطقة الوهم، بالارادة، والاختيار، انقلب الشاعر العقلاني الحكيم فنانا، وفنانا كبيراً. ذلك ان الفن ما هو الا محصلة، «الاختيار الارادي للوهم» على حد تعبير شوبنهور. او هو بتفصيل أكثر من بول فاليري: «لا بد ان يتدخل، في الفن[1] شيء آخر غير الحساسية، هو العقل، فالعقل اذن يتدخل، فيتدخل معه التنبؤ الواعي ثم يليه التخيل المثقف، او اللاتلقائي.» فالشاعر الحق، هو الذي لا يكتفي بمنهجية العقل، او نظامية التفكير، بل هو الذي تهزنا «لانظامية نظامه» اذا جاز التعبير. .

ويكلام آخر: تهزنا مقدرته على الخروج، بحرية، من سجن العقل، ونظامه. . الى فضاء الذات الأرحب، ودنيا الاحساس الأوسع. . الى عالمٍ لامتناهٍ من المشاعر والتخيلات، والهواجس، اي حينً يصبح قادرا على اثارة العقل، ودفعه إلى الحياة في حمى المغامرة،

---

(١) الخلق الفني ـ بول ڤاليري ١٩٢٧

والمغايرة، والهجرة، .. شيمة ت. ي. لورنس. مثلا، والمتنبي الى حد كبير. .

اما ابو العتاهية، فلا يرقى الى هذه الذروة من الامتياز. . فما هي« حكمته» وما لونها وطعمها ونكهتها؟ ومن اين انطلق بها؟

نبادر الى القول ان ابا العتاهية«الحكيم» هو ابو العتاهية الناظم. . اي ان قدرته على صياغة الحكمة، كقدرته على قول الشعر، سواء بسواء، سهولة سهلة، وعفوية مطلقة، ومعايشة للمعاني متصلة ترفده ذاكرة قوية وسرعة استدعاء لمخزوناتها فلم يعد بحاجة إلى اعمال فكر أو صناعة بلاغية، كما سيفعل ابو تمام مثلا لتأتي حكمته من أعماق الذات والعقل والتجربة، يكفي ان يطرح عليه سؤال في الموت وما بعد الموت، وفي الانسان، واللذة والقناعة وما سواها، .. حتى يتدفق ابو العتاهية بالحكمة الجامعة المانعة، في تلقائية ارتجالية بارعة لا يعوقها عائق من تفنن او تصنيع، او تفلسف. . .

قيمتها الفنية:

الا ان هذا لا ينفي عن حكمته، قيمتها الفنية،

فالتلقائية، في قول الشعر، وصياغة الحكمة، مسألة يعتبرها النقاد المعاصرون ذات وزن، لا يقل عن وزن الشعر المثقل بالتجربة العقلية التي ذكرناها، والتي تميز بها شعر ابي تمام والمتنبي، ولورنس، وامثالهما.

يقول بول فاليري: [1] « سيظل الناس ينسبون الى التلقائية (في الشعر)قيمة متعالية، وسيظلون، ايضا، يتحدثون عن الالهام، ويعارضونه بالعقل، ولكن دور العقل، هو مجرد دور الكائن البشري الذي يراقب نشاطا خاصا، ويوجهه، وينمو هذا الدور الذي يلعبه العقل في العمل الفني بنمو الثقافة، فكلما ازدادت الثقافة ازداد عمل العقل . . . ان الموهبة الحقيقية للفنان والخاصة به، هي تلك التي تجعل من هذا(الشعر) عملا فنيا يغني من تلقاء نفسه، وبصورة مستقلة عن المشابهة، ان كل عمل فني يمثل شيئا من الكمال. . . اني لا اعرف الا عددا قليلا من القصائد المؤلفة. . . ألخ» أي تلك التي تتطلب جهدا فكريا، وتقنيات لغوية وبلاغية، وابو العتاهية شاعر تلقائي، اي انه لا

---

(١) الخلق الفني: تأملات في الفن ص ٧٠ بول ڤاليري ترجمة بديع الكسم. منشورات الرواد(بدون تاريخ) دمشق

يؤلف قصائده تأليفا« تقنيا » بل يطلقها في مسار عفوي. يطول او يقصر بحسب طول النفس، او قصره، لا النَّفس.. فاللغة العتاهية هي الاقتراب حتى الالتصاق من بساطة التعبير الشعبي. وعفوية اللغة المحكية التي لا تهمل حرفا من طقوس الفصحى، واسلوبه الشعري الفريد، هو هذه البساطة المتناهية في التركيب النحوي والتصوير الفني.. فنحن لا نشعر « برهبة » المثول امام نص ابداعي، كحالنا امام ابي تمام او المتنبي، كما اننا لا نشعر بالسهولة المجانية التي لا تريد ان تقول شيئا.. هناك في الواقع عمق شفاف، في حكمة ابي العتاهية، وفي شعره بشكل عام،.. بمعنى انه يريد ان يقول شيئا، ان يعمقه في ذواتنا، ان يقنعنا بأنه هو ايضا، يشعر به، في عمق وحرارة وايمان،.. خاصة سألة الموت، وعدمية الحياة.. حتى ليبدو وكأنه أسير هذه الحقائق الكونية الصارمة والمحتمة والمؤلمة في آن... يصبها في حكمة تلوب باستمرار حول عدمية الحياة والوجود مرهصاً بها الى الفلسفة العلائية وحكمة ابي الطيب، ففي هاتين ظلال وانعكاسات كثيرة، من ابي العتاهية، لا مجال لتفصيلها هنا..

ثم ان التلقائية تبقى محتفظة بحرارة انبثاقها، فلا تبرد بفعل العقل، ولا بفعل سيطرة الصياغة عليها بله التعقيد. وهذا ما يبقي جوهرها فوق المحك..

واذا كانت حكمه المبثوثة في ثنايا موضوعات شعره غير الزهدي هي نتاج ثقافة متعددة الروافد، او انها حصيلة التماع ذهني، فان الحكمة في شعره الزهدي هي انبثاق وجداني ايماني يلملمه العقل بسرعة مذهلة، ويقذفه دون ان ينفعل به، الى الناس المعنيين مباشرة به، والذين ينتظرونه بفارغ الصبر، يقذفه اليهم، وفي مناسباتهم، مرتجلا احيانا، حارا وطازجا، في كل حين، تماما كما كان يفعل عمر بن ابي ربيعة، حين يلح عليه المغنون والمغنيات، وخاصة الملحنون « فيفبرك » لهم غزلا رقيقا على الأشطار والمجزوءات الملائمة لأوتارهم وحناجرهم، والمنسجمة مع الجو النسائي المعطر..

شعر ابي العتاهية الزهدي، وأكثره حكم، يرد العالم من نهاياته، النبع من مصبه، والنهار من غروبه، يطل على اجسادنا من جراحاتنا، ولا ينثر الزهور على جثثنا، بل يزيدها جراحا معلنا نهاية العالم وعبثية الحياة، ولعنة القدر.. ربما لنبقى معه «أحياء» متألمين..

اما الانسان ـ الضحية فيتناوله كعابر سبيل، كمسافر مكره على السفر فيزوده ببعض النصائح، والمحاذير، علها تنفعه في تفادي وحوش الغاب قبل ان يصل الى المقلب الثاني من الدرب الكبرى. .

نماذج من حكمته :

أ ـ في الغزل:

رأيت الهوى جمر الغضا، غير أنه
على جمرة في صدر صاحبه حلوُ
وما من حبيب نال ممن يحبه
هوى صادقا، إلا يداخله زهو
ان المحب اذا شطت منازله
عن الحبيب، بكى، او حن، او ذكرا
مَن كان يزعم أنْ سيكتم حبه
او يستطيع الستر، فهو كذوبُ
الحب أغلب للفؤاد بقهره
من ان يُرى للسر، فيه، نصيبُ
اني لأجهل ذا هوى متحفظا
لم تتهمه أعين وقلوبُ

ب ـ في العتاب.

قال يعاتب صديقه عمرو بن مسعدة:

بلوتُ اخا للناس، يا عمرو كلهم
وجربت حتى احكمتني تجاربي
فلم أر ودّ الناس الا رضاهم
فمن يُزر، او يغضب، فليس بصاحبي

وقال يعاتب صديقا آخر هو أحمد بن يوسف:

ألم تر ان الفقر يرجى له الغنى
وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر
إن الصديق يلج في غشيانه
لصديقه فيمل من غشيانه
واقل ما يلقى الغنى ثقلا على
اخوانه، ما كف عن اخوانهِ
واذا توانى عن صيانة نفسه
رجل، تنقص واستخف بشانه

ج ـ في الهجاء:

حتى في الهجاء نراه قادرا على صياغة الحكمة. هجا يوما حميد الطوسي المتكبر، منكرا عليه تكبره

وتيهـه، فجاء انكـاره في قالب الحكمـة والمـوعـظة غـير المباشرة:

لـلمـوت أبـنـاء بهـم
مـا شئـت مـن صـلف وتـيـه
وكـأنـي بـالمـوت قـد
دارت رحـاه عـلى بـنـيـه.

د ـ في المديح:

وتسري الحكمة العتاهية في كل باب، فهي في المديح كما هي في التهاني، وفي الهجاء: آراء وخواطر مصوغة صياغة الحكمة الشائعة.

قال من قصيدة في مدح الرشيد:

ومن ذا يفـوت الموتُ، والمـوتُ مُـدرك
كذا، لم يفت هارونَ ضدٌ ينافره

ووقف مـرة، وهـو شيـخ، عـلى بـاب الـرشيـد، فانشد مادحاً، وقد بدأ بالحكمة:

لـيس لـلانـسـان إلا مـا رزق
أسـتـعـين الله، . بـالله أثـق

الى آخـر الأبيات. وهي في تعـداد خصال الـرشيد،

ومزاياه. أعجب بها احد الهاشميين الذين سمعوه وهو ينشدها، فقال: ان الاعناق لتتقطع دون هذا الطبع..

حدث اسحاق الموصلي، قال: «قال لي الرشيد يوما: بأي شيء يتحدث الناس؟ قلت: يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة، وتولي الفضل ابن الربيع الوزارة. فغضب وصاح بي: وما انت وذاك، ويلك؟! فأمسكت، فلما كان بعد أيام دعا بنا. فكان اول شيء غنيته:

اذا نحن صدقناك
فضر عندك الصدقُ
طلبنا النفع بالباطل
اذ لم ينفع الحقُّ
فلو قدم صب في
هواه الصبرُ والرفقُ
لقدمت على الناس
ولكن الهوى رزقُ

والابيات لأبي العتاهية. قال: فضحك الرشيد. وقال: يا اسحاق قد صرت حقودا..»

ولكن الهوى رزقَ! حكمة بالغة اجاد شاعرنا سبكها، حين ضغطها في ثلاث كلمات.. وحمّلها كثيراً من ظلاله النفسية وتجربته.

روي انه لما قتل الخليفة الأمين، ارسلت زبيدة الى أبي العتاهية، بأن يقول على لسانها أبياتا تستعطف بها المأمون. فأرسل اليها الأبيات التالية متوجة بحكمة تختصر اقدار الناس.

ألا ان صرف الدهر يدني ويبعد
ويمتع بالآلاف، طوراً، وينفد
اصابت بريب الدهر مني يدي يدي
فسلمت بالاقدار، والله أحمد
أقول لريب الدهر إن ذهبت يدٌ
فقد بقيت والحمدلله لي يدُ

وله في طباع الناس وشذوذها حكمة تختصر مقالة برأسها:

مالي أرى الأبصار لي جافية
لم تلتفت مني الى ناحية
لا ينظر الناس الى المبتلى
وانما الناس مع العافية

تـأمل: وانمـا الناس مـع العافيـة.. ما أقـربها الى القلب، واسـرعها الى التغلغـل في الوجـدان، بصـرف النـظر عن الحقيقـة المقـررة فيها.. ولعلك تشعـر معي بوجع الشاعر وروحه الشعبية الملتـاعة.. فقـد استطاع بمثـل هذه السهـولة، والمباشرة، ان ينـطق بلسـان تلك الفئة الواسعة من الشعب التي ترى كل يوم وتسمع ما يصـرف الانظار عنهـا، ويتركهـا سـادرة في شقـائهـا. فـالنـاس اتبـاع القـوي الصحيـح، أعـداء الضعيف المريض في كل زمان ومكان.. صدقت يا أبا اسحاق: وانما الناس مع العافية.. مع حق الـقـوة، لا مـع قـوة الحق.. كما قـال يـومـا بليـز بـاسكـال [1] ويبقى لحكمتك هذه وهجها ودفئها، وعافيتها..

حدث موسى بن عبـد الملك، قال: كـان أحمد بن يوسف، ابو جعفـر، صديقـا لأبي العتاهيـة، فلما خدم المـأمون، وخص بـه، رأى منـه ابـو العتـاهيـة جفـوة، فكتب اليه:

---

(1) وعلى الاصح قال ما معناه: حين عجز الانسان عن تثبيت قوة العدالة، في الارض، ثبت عدالة القوة!

ابــا جـعفــر إن الـشــريف يـشينــه
تتــابهــه عــلى الأخــلاء في الــوفــرِ
فـإن نلت تيهـا بــالـذي نلت من غني
فــإن غنــائي في التجمــل والصبــرِ

ولا ننسى مــا للحكمـة في معــرض العتــاب من ذوق رفيع، ونبل فـي المخـاطبة والمعـاتبة، من جهـة، وقـدرة فنية في نقـل الخاص الى العـام، وجعله موجهـا لكـل انسـان، ومـوعـظة غـير مبـاشـرة لكـل من القى السمـع وهو شهيـد. . ومن هنـا بـلاغـة الحكمـة، أي حكمــة، حـين«تَسُنُّ»من خــلال التجـربــة العقليــة والشعورية، نظاما للمجتمع وللعالم. . نظاما مبـرمجا في كلمــات. . يؤمن بـه الشــاعـر، ويــدعــو اليـه في امبــراطـوريــة الاحـلام الموهـومـة. . . وعــالم المثـل المرصودة. .وقد وقف الشاعر من خلال هـذه الحكمـة، موقف عز وكـرامة، طـالما عـانى ابو العتـاهيةمن أمثـال هـذا الصديق، ومن الخلفـاء والأمـراء الشيء الكثـير. فهم لا يستقـرون عـلى حـال حيـال خلصـائهم، تـارة مـودة وإخاء، وتـارة غـدر وملل ونفـور، يشكـون في كل شيء، ولا يطمئنـون الى شيء. . يمدحهم الشـاعر

بما فيهم وما ليس فيهم، فيطربون. أما إن صدقهم القول، شكوا، او ملوا، او نفروا، او فتكوا.

وقد ضاق ابو العتاهية بهذه الحالة، واكتوى بنارها. استمع اليه يصورهم احسن تصوير واصدقه في حكمة جامعة تصلح بل تصح ان تكون درساً لكل طاغية:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا
فلا يكن لك في أكنافهم ظل

ماذا ترجي لقوم ان همو غضبوا
جاروا عليك، وان ارضيتهم ملوا

وان نصحت لهم ظنوك تخدعهم
واستثقلوك كما يستثقل الكلُّ[1]

فاستغن بالله عن ابوابهم كرما
ان الوقوف على ابوابهم ذل

ها هنا صدق نفسي، وصدق فني، ووراءهما انسان

---

(١) الكلّ: قفا السيف والسكين غير الحاد. والكل: المصيبة (لسان العرب مادة كَلَلَ)

مثقل بالتجربة، متعب بضرورة العيش مع مثل هؤلاء الاصنام البشرية.. لصيق بهم بقدرماهو بعيد، بروحه، عنهم. حتى اذا تخفف من طغيانهم، ولجأ الى حريته، انطلق على رسله في فضحهم، والتطهر، بالشعر، منهم، عائذا الى براءاته الاولى، عائذا بنفسه وبربه من شيطانهم. رموز الشر هؤلاء سوف يصبحون في حس المتنبي ووجدانه: أحق بضرب الرأس من وثن.

فلا اعاشر من املاكهم أحدا
الا احق بضرب الرأس من وثن

وهكذا يتحرر الشاعران من عبادة الاوثان الى عبادة الحرية والهجرة: هذا يتحرر بالتوبة، ويهاجر الى الله عبر الناس، فينتقل من الآني المتناهي الى اللامتناهي. وذاك يتحرر من «الآخر» في رحلته البعيدة نحو المجهول عبر «الأنا» الطاغية، ينميها بالتجربة، والمعاناة والمعاداة، والرفض والتحدي واللاإنتماء.. وَيغنيها بأناشيد، الكرامة والمجد والاستعلاء.. متطاولاً على الدنيا، جامعاً الزمان والمكان بين قبضات سيفه، وقلمه، وامنياته وأناه..

فكـان بهذا، شـاعرا، قبـل ان يكون بـذاك. . والفـرق بـين الشـاعـرين في هـذا المجـال، هـو الفـرق بـين الهمتـين، والتجربتـين، ومدى الامتـلاء«بالأنـا». . ابو العتـاهيـة متقـطع الانفـاس، يتـرجـح بـين الـرفض والقبول، بين الانتهاء واللاإنتهاء. والمتنبي رافض ابدا، حتى وهو في صميم قبوله. . .

ابو العتاهية مغاير بقدر، ممتلىء بأناه بقدر. اما المتنبي فعنوان للتقحم والمغايرة، ورمز للامتلاء والاستعلاء. . ابو العتاهية الشاعر: بحتري التجـربة والضحـالة، اذا صحت المقـارنـة، لمـاح الخـاطـرة، قليـل الخـطر. . والمتنبي: تمامي الغوص والاصالة ذاتي التجربة. . فبـين الاثنين، اذن، شأو كبير. .

٥ ـ في الرثاء:

وهنـا تبـدو الحكمـة حـارة، ذائبـة ذوب وجـدان الشـاعـر امـام المـوت والميتـين، واكـثر رثـائـه كـان في اصـدقائـه الأوفياء او أبناء وبنات اصدقائه. فكان طبيعيا ان يجيء هـذا الرثـاء حـزينـا صـادقـا ينـطلق من تجـربـة حقيقية عاشها الشاعـر مع قيم الصـديق وشمائله قبـل المـوت. ومـع هـذه القيم المفقـودة بفقـد من كـان

يجسدها ويحياها. . فاذا به كعادته، يسارع الى ايراد الحكمة من خلال تصوير الفاجعة المزدوجة: فاجعة فقد الصديق وفجيعته به، فكأن من مات ليس الصديق وحده، بل الشاعر ايضا، والناس اجمعين. ويزيد من «متعة الحكمة» هنا انها مزيج من تجربتين: شعورية وعقلية. وأنها «لذيذة» كذلك، لأنها غير نفعية على الاطلاق (الا اذا كانت في رثاء ابنة الرشيد). وهي الى هذا كله. صادقة صدقا اخلاقيا، وصدقا فنيا. موضوعها: المتناهي ـ الانسان، ومجالها اللامتناهي ـ الله ـ وراء ديمومة الموت والقيم. .

جاء في امالي الزجاجي: قال ابو العباس (المبرد): ولما دفن علي بن ثابت، وكان من أخلص اصدقاء ابي العتاهية، وقف شاعرنا على قبره، وردد هذه الأبيات:

ألا من لي بانسك يا اخيا
ومن لي ان ابثك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر
كذاك خطوبه، نشراً وطيا

فـلو نـشـرت قـواك لي المـنـايـا
شكـوت اليـك مـا صنعـت إليـا
بـكيتـك يا عـلي بـدمـع عيـني
فـما اغـنى البـكـاء عليـك شيـا

كفى حـزن بـدفـنـك، ثم اني
نفضت تـراب قبـرك من يـديا

وكـانـت في حيـاتـك لي عـظات
فـانـت اليـوم، اوعظ منـك حيـا

ومهـما قيل في شأن هذه المقطوعة من انه اخذ معانيها من كلام الفلاسفة (اليونان)، لما احضروا تابوت الاسكندر (من بلاد فارس)، وقد اخرج جثمانه ليدفن، فقال احدهم: كان الملك امس اهيب منه اليوم، وهو اليوم اوعظ منه امس، وقال آخر: سكنت حركة الملك في لذاته، وقد حركتنا اليوم في سكونه حزنا لفقده، الى آخر العظات التي اطلقها الفلاسفة وكانوا اثني عشر ومعهم ام الاسكندر.

مهما قيل بهذا الشأن، فان الشاعر استطاع ان يصوغ معاني الفلاسفة، ولا سيما في البيت الأخير،

صياغة الحكمة البالغة، وان يسبغ عليها من روحه واسلوبه الخاص ما جعلها تحيا من جديد، حارة مؤثرة، حرارة المناسبة، ومؤثرات الفاجعة. . وكأنها اصبحت ملكا له. . وانها لكذلك ، في المفهوم الفني لصناعة الشعر. اذ ليست القضية في الصنيع الشعري، كما هو معلوم اليوم، قضية معان جديدة او غير جديدة، سبق اليها أو لم يسبق. فالمعاني ـ كما يقول الجاحظ «مطروحة في الطريق يلتقطها البر والفاجر الخ» والمهم ان يلتقطها الاديب او الشاعر بملقطه السحري. فاذا انفعل بها وبث فيها من وجدانه وكيانه وتجربته وبعث فيها روحا جديدة، وألبسها لباسا خاصا. خرجت من بين اصابعه، وقد شحنت بكهربائية الشاعر الخاصة، وظلاله وصوره وذوقه، وهذا ما عناه توفيق الحكيم، في مسألة الخلق في الادب[1] حين قال: ليس الابتكار في الأدب والفن، ان تطرق موضوعا لم يسبقك اليه سابق، ولا ان تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك، انما

---

(١) انظر كتاب: في الادب لتوفيق الحكيم ص ١٠ مكتبة دار الآداب ومطبعتها . بدون تاريخ ـ القاهرة

الابتكـار الادبي والفني، هو ان تتنـاول الفكرة التي قـد تكون مألوفة للناس، او ان تعالج الموضـوع الذي كـاد يبلى بين اصابع السابقين، فاذا هـو يضيء بين يـديك، بروح من عندك، فالكثير من موضوعات شكسبير نقـل عن بـوكاشيـو، وبعض ملاهي مـوليير عن سكـارون، ولـوب ده فيجا وغـوته (في قصـة فاوست)عن مـارلو، ومآسي راسين عن مآسي ايروبيـدس، وسوفـوكل. . . الى ان يقـول: » الفن ليس في الهيكل، انـه في الثـوب. الفن هـو الثوب الجـديد الـذي يلبسـه الفنـان للهيكـل الـقـديم. انــه الـكسـوة المتـجـددة لـكـعبـة لا تتغير. . » وواضح ان الثوب هنا، هو الاسلوب الخـاص وطريقـة تناول المـوضـوع، او المعنى القـديم. تناولا جديدا بروح جديدة وصياغة خـاصة بـالاديب او الشاعر او الفنان. .

وهـذه المرثـاة التي القاهـا ابـو العتـاهيـة عـلى قبـر صـديقه (او ابنـه؟)[1]قد أخـذت معانيهـا من اقـوال

---

(١) روى كثيرون هذه الأبيات على انها في رثاء ابن له. كما روي ان قائلها هو ابنه وليس هو. .

الفلاسفة اليونان. لكن الروح التي فيها، والد معة الساخنة التي ذرفت في ثناياها هي روح ابي العتاهية، ودمعته، ولوعته، سكبت في نشيج مأساوي جنائزي خاص به.. وحين نسمعه ينشدها، او حين نلقيها عنه، ننسى تماما مصدر معانيها، ولا نعود نسمع ونرى الا ابا العتاهية دون سواه..

والشأن نفسه مع كبار الفنانين المبدعين الذين لم يلجأوا الى ابتكار المعاني الجديدة، او الموضوعات المستحدثة. بل لجأوا الى انفسهم ومواهبهم، وتجاربهم، وثقافتهم، حين واجهوا هذه المعاني والموضوعات القديمة او المتداولة، مواجهة الخالق حين اراد خلق الكون والانسان. فلم يقل للاشيء: كن فكان.. بل قال للشيء (للمادة) كوني، فكان الوجود، وللطين: كن، فكان الانسان..

على ان ابا العتاهية لم يكن من النوع الذي يبدع دائما، اوينفعل بمعانيه، بل كان من ذلك النوع الذي يسرع في قول الشعر، والتقاط المعاني عن غيره التقاطا باردا، « ينشلها نشلا كاللصوص، فيغير صياغتها تغييرا يسيرا، ثم يدعيها لنفسه، في اغلب الأحيان! لم يكن

الشعر عنده عملية صعبة، ولا ولادة قيصرية.. كان، في أكثره، نظماً هيناً ليناً لا غناء فيه، ولا جهد، ولا تجربة، ما عدا بعض الفلذات التي اشرنا اليها.. حتى وقع في الابتذال والتكرار والسطحية في معظم شعره. كما وقع في السرقة.. مع انه كان بغنى عن كل ذلك، لو لجأ الى موهبته وثقافته، واعطى نفسه الوقت الكافي، ولم يستجب للسوقة وعامة الناس، وبعض الصبية في شوارع الكوفة وبغداد، يداعبهم بالشعر، او بالأحرى يلاعبهم ببعض الاحجيات الشعرية والفذلكات المنظومة..

جاء في الأغاني[1]« اجتاز ابو العتاهية في اول امره وعلى ظهره قفص فيه فخار، يدوربه في الكوفة ويبيع منه، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر، ويتناشدونه، فسلم، ووضع القفص عن ظهره، ثم قال: يا فتيان: اراكم تتذاكرون الشعر. فأقول شيئا منه، فتجيزونه. فان فعلتم، فلكم عشرة دراهم، وان لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم، فهزؤوا منه،

(١) اغاني بيروت ج ٤ ص ١٠ وما بعدها

وسخروا به، وقالوا نعم، قال: لا بد ان يشترى بأحد القمارين رطبٌ يؤكل ، فانه قمار حاصل، وجعل رهنه تحت يد أحدهم. ففعلوا. فقال: اجيزوا: ساكني الأجداث انتم... وجعل بينه وبينهم وقتا، في ذلك الموضع، اذا بلغته الشمس، ولم يجيزوا البيت، غرموا الخطر[1]، وجعل يهزأ بهم، وتممه :

مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعري ما صنعتم

اربحتم، ام خسرتم؟! وهي قصيدة طويلة في شعره.[2]

ويمضي هكذا، في اوائل امره، يتندر بالشعر. ويدخله في باب الالهيات والاحجيات، والمطارحات بين المتأدبين والفارغين من الناس، ويضع النظريات.. نعم يضع النظريات.. فقد قال بأن الناس

---

(١) الخطر: رهن القمار

(٢) لكن هذه القصيدة الطويلة لم نعثر عليها في الديوان امّا شارحو الديوان فيذكرون مطلعها هذا، ويقفون عنده ويكتفون بالقول انها قصيدة طويلة.

كلهم شعـــراء حـــين يتكلمـــون ويتخـــاطبـــون؛ لكن تنقصهم القـدرة على تـأليفه وتـرتيبه، لأنهم لا يـدرون انهم يقـولون شعـرا. قال ابـو العتاهيـة: أكـثر النـاس يتكلمـون بـالشعـــر. وهم لا يعلمـون. ولـــو احسنـوا تـــأليفه كـــانـوا شعـــراء كلهم، قـــال: فبينـــما نحن كذلك [١] اذ قـال رجل لآخـر عليه مسـح (مسوح) : يا صاحب المسح تبيع المسحـا؟ فقالابـو العتاهيـة: هذا من ذلك، ألمتسمعوه يقـول: يا صـاحب المسح تبيـع المسحا، قد قال شعرا وهـو لا يعلم. ثم قال الـرجل: تعال ان كنت تريد الربحـا. . فقال ابـو العتاهيـة :وقد اجاز المصراع بمصراع آخر وهو لا يعلم.

وهو يقصد بـالشعر النـظم على بحـر وقافيـة. لأن كلمـة« شعـر » كـانت تـطلق عـــلى المنـظوم من كـــلام العـرب، ايـا كـان مـوضـوعـه، وكـانت قيمتـه، وقـد سموه «شعرا» لأنهم «شعروا»به متأخرين، كـما يقـول الباقلاني. شعروا بأن تلك الاساجيع المتطورة والمنظومات والاناشيد الجاهلية ما هي سوى شيء آخر

---

(١) اغاني دار الكتب ج ٤ ص ٤١

غير النثر.. ثم عمدوا الى ضبطه ووضع بحوره وتفاعيله.. فهم، اذن، لم يكونوا ليفرقوا بين نظم وشعر، كما نفرق نحن اليوم، اذ شتان بين هذه الألاعيب التي يسميها ابو العتاهية شعرا، وبين الشعر الذي نفهمه نحن اليوم..

ومن مسطحاته وألاعيبه، ما جاء في الأغاني:

همُّ القاضي بيت يطرب
قال القاضي لما عُوتبْ
ما في الدنيا إلا مذنبْ
هذا عذر القاضي واقلبْ

وقَلْبُ: عذر: غدر بالتصحيف. وقد روى المسعودي هذين البيتين، ووزنها «فعلن» اربع مرات. قال: «ابو العتاهية خرج فيهما عن العروض» وقد قال قوم: ان العرب لم تقل على وزن هذا الشعر، ولا ذكره الخليل، ولا غيره من العروضيين »[1]وطبيعي ان يتصرف ابو العتاهية بالاعاريض والبحور، تصرف المالك بملكه، لأنه كان

---

(١) الديوان ص ٣٠١

يشعر في قرارة نفسه بأنه اكبر من قواعد الخليل والأخفش. وان موهبته كفيلة بسد النقص العروضي، ان وقع، روى الصولي قال: ان أبا العتاهية سئل: هل تعرف العروض؟ فقال: انا أكبر من العروض، وله أوزان لا تدخل في العروض. »

حبذا لو توسع في هذه « الأنا الأكبر ».. اذن لكانت لنا مدرسة عتاهية في تجديد الشعر العربي واطلاقه من عقاله سبقت زمن الموشحات بقرون.. ولكن ابا العتاهية اكتفى بالقليل منها مراعاة للعصر، ورضوخا لقواعد نقاد الشعر يومذاك.. حسبه انه كان من تلك النخبة المجددة كبشار وابي نواس، التي حاولت الرفض، ولم تخضع، رفضت بعض القيم البالية في المجتمع، ورفضت بعض مفاهيم الشعر وقيود النقاد اللغويين وارادت التحرر من شعر القصور وما فيه من كذب وتملق، وذل.. فانزلواالشعر من عليائه المصطنعة.. الى الطبقات الشعبية الدنيا، الى دجاجات رباب.. وخان الاصبهاني! وخمارة اليهودي في بغداد. وصبية الكوفة..

فكانوا، بهذا، الوجه التجديدي المشرق لشعر

طـالما تحنط في قـوالبه ومـوضوعـاته حتى كـاد يمـوت . .
وحسب ابي العتـاهيـة انـه جـرى، في شعــره، مجـرى الطبع، وتحدى باختراعه، وتوليداته، ما اصطلح عليه الشعراء الكلاسيكيون، والعروضيون والنقاد اللغـويون من قـوالب جامـدة، تحد من حـريـة الشـاعـر، وتميت تجـربته، ليصبـح أسـير القـوافي والبحـور المفـروضـة، والصناعات البلاغية المرسومة . .

ولو إرتفع شاعرنا بالتلقـائية، قليـلا، وسما بشعـره عن الابتـذال والمجانيـة، لأضاف الى عفـويته، وليـونة شعـره، ورفضه، وشعبيـة روحه، فنـا الى فن، ولكـان أشعر أهل زمـانه (بـالاذن من معاصـريه: بشـار وابي نواس، وابن الرومي، والبحتري . .)

و ـ حكمته في الزهد:

سنشهـد، هنـا، حكمــة عتـاهيــة ارقى وابلغ في النفس، نـظرا لأن شعره الـزهـدي يتميـز، عن سـائـر فنـون شعره، بـالجديـة، واللوعة والنـدم، واللهفة، الى جــانب قسط لا بـأس بــه من التـأمــل، واستشـراف حقائق الوجـود والموجـود، والمجتمع والحيـاة، والموت، والمصـير، في روحية شـرقية اشـراقية تكـاد تبلغ مراتب

الصوفية.. روحية هي مزيج من قيم الشرق القديم، وتعاليمه، وعقائده، والقيم الجديدة التي دعا اليها الاسلام، وعاشها النبي، والصحابة الاولون، مضافا الى كل ذلك، خصوصية تضج بها «أنا» الشاعر الملتاعة التي اسرفت في تعاليها، واوغلت في غلواء مجونها وعبثها، وارادت، اخيرا ان تنيب الى الله في توبة نصوح، (ربما؟) او شبه نصوح؟ كما ارادت ان تتميز بهذا اللون الشرقي الروحاني من الشعر الاعتباري الذي طالما عبر به حكماء الشرق عن خلجات قلوبهم الخاشعة، وعقولهم المتأملة الحيرى، امام الله، والكون، والانسان، والمصير، فجاء شعرهم الزهدي والصوفي، كما جاء نثرهم، ابتهالات احتفالية، ولا اروع! وتراتيل دينية ولا امتع! بدأ من المصريين، والفينيقيين، والصينيين، والهنود، والايرانيين، كما رأينا وانتهاء بالعبرانيين والعرب عبر التوراة والزبور[1] والانجيل والقرآن: سجل

(١) الزُّبور جمع. ومعناها الكتب وفي الآية: وآتينا داود زُبوراً اي كتبا. والزَّبور: بفتح الزاي: الكتاب المزبور: المكتوب وقد غلب الزبور على صحف داود وكل كتاب زبور. قال تعالى: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر. قال أبو هريرة: الزبور ما انزل على داود من بعد الذكر،

حافل بروائع العبر، وجوامع الكلم، في صلوات خاشعة، وترتيلات تأسر القلب، وتهز الضمير. .

من على هذا الاساس انطلق ابو العتاهية في ترتيلاته وابتهالاته وعظاته. . فلم يكن بدعاً شعره الزهدي، ولا زهده، بالرغم مما قيل في هذا الزهد من تبديع وتهجين. اما لماذا أكثر من هذا الشعر، فالأمر أصبح واضحا كل الوضوح، ونلمه في اربعة:

اولا: لأنه انقطع عن قول الشعر في سائر الموضوعات لا سيما الغزل والخمرة والهجاء.

ثانيا: لأنه تفرغ للنظم في الزهد، واختص به، وكان وحيدا فيه، كمّا لا نوعا. .

ثالثا: لأن حياة الزهد، وكره الحياة (لا الأحياء)كانا في اصل طبعه ومزاجه. وموحيات ثقافته. حتى الاحياء الذين احبهم، وعاش معهم لم يكن يحب فيهم تهافتهم وتخاذلهم، واستسلامهم للهوان والطغيان، وكثيرا من عاداتهم وعقائدهم، اما

من بعد التوراة. وقرأ سعيد بن جبير: في الزبور بضم الزاي. وقال: الزُّبور: التوراة والانجيل والقرآن الخ. (لسان العرب مادة زَبَرَ)

الحكام، فقدوجد نفسه مرغما على معايشتهم طلباً للشهرة، والمجد والمال، رغم ما يراه فيهم من ظلم وجور، وفتك بالصديق عند اول هفوة..

رابعا: ردة الفعل كانت عنده قوية بحيث هاله ما ارتكب من خطيئات، وما تحمله من اوزار، ووقع فيه من رذائل وموبقات، طيلة حياته اللاهية الماجنة.

فكان طبيعيا ان يرتد الى ينابيع جبلته وحقيقة مزاجه، يستوحيها الخلاص مما هو فيه، وسرعان ما اوحت اليه بتلك العظات الزاجرة والحكم البالغة يمشي على هديها في طريق الرشاد والصحو الروحي، داعيا الناس، من ثم، الى تمثلها والاتعاظ بها، وبكثرة المواقف، وكثرة التأمل في احواله واحوال الناس كثرت الحكمة في زهدياته. وبسبب انفعاله الى حد ما بما يقوله من جهة، وسهولة ضغط التجربة الوجدانية عنده، وسرعة التقاطه لمعاني الزهد والورع والتنسك، جاءت حكمه تلك وكأنها مسلمات يتوج بها نظام السلوك الأول في رأيه..

اما المناسبات اليومية، والحوادث الطارئة فما كان أكثرها في حياته، ما يكاد يمر بها او يسمع عنها، حتى

يسارع الى صياغتها شعرا تأمليأزاجراً حتى انه كان قادرا على تحويل المضحك منها مبكيا. كان يرى المأساة من خلال الملهاة، لأنه كان في واقع حاله، يعيش المأساة الأنسانية نفسها، شيمة كبار الشعراء التأمليين الرومنسيين في الغرب.

وهذا واحد منهم ألفرد دهٔ ميسيه يهتف من اعماق وجدانه :

« يا لها من ملهاة تلك التي لا تكاد نضحكنا حتى تبكينا.. ! وهو يعني ، بالطبع . ملهاة الحياة : بدءها ومنتهاها ..

عاش ميسيه الحياة بالألم المادي والمعنوي، وعاشها ابو العتاهية بالندم.. والندم أشد ايلاما من الألم المادي نفسه.

نماذج من حكمه الزهدية :

ألا اننا كلنا بائد
واي بني آدم خالدُ
وبدؤهم كان من ربهم
وكل الى ربه عائد

فيـا عجبـا! كيف يُعـصى الإلّـه
ام كـيـف يجـحـده الجـاحـد

وفي كـل شـيء لـه آيـة
تـدل عـلى انـه واحـد..

يخالجني امام هـذه الابتهالات، شعـور أكيـد بـان تهمة الزندقة، او الـزهد المـزور كانت تهمـة باطلة،فهـا هـو وبشيء من الاصـرار الايمـاني والايمـان المصـر يقول بالمعاد، ويوم الحساب، والوجـدانية. الى جـانب ما في هذه الأبيـات من سهولـة في ضغط التجربـة تحت تـأثير الشعـور العميق بهـول المصير، والايمـان المـطلق بـالله، وقدرتـه، وكلهـا مـزايـا فنيـة لا تتـاح للشعـراء الهجناء او الزاهدين الدخلاء..

امـام المـوت دائـما:

ولكثرة ما وقف ابو العتاهية امام الموت متعظا واعظا، وشامتـاً من أولئـك الغافلين عنه، السادرين في شهواتهم، ومصوراً لـرهبتـه

وهـولـه، حتى كـدنـا ان نسميه شاعـر المـوت، في الاقدمين، كـما هو « كيتس » الانكليـزي شاعـر الموت في المحـدثين. وسيكـون ابـو العـلاء مجسـدا لهـذا الاتجاه تجسيدا حياتيا ووجدانيا تاما . .

لابد من الموت:

تـعـلقـت بـآمـال طـوال، أيَّ آمـال
وإقبلت عـلى الـدنـيـا مـلحـاً، أيَّ إقـبـالِ
أيـا هـذا! تجهـز لفـرا ق الأهـل والمـالِ
فـلا بـد مـن المـوت عـلى حـال من الحـال

وفي نبرته دائما سمة الزجر والمخاطبة من فوق لمن تناسى حقيقة الموت، والناس كلهم يتناسون، وحق لهم ان يتناسوا، وإلا هلكوا يأسا وقنوطا، فيأتي ابو العتاهية يصحيهم ويهز فيهم مشاعرهم الدفينة تجاه الموت، رحمة بهم لا نقمة عليهم ولا تشفيا. وفي البيت الأخير كثير من التقريرية في قالب حكمة متداولة. لكن المهم فيها هو عنصر الاثارة، وتلك « اللابد » ومـا في حتميتها من رهبة تجعل الانسان رهين هاجسه الابدي: الموت!!

الذكر الحسن:

سكن يبقى له سكن؟
ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا
ببلاها، ناطق لسن

دار سوء لم يدم فرح
لامرىء فيها، ولا حزن
في سبيل الله انفسنا
كلنا بالموت مرتهن
كلّ نفس عند ميتتها
حظها من مالها الكفن
ان مال المرء ليس له
منه، الا ذكره الحسن

هنا يسمو اسلوبه بلاغياً فيترجح بين غيبة وخطاب، وتساؤل وجواب، ثم يراوح بين الانسيابية اللغوية البارعة في التقاط الألفاظ الملائمة، وبين النثرية التقريرية، ولولا القافية والوزن، لما احسسنا اننا نقرأ شعرا، او قولا منظوما، وكل ما وفق اليه

الشاعر هنا، لين البحر (فهو من المديد) ورقة القافية، وكلاهما ينسجم والروح الزهدية في حال تسليمها، ونظرتها بعين اللوعة والألم، الى طبيعة هذه الدار(الدنيا)، ومع ذلك الموقف إلمأساوي امام تفاهة العيش، وضآلة الانسان، وتفاهة جهده وجهاده في الحياة. . ولا ننسى ماللاستفهام الانكاري من بلاغة خطابية توجت مطلع الأبيات، وما تنطوي عليه من أسى وأسف ولوعة. اما البيت الثاني ففيه أنسنة وتشخيص للموت،ذلك الخطيب اللسن الذي يعلن في كل لحظة ان هذه الدنيا دار سوء. لا تدوم على حال. وهي شر كلها وباطل الأباطيل!.

وهكذا يبرز الموت بكل توابعه ورموزه: العدم ـ العبث ـ لاجدوى اكتناز المال. . الألم ـالفناء ـ ضيق المجال ـ تقطع الآمال. . يبرز مصورا، في زهديات شاعرنا بكل رهبته ورعونته ويشكل شبه دائم وحاضر في دائرة المركز. .

رغم كل هذا فلا نرى الشاعر يدعو الى ترك العمل وهجر الحياة الى عزلة تامة، كما سيفعل ابو

العلاء، ولا إلى قطع النسل بعدم الزواج. وتحريم أكل اللحم. فها هو يدعو الى العمل والسعي والمتاجرة، على عكس ما اتهمه به البعض، حتى بعد تزهده « قعد للحجامة » على حد تعبير الاغاني. ورغم شبح الموت الذي خيم على فكره ونفسه وشعره، فقد دعا الى القناعة والرضى بالقليل:

ما شرف المرء كالقناعة
والصبر على كل حادث يقع
لم يزل القانعون اشرفنا
يا حبذا القانعون ما قنعوا

وكأنه يحس انه لم يكن من القانعين، ايام غلواء شبابه، وهو في حرصه على جمع المال، وانتهاب اللذات. قد تجاوز حد القانعين .. فوعظ الناس بها وحثهم عليها. ولا اظن الا انه كان يعظ نفسه ويطهرها. حتى اذا حرره الزهد من الجشع والطمع، هتف قائلا:

لما حصلت على القناعة لم أزل
ملكا يرى الاكثار كالإقلال

ان القنــاعــة بــالكفــاف هي الغــنى
والـفقــر عـــين الفـقــر بــالامـــوال

ولعـل المتنبي اعجب بهذا الشطر الثاني من البيت الأخير، فصاغـه صياغـة جديـدة، ارقى وافضل حـين هتف:

ومـن ينـفـق الايــام في جمــع مــالــه
مخــافـة فقــر، فـالــذي فعـل الفقــر

وطـالما رأينـاه يكرر هـذا المعنى في مواعـظه وكأنـه تكفـير عما وقـع هو فيـه، وتـطهـير لنفسـه من اوضـاره واوزاره..

وخير ما أعجبني في شعـره الاعتباري، ذاك الـذي كان يتوجـه به الى الحكـام واعظا و زاجـرا بطريقـة لبقة غير مباشرة ولكنها، ملغوزة.. وكثيرا مـا كانـوا ينتبهون الى قصـده فيتعظون، واحيـانـا، يبكـون.. كـما فعـل المهـدي حين وقف ابـو العتـاهيـة يـرثي ابنـة الخليفـة بقوله:

مـا للجديـدين لا يبلى اختـلافهـما
وكـل غصن جـديـد فيهـما بـالِ
يـا من سـلا عن حبيب بعـد ميتتـه
كم بعـد موتـك ايضا عنـك من سالِ
كـأن كـل نـعيـم انـت ذائـقـه
من لـذة العيش يحكي لمحـة الآلِ
لا تلعبـن بـك الـدنيـا وانت تـرى
مـا شئت من عبـر فيهـا وأمثـالِ
مـا حيلة المـوت الا كـل صـالحـة
او، لا، فـما حيلة فيهـا لمحتـالِ

فلم يملك المهدي الا دمعة ساخنة يرسلها على خديه . .

وكذلك يوم قدم الشاعر على المأمون، فاستنشدته حاشية الخليفة وفيها العلماء والادباء. فقال ملغزا، بالنذير، مغلفاً بالموعظة، مؤطراً كل ذلك بالحكمة العامة:

الم تـر بيت الـدهـر في كـل سـاعـة
لـه عـارض فيـه المنيـة تـلمـع

ايـا بـاني الـدنيـا لغيـرك تبتـني

ويـا جامـع الـدنيـا لغيـرك تجمـع

أرى المرء وثابـاً على كـل فـرصـةٍ

وللمرء يومـا، لا محالـة، مصـرع

تـبـارك مـن لا يملك الملك غـيـره

متى تنقضي حـاجـاتٍ من ليس يشبـع

واي امـرىء في غـايـة، ليس نفسـه

الى غـايـة اخـرى سـواهـا تـطلع؟!

واجمع الحـاضـرون عـلى انـه لـو كـان طبـع ابي العتـاهية بجـزالة لفظ: لكـان اشعر النـاس[1]والجديـر بالتوقف عنده،هـو ان ابـا العتـاهيـة كثيـرا مـا تـوجـه بحكمتــه الـواعـظة الى هؤلاء الملوك. فهم في نـظره رأس الـظلم وقمـة الـطغيـان، ومخـافـة ان يقـع، مـرة أخـرى، ضحية جـورهم ارتفـع بـالمنـاسبـة الخـاصـة، وتجـاوز الاسماء ، الى العـام الـلامحـدود، فكـان ابلغ. ومن آرائـه المصـوغـة حكـما ان الملك لا يـدوم لأحـد، وان الدنيا دول: ملوك تأتي بعد ملوك:

---

(١) اغاني بيروت ٤/ ١٢

ما اختلف الليل والنهار ولا
دارت نجوم السماء في الفلك

الا لنقل السلطان عن ملك
قد انقضى ملكه، الى ملكِ

قيل ان هذين البيتين السائرين قد اعجبا ملك الروم (أيام الرشيد)[1] يوم قدم رسول القيصر الى بغداد، فاستمع الى ابي العتاهية، وكان يحسن العربية، فمضى الى ملكه وذكره له، فطلبه القيصر من الرشيد، فرفض الشاعر الذهاب. قيل: وعلم الرشيد ان ملك الروم أمر بأن يُكتب البيتان المذكوران على باب مدينته[2] دليلا على اعجابه بهما.

انه حقد قديم يعتمل في نفسه، على ذوي السلطان والجاه، ذلك لأن الاذى لم يأته الا منهم، واذا كان قد استطاع ان يرد الاذى يأتيه من قبل الفئات الاخرى من شعراء حساد، كوالبة وامثاله، الا انه لم يستطع ان يرد اذى الملوك والأمراء الذين اتهموه

---

(١) لا اظنه نقفور فقد كان ارعن.. بل لعله قسطنطين السادس (٧٨٠م)

(٢) اغاني دار الكتب ج ٤ ص ١٠٥.

في نسبه وأدبه واسلامه، وانطوى على آسى عميق. وكره دفين لهم. وما كان تقربه منهم الا طلباً للشهرة والمال. كما كان يكره فيهم الكبرياء والصلف والاستعلاء.

يقول في القاسم بن الرشيد دون ان يصرح باسمه:

- يتيه ابن آدم في جهله[1]
كأن رحى المنية لا تطحنه

وقال فيه ايضا:

حتى متى ذو التيه في تيهه
اصلحه الله وعافاه
يتيه اهل التيه من جهلهم
وهم يموتون وان تاهوا
من طلب العز ليبقى به
فان عز المرء تقواه

---

(١) اغاني دار الكتب ج ٤ ص ١٠٥

لم يـعـتـصـم بـالله مـن خـلقـه
مـن لـيس يـرجـوه ويخـشـاه

الا تـرى معي تلك الـظلال النفسيـة التي تحيط بكل معنى من معاني هـذه الموعـظة الحكيمة؟ فهـو يبث فيهـا اعمق مـا في نفسـه من معانـاة لقيهـا من أمثـال القـاسم وابيـه وجـده. .حتى اصبـح في « حكمتـه » ومـواعـظه نـذيـرا لهم، وليس مجـرد واعظ، ولا إخـال عـامـة الشعب قد احبت زهـديـاتـه ومـواعـظه الا لهـذا السبب. . فالشعب، يحس بالمعاناة، ويذوق مرارة الفقـر والحرمان والظلم كل يـوم، ، لكنه لا يستـطيع ان يعبـر عن احسـاسـه هـذا، في كثير من الأحيـان، حتى اذا نهض من بين صفوفه شاعـر شعبي المنطلق كشـاعرنـا، ذاق مثلهم الوانا من القهـرِ والإذلال ، وراح، في زهـدياتـه، يعظ ويحـذر، وينتقم، سـارعـوا الى فهمـه وتصديقه، والاعجاب به، لا على انه واعظ من وعاظ المسـاجـد، .ومـا كـان أكثـرهم! بـل عـلى انـه منهم ومثلهم، استـطاع ان ينفس عنهم وينتقم لهم، كـذا، فعلوا مـع عنترة، في سيـرته، حين خلقوا منـه، فيهـا، بـطلا اسـطوريـا، خـاصـة تلك النهـايـة الـرهيبـة التي

احبوا، عبر واضعي السيرة، ان يلقاها بطلهم، لكي يتساوى في وهمهم مجد البطل التاريخي المقاوم للعنصرية، والعاشق الشريف، مع امجاد ابطال الأساطير. والشعب، في اعماقه، يهوى امثال هؤلاء الابطال، حتى اذا رأى قيمه التي يؤمن بها، محققة في انسان، هتف له، وخلده. فكيف اذا كان شاعرا يهجس بما يهجس ويغنيه؟! وانا أرى، في التحليل الاخير لنفسية ابي العتاهية، المضطهد، المتهم، المشبوه، شاعرا اراد ان ينتقم ممن اضطهدوه، واتهموه، فوجه سياطه اللاذعة، وسخريته المبطنة نحو هؤلاء.. ولم يجد منتقما جبارا حتمي الارادة، الا الموت، فراح يحاربهم به، في مواعظه الملغوزة، فأبكاهم وعرّاهم.. وانتصر..

وإلا فلا قيمة لأكثر مواعظه وحكمه المكرورة، ان لم تكن « طالعة » من اعماق نفس مثقلة بهموم الوجع من كل نوع. وما لم يكن فيها، بهذا المقدار من الصدق النفسي، يسقط في نظرنا، ولا يعود يصلح الا لتراتيل الدراويش. او لتعليم الصبية المراهقين.. ناهيك بالصدق الفني المفقود..

ومما يؤكد ما نذهب اليه من تخصصه بملاحقة الملوك والخلفاء انه يلاحقهم بعد موتهم ليتخذ منهم عبرة لغيرهم وسبيله إلى ذلك دائماً الرمز عن طريق الحكمة بموت المهدي، فيقول:

كل نطاح من الدهر
له يوم نطوح
لست بالباقي ولو عمـ
ـرتُ، ما عمَّرَ نوح
فعلى نفسك نح، ان كـ
ـنت لا بد، تنوح

وكما أبكى المهدي الأب ابكى الرشيد الإبن حين طلب منه ان يعظه. روى الصولي ان محمد بن ابي العتاهية. قال: قال الرشيد لأبي: عظني. فقال له: اخافك. فقال له: انت آمن. فانشده:

لاتأمن الموتَ في طرف ولا نَفَسٍ
اذا تسترت بالابواب والحرسِ
واعلم بأن سهام الموت قاصدة
لكل مدرع منها ومترسِ
ترجو النجاة ولم نسلك طريقتها
ان السفينة لا تجري على اليَبَس

قال : فبكى الرشيد حتى بل كمه[1]

ولا ننس تلك الصورة الرائعة: ان السفينة لا تجري على اليبس. التي ابدعها شاعرنا للنجاة من النار حين صور النجاة سفينة. ولكي ينجو المخطيء عليه ان يبحر بسفينة نجاته على الماء لا على اليابسة طبعا.

ومع حبه للمأمون كان شاعرنا يرى ان الحقيقة احب اليه منه، وانها يجب ان تقال، ولكن في اطار مهذب. طلب منه المأمون يوماً ان ينشده احسن ما قاله في الموت. فانشده:

أنساك محياك المماتا
فطلبت في الدنيا الثباتا
أوَثقت بالدنيا وأنـ
ـت ترى جماعتها شتاتا
يا من رأى ابويه في
من قد رأى كانا فماتا

(١) الاغاني ٤/ ١٠٦

هـل فـيـهـا لـك عـبـرة
أم خـلـتَ ان لـك انـفـلاتـا!

سائر حكمه:

وطبيعي الا تقتصر حكمته في زهـدياتـه على الملوك والخلفـاء وعلى التـذكير بـالموت والتخفف من مغـريات الحيـاة، بـل نـرى لـه خـطرات تـأمليـة في الانسـان، والمجتمـع، ومـا يسـوده من قيم، وعـادات، ونـظم، يقف منهـا موقفـا ثابتـا يصوغـه في كلمات، او جـوامع كلم، لا نكاد نحس انها منظومة لولا قـافيتها، وايقـاع لفـظي لا تنبع مـوسيقـاه من مـوسيقى نفس الشـاعـر، بقـدر مـا تنبـع من مقـدرة فـائقـة في حسن رصف الكلمات ورصها بسهولة ويسر عرف بها. وكأنـه ذلك البنـاء الماهـر يجيد وضـع المداميـك بازاء بعضهـا، فـلا تحيـد قيد شعـرة، واذا بكل هـذه السهولـة تخلق خلقـا فنيا مستساغاً، ننسى معه نثريته وتقريريتـه، تحت تأثـير تلك الـروح الولهى التي قـدمت لنا هـذا الخلق السوي في شكـل رأي او حكمة، تحـدد موقف الشـاعـر وتبث بعض وجعه الروحي من اولئك الناس، وتلك القيم، كـما تحدد اطـار رفضه النهـائي لها ولهم، بعـد ان كـان

قبـل زهده، منتقـدا لها ولهم، او متكيفـا معها ومعهم؛ إرواءلنهمه الشبابي الملهوف.

حكمته الاجتماعية:

ونريد بهـا تلك الموعـظة الشعريـة الملمومـة التي لا تجعـل من قـائلهـا خـطيبـا، بـل حكيـما، يعظ بـرفق واختصار، ولا يطيل فيزعج.

اتصــوره بعضـا من سقــراط، يمشي في اســواق الكوفة وبغداد، منتقدا وواعظا وناثـر حكم، وأحكام، والـطلاب حـولهـا يسـاجلون او يسـجلون، او يعتبرون. . لم لا؟ والسوق رائجـة، والطلاب كثيـرون، والـطلب أكثر من العـرض، او هـو بعض من استـاذه الحسن البصري، يعظ وينصح وينذر والفرق بينهـما ان هـذا محاط بهـالـة ايمـان قـدسي ومهـابـة علوية، وابـو العتاهية محـروم منهما. .

ثم انـه خبير بـاحوال النـاس والمجتمـع ، يعـرف حاجات النفس الانسانية، كـما يعرف مـا انطوت عليـه من جشــع وطمــع وزيف وحب للسلطان. بشـكــل عام، ويعرف كذلك حـاجات هؤلاء العـامة المنكـويين

بكثير من الويلات والظلم الاجتماعي. فتراه يضرب، في حكمه، واحكامه، على الوتر الحساس فيهم.

امام حاجات النفس الانسانية يتحدث عن طبائعها التي لا تتغير: كالحرص والطمع وحب الشهرة، والاقبال على الحياة، والنفور من الموت، وحب الرئاسة والجاه والتمادي في الملذات.

وعن ناس عصره: يتحدث عن الظلم والغلاء، وتقلب الدهر والزمن، والناس رؤساء ومرؤوسين، كما يتحدث عن الصدق والعدالة، والقناعة، والتوبة، والعلم. والزهد بالدنيا، ببهرجها على الأخص، وبما لدى الآخرين من متاع زائل.. قاصدا من كل ذلك التكفير عن نفسه والتخفيف عن هؤلاء المساكين، حين يعبر عما في نفوسهم، ووجداناتهم، فاصاب بزهدياته الحكمية، او حكمه الزاهدة، غايتين، وحقق رغبتين. واحسب ان هذا فضيلة من فضائل زهده حيث اتخذه سبيلا الى التوجيه والتعليم.. ومهما يكن فان مثل هذا الزهد لا يعتبر سلبيا. وماذا ننتظر من شاعر تزهد، واعتزل، الا ان نراه بهذا الوجه، التعليمي العابس بعض الشيء، المتجهم امام هول ما ينذر به.. واذا ما انصرف عنه

المقبلون على الحياة، فلسوف يقبل عليه التائبون اليائسون، يدغدغ لهم آمالهم فيما وراء الحياة، بعد ان فقدوا أمل البقاء مع الحياة.. ويخفف عنهم اهوال المصير، قدر الامكان.وليس افضل من الشعر، وشعر الحكمة خاصة، سبيل خلاص، واداة اعتبار لمن كان في حاله التقبل والاقبال...

فلو كان هول الموت لاشيء بعده
لهان علينا الموت واحتقر الأمر
ولكنه حشر ونشر، وجنة
ونار، وما قد يستطيل به الخبر

وحين يحاور اهل القبور، والقبور نفسها، فما ذاك الا لحث المقبلين عليها للتزود لما بعدها بالتقوى والبر، والعمل الصالح، وتطهير النفس وتحصينها بالعفة والقناعة والصدق والوفاء والحب.. لأن معكوس ذلك، في نظره، يكثف وحشة القبر، ويثقل خطى الساعي الى عفوربه.. يقول في جامع المال:

يا جامع المال منذ كان، غدا
يأتي على ما جمعته الحرب
او ـ ولا تفرح بمال تقتنيه
فانك فيه معكوس المراد

ولكن ابا العتاهية، هنا، يعظ الناس، وينسى نفسه. . فقد تواترت الأخبار على انه كان من احرص الناس على المال الى درجة حرمان عبدٍ له كان يقوم بخدمته رفض يوما ان يعطيه رغيفاً واحداً أكثر من الرغيفين المقررين له يوميا، رغم الوساطات التي لجأ اليها هذا العبد المسكين، فاعتل ومات، لكننا في فصل سابق، بررنا له هذا الحرص من الناحيتين النفسية والظرفية. .

ومهما يكن، فان الوعاظ في كل زمان ومكان، شعراء كانوا ام خطباء ينسون انفسهم حين يعظون غيرهم الا قلة قليلة من اولئك الربانيين الملتزمين الكبار.

من هنا تخف، في نظرنا، قيمة مثل هذا الشعر، او تلك الخطب، من الناحية الاخلاقية على الأقل لعدم مصداقيته، وعدم انبثاقه عن قلب قائله ووجدانه، وحقيقة موقفه من الحياة والمجتمع. . ليصبح كلاما مجانيا عاريا. .

اما متى يرتفع شعر الزهد، فنيا، الى مراتب الشعر الحقيقي الخالد فمسألة تتعلق بالموهبة القادرة

على تجاوز الوعظ والتعليم الى مرحلة تحديد المواقف وتصوير النفس الزاهدة وقد ادركت حقائق الأشياء، وقبضت على سر الكون او كادت. . .

فمتى استطاع الشاعر ان يدخل معها رحاب المراثي الانسانية، والوقوف بذهول امام هول المصير، وسخرية امام عبثية الوجود وعدمية الحياة[1] وتفاهة

---

(١) ونقصد بالعدمية هنا عدم جدوى الحياة كمرحلة نجاهد فيها ونهرق الدماء والدموع من اجل تحقيق ما سمي بالسعادة فاذا بنا اخيرا، امام السراب.. والموت. اما العدمية الفلسفية Le Nihilisme فهي كما يعرفها نيتشه : انها اهم سمات الانحطاط الحضاري. فالعدمية الجذرية تعني باننا مقتنعون ان الوجود مزعزع والعدمية حالة مرضية وسيطة (فالتعميم الضخم والإستنتاج أنْ ليس ثمة معنى لأي شيء، هو ظاهرة مرضية) فإما أن تكون القوى المنتجة ليست قوية بما فيه الكفاية، واما ان الانحطاط ما زال يتردد ولم يجد بعد، وسائله المساعدة. ان العدمية ليست السبب بل هي منطق الانحطاط فقط. وبمقتضى تشخيص نيتشه الواضح، فان العدمية هي النتيجة، وهي التعبير عن الانحطاط... للتوسع انظر كتاب: ضرورة الفن ص ١٠٦ وما بعدها لارنست فيشر ترجمة الدكتور ميشال سليمان ـ المكتبة الاشتراكية ـ دار الحقيقة ـ بيروت (بدون تاريخ) اما الاصل الفرنسي فتاريخ صدوره ١٩٦٥ باريس.

العلائق بين البشر ومفاهيمهم.. متى استطاع ان يسكب كل ذلك منّ ذوب نفسه وخياله في بوتقة الحكمة الجامعة عبر تجربة عقلية وشعورية عميقة، او في اطار الملحمة والاسطورة.. قبض على ناصية الخلود.. ولو كان في صومعة.. فكيف إذا كان في سوق، بين الناس؟!.

والحقيقة ان ابا العتاهية لم يستطع ذلك التسامي بالرغم من انه كان موهوبا.. ومضى في وعظه، عادي الحكمة متشابه البناء النظمي في نمطية تلقائية عرفت به وعرف بها.

وهكذا اوشك ان يسقط في الخطابية الفوقية المزعجة، والتعليم الممل، ويخرج نهائيا من دائرة الشعر..

وظل سادرا في وعظه، لا يترك سانحة الا وينتهزها، ولا موضوعا الا ويقول فيه شيئا من الشعر، فالقناعة، مثلاً، وهي ام الفضائل عند الزاهدين، لم لا يدعو الناس اليها؟ وما داموا متخاذلين قاعدين عن طلب العلى، وما دام العصر قد افرز الناس فئتين لا وسط بينهما، فئة حاكمة مستبدة مستأثرة مستغلة.. وأخرى محكومة مستغَلة..

وما دام الثوار مغلوبين على أمرهم. . وما دامت الحياة ملك الفارس الأقوى. . فهيا ايها المسحوقون، تعالوا الى القناعة والرضا والتسليم. . تعالوا الي وافعلوا مثلي، انا من طحنته الحياة برحاها والقصور بجورها وعقوقها. . تعالوا تزهدوا واقنعوا من هذه الفانية بالكفاف فعما قليل نرحل جميعا. . الى حيث لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم. .

اما الخلفاء فيرحبون بمثل هذه المواعظ، ويبكون لها احيانا، ألم يكفهم ابو العتاهية شر الثوار، وخطر صحو الشعب؟! ويمضي أبو العتاهية قاذفا بهذه المخدرات لا يلوي على شيء، ولا فضيلة له كشاعر، الا انه صاغها احيانا صياغة الحكمة وضغطها في لمحات مختصرة بارعة الاداء وترك مفاعليها لمؤرخي الثورات والباحثين عن حقوق الانسان يلعنون امثاله من قتلة الطموح في الانسان، ومنومي الشعوب بمخدر لا يطاله القانون!!

تأمل قوله:

واذا ما الفقير قنعه الله
فسيان بؤسه والنعيم!

ان في الصبـر والقنـوع الـدهـر
وحـرص الحـريص، فقـر مقيم
انمـا النـاس كـالبهـائم في الـرزق
سـواء جـهـولهـم والـعـليـم
ليس حرص اللغني يجر له الرزق
ولا عـاجـزا يـعـد العـديـم..

أولا: ان الله لا يقنـع الفقير ليـرضى بفقره وبؤسه، يا ابا العتاهية.. وها أنت نفسك لم يقنعك الله لترضى ان تبقى حجاما او بائـع جرار في الكوفة.. بل دفعك طموحك الى ابعد من ذلك بكثير.. فهل كـان ذلك منك حزما وعزما، ولم يكن عجزا وتواكلا! أم ماذا؟!

ثانيا: الناس ليسوا كالبهائم، كما وصفتهم، في طلب الرزق، وسامحك الله على هذه الفرية!.. بل لعلك تقصد المتكالبين منهم على جمع المال، حرامه والحـلال، من جهـد الغير، وعلى حساب كرامتهم وصحتهم.. ثم متى كان « العديم » انسانا في عجزه عن طلب الرزق؟! لعله، في مقاييس الاسلام، والموازين الانسانية، اقرب الى البهيمة من المتكالـب عليه...

ثالثا: لعلك نسيت، في غمرة زهدك، وتشاؤمك، واحتقارك للدنيا واهلها، ما كان منك من حب لهم، وغرام بها.. لكن.. ما هكذا يكون الوعظ الا اذا كان من.. مانوي... على اي حال، يجدر بنا ألا نقيم حِكَمَ ابي العتاهية، ومواعظه الزهدية، على أساس الربط بينها وبين حقيقة موقفه وسلوكه. اذ سنجد تناقضا كبيرا، في هذا المجال،اما اذا إعتبرناها مجرد صناعة تفرغ لها الشاعر، حال تزهده، وراح ينظم قيم المجتمع وحقائق الحياة الثابتة، ليطلقها دروساً اعتبارية، وحكما سائرة امام ابناء هذا المجتمع الذين كانوا بانتظارها، يتلقفونها في تقبل روحي تام، عنيت بهم، طبعا، الطبقة المسحوقة اليائسة، وبعض الخلفاء، في بعض صحوهم.. الذين كانوا يحبون سماع الموعظة دون ان يعملوا بها، وإن ابكتهم احيانا..

فهي اذن لا تعبر تماما، عن مذهب شاعرنا ولا عن انطباعاته الخاصة، أكثر مما تعبر عن براعاته الفنية، في هذه الصناعة بعد طول تخصص وتفرغ.. (٤٠ عاما على الأقل).. واذا ما ظهر منه، اثناء عملية السبك، ماينم عن عقيدته ،ويكشف عن قناعته،

وينسجم مع مواقفه، فذلك، حتماً، عن غير قصد،ولا انفعال ولا معايشة. . إلا في ما كان منه اثناء مخاطبته الملوك والخلفاء والأمراء، وامام الموت. .

اخلاق الناس:

حين يقرر ابو العتاهية ان الناس مطبوعون على الكذب، ابيضه وأسوده، وعلى التناقض في الأقوال والأفعال، فانما يقرر بديهة من البديهيات السائدة في كل زمان ومكان، ولا يعمد الى فلسفة هذا الطبع او هذا الخلق، ان كان مطبوعاً أو مصنوعاً. . إلا ليبقى شاعراً لا فيلسوفا . . وشاعر التلقائية والتقريرية وحدها، لا شاعر التأمل واستشراف الحقائق البعيدة وراء حجب الواقع الملموس . . يقول:

ما من صديق وان تمت مودته
يوماً بابلغ في الحاجات من طبق
اذا تعمم بالمنديل منطلقا
لم يخش سوءة بواب، ولا غلق
لا تكذبن فان الناس مذ خلقوا
عن رغبة يعْظمون الناس، او فَرَقِ

اما الفعال ففوق النجم مطلعه
والقول يوجد مطروحا على الطرق

وتعجبني هذه الصورة، في البيت الرابع، للفعل الذي لا يتحقق، كأنه كوكب أبعد من النجم مطلعه، في حين ان القول، غير المقرون بالفعل، مطروح على الطرقات . . تماما كالمعاني عند الجاحظ . . وما محتوى الأبيات الثلاثة الأولى سوى موعظة مبتذلة لحقائق بديهية، يصوغها ، بلا توفيق، واعظ صبية مراهقين ، لا شاعر . .

وانظر معي هذين البيتين في شرور الناس هل ترى فيهما شعراً؟

في الناس من تسهلُ المطالب
احيانا عليه، وربما صعبتْ
وشرة في الناس ربما جمحت
وشهوة في النفس، ربما غلبتْ . .

اما انا فلا ارى فيهما شعرا ولا نظماً . . بل نثراً متهافتاً حول « ربما » المكرورة، لا اكثر ولا اقل . . يستطيع اي فقيه في مسجد القرية، ان يلوكه، ويعظه به . .

ولست ارى صـوابا قـول نيكلسـون [1] بـأن أبا العتاهية قد تفرد بالروح الشعبيـة حين قال: «انه ارانا لأول مـرة . . وربما للمـرة الأخيـرة أيضـاً في تـاريـخ الادب الكلاسيكي العربي انه في استطاعـة الشاعـر ان يستخدم اللـغة البسيـطة العـاديـة في دقـة ومهـارة واضحتين، وبشكل مطرد. . »،

يبـدو إنني اختلف ونيكلسـون جـذريـا، مـع احتـرامي لاستـاذيته في هـذا المجـال . . فهـو يعتبـر الذي « يستخدم اللغة البسيطة العادية » شـاعراً؛ وانـا اخـرجه نهائيـاً من دائـرة الشعـر، مـع قـائله .وقـد لا اسميه «ناظماً » اذا اسف اسلوبه وابتذل. .

فـالشعر، في نـظري، القـديم منـه والحـديث هـو عملية خلق وابـداع، وهي عملية شـاقة الى حـد كبير، كما يقول ڤاليري. فليس شاعراً كـل من «رزق» مـوهبة رص الكـلام او رصفه، وليس شـاعراً كـل من ارضى العـامة بقـوله المـوزون او غـير المـوزون، . . ثم ان

(١) تاريخ العرب الادبي ص ٢٨٨ نيكلسون

الشعـر ليس خـطابـا ولا تبشيـرا. انـه تعبـير حـار عن احاسيس الشاعر وانفعـالاته، عبـر تجربـة حلوة او مرة، وبلغة شعرية خاصة، لا يعرفها العامة ولا يتداولـونها، وان كـانت تبهرهم وتهـزهم .. هذا الشعـر هو الـذي يسمى شعراً، ويحتفظ بقيمته الفنيـة الكاملة، كـما رأينا عند الكثيرين من شعراء «التجارب» جـاهليـيـن كانوا ام مسلمـين. اما حـين يصبح «الشعـر» تعبيـراً «عقليـاً» مجردا يستند الى الجدل والحـوار، وايراد الادلـة والحجج، وباللغة الشعبية شبه الدارجـة .. فلا يمكن ان نعده شعراً مهـما تسامحنـا .. وعندمـا بررنـا تلقائيـة ابي العتاهية ووجـدنا مـوهبته قـادرة على الارتفـاع بهذه التلقـائيـة الى رحـاب. التجـربـة الشـعورية بعيـدا عن السطحية والابتذال، حمدناهما فيه، ولم نسمه شـاعراً إلا بحذر شديد ..

اما انه شاعر شعبي، من ناحية التعبير عن روح العصر، وما كان يسوده من شعور ديني عارم لدى الطبقات الشعبية المحرومة ضد الطبقة الحاكمة من جهة، وضد موجة الاستهتار والفسوق من جهة ثانية .. فهذه حقيقة واضحة تدل على ان ابا العتاهية كان ذا «روح شعبية» لم تفسدها حياة القصور، ولا

خففت من غلوائها، بل لعلها زادتها ضراما . فها هو بعد ان تزهد قد ظل ينتقد ويعارض، وينادي ويعظ، مستنكرا كثيرا من مظالم الحكام، وتحكم الناس بعضهم ببعض، حتى الغلاء، رفع صوته بمكافحته. غلاء اسعار السلع الاستهلاكية الشعبية، لا تلك المكدسة في عنابر القصور كالخمرة، والخز، والديباج، والأرز الفاخر، والأواني الذهبية وغيرها..

اسمعه يصف دوائر الزمان وتقلب الاحوال، وغلاء الأسعار، ويدعو الخليفة للتنبه وتلافي عواقب الامور؛ قال بعد ان وقف امام الموت وقفته الذاهلة المعهودة. ينصح الاحياء الاموات بالتزود بالتقوى والعمل الصالح:

مَـن مـبـلـغ عـنـي الإمـا
مَ نـصـائـحـاً مـتـوالـيـة (١)
اني ارى الأسـعـار
أسـعـار الـرعـيـة غـالـيـة

(١) يقصد بالطبع، الخليفة الذي هو إمام المسلمين ايضا لنوصح اسلامه..

والغلاء الى جانب البطالة وقلة الرزق يصبح أمرا لا يطاق:

وأرى المكاسب نزرةً
وارى الضرورة غاشيةَ
وارى غموم الدهر را
ئحةً، تمر، وغادية

وهذه منازل الشعب المسكين خاوية على عروشها، ليس فيها الا الارامل والتيامى. بعد ان فقدوا الازواج والآباء في ثورات.. ومغاز.. لم يكن لهم دخل فيها سوى انهم وقودها، وادواتها..

وارى اليتامى والأرا
ملَ في البيوت الخالية..
من بين راج لم يزل
يسمو اليك، وراجية..

يظنون ان الشكوى تدفع البلوى، يا لسذاجتهم!! يشكون الجوع القاتل الذي اضعفهم واوهن اصواتهم فهم لا يرفعونها اليك الا بجهد جهيد، وهزال أكيد: «تأمل صورة الصوت الضعيف - العالي! يشكون مجهدة باصوات ضعاف عالية..

انهم يرون فيك، ايها الخليفة، املهم الأخير، وملجأهم الوحيد، بل مبكى عيونهم الذي يذرفون عنده دموعهم:

مَــن يــرتجى لــلنــاس

غيرك ، للعيون الباكية؟!

ويمضي في تصويرالفاجعة اليومية التي يقع الشعب ضحيتها، تصويرا لايمكــن ان يصدر عن شاعر ارستقراطي كالشريف الرضي، مثلا، او ابن المعتز، او حتى ابي تمام.. تصويرا يعكس ظلال نفس ابي العتاهية التي اكتوت ـ يوما ـ بمرارة الفقر، وذل الحياة.. وها هي في تزهدها تصور حياة الشعب من خلال اصداء النفس:

مِــن مــصــبــيــات[1] جــوَّع

تمــسي وتــصــبــح طــاويــة

مَــن يــرتجــي لــدفــاع كــر

بِ مــلمــة هــي مــاهــيــه..

ويترك لخيال الخليفة ان يتصور مدى حجم

---

(١) مصبيات جمع مصبية وهي الحسناء

الكارثة حين لم يحدد ابعادها: «هي ماهيه!» وفي هذا ابداع في التصوير، واثارة للحس والخيال معا.. ها هو يعطي بعض الصور ـ النماذج لمأساة لا حدود لها:

من للبطون الجائعات، وللجسوم العارية
مَن لارتياع المسلمين اذا سمعنا الواعية

ويا ابن خير الناس يا خير خلف لخير سلف.. لا فقدت: ان الموت يحصد الناس، والعافية تزول عن كرامهم، لا عدمت العافية! تذكر اصلك الطيب.. وكن على غراره.. فرعا طيبا اصيلا.. وكأن الشاعر يلمز بهذا الفرع ويغمز من قناته حين يذكره بأصله، ويستنجده..

وها انا القي بين يديك امثلة حية عما يكابده الشعب، وكفى بها غيضا من فيض، وصورة مصغرة عن المأساة:

القيت اخبارا اليك م
ـن الرعية شافية

القيتها بين يدي عقلك ووجدانك للعمل والذكرى، لعل الذكرى تنفع المؤمنين... لقد حملت هذه المقطوعة كثيرا من نوازع الشاعر

واحاسيسه والكثير من ابداع الموهبة وتجليها، خاصة عندما تجول هذه الموهبة في ساحات الشعب، واجوائه، مستلهمة، مصورة، مبدعة.. بدل ان تبقى هناك.. في القصر تحرق البخور على اقدام الخلفاء - الاوثان، وتبادلهم، في مدائحها المزورة، كذبا بكذب! ورياء برياء! هناك .. حيث يموت الشعر، وتهدر الكرامة.. ما عدا حفنة قليلة من الشعراء الكبار الذين استطاعوا ان يرتفعوا بالخليفة - الشخص، الى الخليفة - الانسان، او الخليفة - البطل، وانتقلوا بمدائحهم، من الخاص الى العام، عبر التصوير المبدع والتصور البعيد، وحلقوا في اجواء الوهم والاسطورة.. كما فعل ابو تمام في قصيدة فتح عمورية، وابو الطيب في «الحدث الحمراء» والبحتري، الى حد ما، في تصوير معارك المتوكل البحرية[1]

ومهما يكن فقد كان ابو العتاهية يشعر شعورا قويا بتلك الروح الشعبية التي فيه، وتلك الموهبة الشعرية التي

---

(١) انظر كتابينا: البحتري بين البركة والايوان. والمتنبي: امة في رجل الصادرين عن دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨١ - ١٩٨٢

اسعفته للتعبير عن هذه الروح في كثير من زهدياته وحكمه، ونراه يبرر اسلوبه الشعبي البسيط التركيب الخالي من الصناعة والفن بدعوى حماية هذه الروح من تعقيد يغطيها بستار كثيف من الصناعة اللفظية فلا يعود الشعب يتأثر بها او يفهمها.

قال سلم الخاسر(الشاعر الفارسي الهوى)[1]: أنشدني ابو العتاهية هذه الأبيات:

نغص الموت كل لذة عيش
يا لقومي للموت ما اوحاه

عجبا! انه اذا مات ميت
صد عنه حبيبه وجفاه

حيثما وجه امرؤ ليفوت
الموت، فالموت واقف بحذاه

---

(١) هو سلم بن عمرو بن حماد كان شاعرا معاصرا لابي العتاهية. ولقب بالخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى به طنبورا.. وكان يخفي شعوبية فارسية، ويجهر بالزندقة.. ولا غرو فهو من تلامذة بشار.. يقلده في كل شيء..

انما الشيب لابن آدم ناع
قام في عارضيه، ثم نعاه
من تمنى المنى فاغرق فيها
مات من قبل ان ينال مناه

ثم قال لي: كيف رأيتها؟ فقلت له: لقد جودتها، لو لم تكن الفاظها سوقية.. فقال: والله ما يرغبني فيها الا الذي زهدك فيها...

فهو، كما ترى، يصرعلى استعمال الالفاظ السوقية (كما يراها سَلْم) ويتمسك بطريقته الشعرية مهما كانت شعبية الاسلوب حتى في نظر معاصريه.. على ان سلماً هذا لم يوفق ـ هنا ـ حين نعت الفاظ هذه الأبيات بانها سوقية.. فاين السوقية فيها واين الابتذال؟! اني لا ارى شيئا منها.. لعله يقصد ليونة القافية وسلامة التعبير من التعقيد، وهذا لا يُعد ابتذالا او سوقية على اي حال. ناهيك ببعض التشخيص المستحب الذي وفق اليه شاعرنا في البيتين الثالث والرابع: تشخيص الموت برجل صامت يقف بازاء الانسان كالشبح الرهيب غير المرئي. وبتصوير الشيب نذيرا ينعي على الانسان حياته. واقفا كالقدر، على

عوارضنا ليخطب فينا: أنّ هيا الى الرحيل فقد ازفت الساعة ودنت لحظة الوداع! . .

واذا كان من فضيلة اخرى لتلك الروح الشعبية والاسلوبية السهلة فهي كامنة في انها جاءت استمرارا لتيار التجـديد، في الشكل والروح والمضمون، الذي بدأه بشار، في الشعر ، وابن المقفع في النثر ، وحمل لواءه ابو نواس، ودعا اليه، وغالى فيه ابو العتاهية.

فشاعرنا اذن، ليس بدعا في ذلك، بل هو استمرار لظاهرة التجديد الحضاري من جهة وتحد للرجعية العربية، فـي الفكر والشعر واللغة من جهة اخرى. اما فرادة ابي العتاهية، في هذا المجال، فهي في أكثاره الشديد لهذا النوع من الشعر والتمادي فيه، من حيث البساطة في التعبير واستعمال الألفاظ الشعبية، والبعد عن التعقيد، الى حد التعريض به ومهاجمته. . ثم انصرافه، في الزهد، الى ذلك اللون الشرقي من شعر الاعتبار وايراد الحكمة الزاجرة الزاخرة بمعاني الترهيب والنصح والتحذير ، انصرافا كليا، لا يحيد عن رغبة الشاعر في ان يكون حكيم العرب والمسلمين، على غـرار السلف الصالح ، وان يذكـره الناس بهذا اللون دون سواه. .

ولا ننسى انه، بهذا، قد عاد بالشعر العربي، الى ينابيعه المشرقية الاولى، الى ذلك الشعر الاعتباري الزاخر بحكمة الشرق وخشوع الحكيم الشرقي امام الله والقدر والموت، واستخلاص العبرة من ذلك الموقف الخاشع، ثم تحويل كل ذلك الى صلوات وترنيمات وابتهالات شاعرية الروح شاعرية الاسلوب.. امتلأت بها ملاحمه ودواوينه واساطيره، وكتبه السماوية، والارضية، وترنمت به حناجر النساك والصوفية في خلواتهم وحلقاتهم وصوامعهم..[1]

كما عصمه زهده، وشعره الزهدي، عن اذى التردي في حمأة الهجاء والقذف والسباب، ومن البقاء في مستنقع القصور حيث المديح الاجوف، المليء بالكذب والرياء والبعيد عن روح الشاعر وموهبته واحاسيسه الخاصة، ومن محدودية رثاء الاشخاص الى رثاء الانسانية كلها، فابو العتاهية حين رثى اشخاصا بعينهم، رثى من خلالهم الكون والحياة والانسان جميعا، ومهد بذلك الى قيام المدرسة

(١) انظر في هذا الكتاب: الزهد الشرقي القديم فصل خاص ص٧٠

العلائية، وبرهن ، اخيرا، على ان الشعر العربي قادر على ان يكون وعاء للفلسفة والحكمة، والتأمل، فلا يظل متقصـراً على الموضوعات الشخصية العابرة، او البراعات اللفظية في تصوير النزوات، والتجريح الاخلاقي في الهجاء، وقذف المحصنات وصناعة الاحاجي والطلاسم..

سخريته الرقيقة: او رقته الساخرة

اتهم ابو العتاهية بأنه كان في بادىء امره مخنثا، يحمل زاملة المخنثين مثل ابي نواس ووالبة وسائر الخلعاء. كما اتهم بالزندقة،وطعن في اصله ودينه ومذهبه الى ما هنالك من تهم ومغامز لو صبت على شاعر آخر كالاخطل او جرير مثلا، لشنها حربا شعواء على متهميه لا تبقي من اعراضهم وشرفهم شيئاً.. لكن إبا العتاهية قابل كل ذلك بابتسامةساخرة، وبصمت الواثق من نفسه وبأنه، بالسعي والعمل، لا بالكلام الفارغ، قادر على رد كل هذه التهم خاصة وان اكثرها كان صحيحا.. وتلقين المتهمين دروساً في الترفع والكبرياء.. وان الانسان بعمله وموهبته لا بأصله وفصله..

عابوا عليه ان اباه كان حجاماً وبائع جرار، فظل يساعد اباه واخاه في بيع الجرار والحجامة غير آبه بالتافهين الفارغين، حتى بعد شهرته وحين عقد النية على الزهد عاد الى صنعته الاولى، والجلوس في شوارع بغداد للنصح والارشاد، والحجامة.. اتهموه في حبه لعتبة وان هذا الحب من طرف واحد وطلبا للشهرة والوصول الى بلاط المهدي.. لكنه وصل الى المهدي نفسه بالرغم من فشله في حب جارية المهدي وكانت موهبته كشاعر هي التي اوصلته وثقته بنفسه، ليس غير..

ومن المؤسف ان يتمادى بعض المعاصرين من الباحثين السلفيين فيقول: «ان قصة غرام ابي العتاهية بمعشوقته عتبة ليست الا مظهرا من مظاهر تخلطه واضطرابه، وهي تدل على غرامه بالعبث، وعلى قدرته وبراعته في تمثيل دور المحب العاشق.. الخ» [1]

هذا التمادي في الاستنتاج ليس موضوعيا، ولا

---

(١) ابو العتاهية: حياته وشعره ص ١١١ د. محمد محمود الدش دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٦٨

قرينة عليه الا اقوال بعض المؤرخين القدامى وهي موضع شك.

ولنستمع الى ابي العتاهية نفسه يحدثنا عن قصة غرامه بعتبة لنجد اي روح مرحة كانت بين جنبيه واي سخرية ناعمة يبثها في كلامه رغم جدية الموضوع..

قال: قدمنا من الكوفة ثلاثة فتيان شبابا وادباء، وليس لنا ببغداد من نقصده، فنزلنا بالقرب من الجسر. فكنا نبكر فنجلس في المسجد الذي بباب الجسر، في كل غداة. فمرت بنا يوما امرأة راكبة ومعها خدم سودان. فقلنا: من هذه؟ قالوا: خالصة. فقال احدنا: قد عشقت خالصة[1] وعمل فيها شعرا،

---

(١) لعله ابو نواس فقد عرف من اخباره انه كان يتغزل بجارية اسمها خالصة. وله معها حكاية. قيل: وكانت تكره فيه تخنثه وفسقه. كتب مرة بيتا من الشعر على باب سيدها:

لقد ضاع شعري على بابكم
كما ضاع عقد على خالصة

وداهمه سيدها وهو يكتب البيت فسارع الى محو طرف العين في صدر البيت وعجزه فاصبح هكذا:

لقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء عقد على خالصة

فأعناه عليه. ثم لم تلبث ان مرت اخرى راكبة ، ومعها خدم بيضان. فقلنا: من هذه؟ فقالوا عتبة. فقلت : قد عشقت عتبة. فلم نزل كذلك في كل يوم، الى ان التأمت لنا اشعار كثيرة، فدفع صاحبي بشعره الى خالصة، ودفعت انا بشعري الى عتبة. والححنا الحاحا شديدا. فمرة تقبل اشعارنا، ومرة نطرد، الى ان أجدوا في طردنا.

فجلست عتبة يوما في اصحاب الجوهر، ومضيت فلبست ثياب راهب. . ودفعت ثيابي الى انسان معي، وسألت عن رجل كبير من اهل السوق، فدللت على شيخ صائغ، فجئت اليه. فقلت: اني قد رغبت في الاسلام على يدي هذه المرأة فقام معي وجمع جماعة من أهل السوق. وجاءها فقال: ان الله قد ساق اليك أجرا، هذا راهب قد رغب في الاسلام على يديك. فقالت: هاتوه فدنوت منها. فقلت: اشهد ان لا اله الا الله، وان محمداً عبده ورسوله، وقطعت الزنار، ودنوت فقبلت يدها، فلما فعلت ذلك رفعت البرنس فعرفتني. فقالت: نحـوه. لعنه الله. فقالوا: لا تلعنيه، فقد اسلم! فقالت: انما فعل ذلك

لقذره، فعرضوا علي كسوة. فقلت: ليست لي حاجة الى هذه. وانما اردت ان أشرف بولائها. فالحمد الله الـذي منّ عـلي بحضـوركم. وجلست. فجعلوا يعلمونني الحمد، وصليت معهم العصر. وانا في ذلك بين يديها انظر اليها، لا تقدر لي على حيلة، فلما انصرفت لقيت خالصة، فشكت اليها، فقالت: ليس يخلو هذان من ان يكونا عاشقين أو مستأكلين. فصح عزمهما على امتحاننا بمالٍ على ان ندع التعرض لهما، فان قبلنا المال فنحن مستأكلان. وان لم نقبله فنحن عاشقان. فلما كان الغد مرت خالصة، فعرضَ لها صاحبها، فقال له الخـدم . اتبعنا. فاتبعهم. ثم لم نلبث ان مرت عتبة، فقال لي الخدم: اتبعنـا، فاتبعتهم. فمضت بنا الى منزل خليط لها بزاز. فلما جلست دعت بي، فقالت لي: يا هذا. انك شاب، وارى لك ادبا، وانا حرمة خليفة. وقد تأنتك. فان كففت، وإلا انهيت امرك الى امير المؤمنين ثم لم آمن عليك، قلت: فافعلي، بأبي انت وامي. فانك ان سفكت دمي ارحتني. فأسألك بالله إلا فعلت ذلك، اذ لم يكن لي فيك نصيب. فأمـا الحبس والحياة ولا

اراك، فانت في حرج من ذاك، فقالت: لاتعجل يا هذا، وأبق على نفسك، وخذ هذه الخمسمائة دينار، واخرج عن هذه البلدة. فلما سمعت ذكـر المال، وليت هاربا، فقالت: ردوه، فلم تزل تردني فقلت: جعلت فـداك. ما اصنع بعرض من الدنيا وانا لا اراك. وانك لتبطئيـن يوما واحدا عن الركوب فتضيق بي الارض بما رحبت، وهي تأبى إلا ذكر ألمال، حتى جعلت الي ألف دينار، فأبيت، وجاذبتها مجاذبةشديدة، وقلت: لو اعطيتني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة، وانا لا اراك، بعد ان اجد السبيل الى رؤيتك. . وخرجت فجئت الغرفة التي كنا ننزلها، فاذا صاحبي مؤرم الاذنين، وقد امتحن بمثل محنتي، فلما مد يده صفعوه، وحلفت خالصة لئن رأته بعد ذلك لتودعنه السجن. فاستشارني في المقام فقلت له : اخرج واياك ان تقدر عليك. .ثم التقتا فاخبرت كل واحدة صاحبتها بالخبر، واحمدتني عتبة، وصح عندها اني محب محق. . فلما كان بعد ايام دعتني عتبة، فقالت: بحياتي عليك، ان كنت تعزني، إلا اخذت ما يعطيك الخادم، فاصلحت به من شأنك، . فقد غمني سوء حالك. فامتنعت فقالت: ليس هذا ما

تظن، ولكني لا احب ان اراك في هذا الزي. فقلت: لو امكنني ان تريني في زي المهدي لفعلت ذلك.. فاقسمت عليّ، فاخذت الصرة، فاذا فيها ثلاثمائة دينار.. فاكتسيت كسوه حسنة، واشتريت حمارا..[1].

ونحن لم نورد هذه القصة لنشير الى صدق ابي العتاهية في حبه لعتبة، او كذبه، ولا لإظهار سوء حاله، واستهتاره حين قدم بغداد، وانما لنؤكد روحه المرحة التي كانت تسيل عبر شعره، قبل تزهده، كما سالت عبر هذه القصة، وذلك الاسلوب الدمث الرقراق الذي تنسج خيوطه الشفافة شاعرية متألقة تتخلل الشعر، كما تتخلل النثر، فهو شاعر في نثره كما هو ناثر في شعره، بصرف النظر عن مستوى هذا الشعر وقيمته، فقد افضنا، في ذلك، من قبل ولولا الموقف الجدي الذي كان يتطلبه الزهد منه، لبقي ابو العتاهية مرحا، ساخرا، حتى بعد تزهده، ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان سخريته الضاحكة، قبل الزهد، قد انقلبت، هي نفسها، سخرية مرة عابسة، لأن الروح التي أرته الدنيا ضاحكة مقبلة، ايام

(١) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٤

الشباب، هي الروح ذاتها التي ارته هذه الدنيا عابسة غدارة خؤونة.. بعد المعايشة والخبرة، والتأمل. الملهاة، اذن، انقلبت مأساة عنده، وبتعبير ادق: لقد استخرج ابو العتاهية في شعره، الزهدي، المأساة من صميم الملهاة، فبكى وابكى.. واتعظ ووعظ، ولم يكن تزهده عبثاً كله.. ولا حكمته الزاهدة نتاج فكر. واقتباس كلها.. بل نتاج وجدان محترق وكيان منسحق، في كثير من الأحيان..

ونختتم هذه الدراسة الوجيزة حول هذه الشخصية الفريدة المميزة بشكلها وسمتها وسلوكها، وشاعريتها، وطريقة نظمها، وحبها وكرهها، ونقدها، ورفضها، بحيث برهنا، قدر الجهد، انها شخصية مغايرة فذة، أقامت مفهوما خاصا للشعر، ونظاما خاصا للتعامل مع الناس، وموقفا مميزا من الحياة والأحياء، والله، والقدر، والموت، تألق في نشيج ابتهالي خاشع، ونشيد وجداني منيب، عاد بالشعر العربي الى روحانيته الشرقية القديمة، ونأى به عن مستنقع العبث والعفن.. والانحراف..

كما دفعنا عن الشاعر فيها، كثيرا من التهم التي

كالها له، جزافا، دارسون قدامى ومحدثون، حين نظروا اليه، والى نتاجه، من زاوية ضيقة واحدة.. فغابت عنهم مزاياه الذاتية والفنية، وما أكثرها، عند التحليل المنصف المجرد.

فكان بعيدا عنهم، بقدر بعدهم عنه..»

وكان قريبا منا، موصولا بنا، روحا واصالة، بقدر ما يتصل الفن بالفن، وماء السماء بالينبوع..

نماذج مختارة:

أ ـ في الغزل:

قال يتغزل بعتبة:

وإني لمعذورٌ على فرط حبها
لأن لها وجهاً يَدلُّ على عُذري
اذا ما بدت والبدر ليلة تمه
رأيت لها فضلا مبينا على البدر
وتهتز من تحت الثياب كأنها
قضيب من الريحان في ورق خضر

وتبسم عن ثغر نقي كأنه
من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر

يخبرني عنه السواك بطيبه
ولست به، لولا السواك، بذي خبر

أبى الله إلا ان أموت صبابةً
بساحرة العينين طيبة النشرِ

الا انه غزل عادي، ليس فيه من مميزات عتبةشيء. نستطيع ان ننسب هذا الغزل الى أي شاعر عذري آخر.. خاصة لجميل بن معمر فإن فيه نفسه وروحه واسلوبه..

وفي ما يلي غزلية في عتبة اقرب الى روح أبي العتاهية واسلوبه:

يا لهف نفسي على التي اجتنبت
بأي جرم ترونها عتبتْ

تبارك الله، بئس ما جنت
بي في هواها، وبئس ما ارتكبت

أتيتها زائراً فما انحرفت
علي إذ جئتها، وما احتسبت
كم من ديون والله يعلمها
لنا عليها، ولم تقض إذ وجبت
ما وهبت لي من فضلها عِدةً
إلا استردت جميعَ مَا وهبت
فأي خير واي منفعة
لذاتِ دَل تريق ما حَلبت
الله بيني، وبين ظالمتي
طلبت منها وصالها، فأبت
ماذا عليها لو انها بعثت
منها رسولا إلي، او كتبت

ويرتفع في غزله، احيانا، الى ضغط المعاناة في جوامع كلم وحكمة وتحليل نفسي :

ياعتب هجرك مورث الادواءِ
والهجر ليس لودنا بجزاء
يا صاحبيَّ لقد لقيت من الهوى
جهداً، وكلُّ مذلةٍ وعناءِ
علق الفؤاد بحبها من شقوتي
والحب داعية لكل بلاءِ

اني لارجـوهـا واحــذرهـا، فقــد
أصبحـت بــين مخــافــة ورجــاءِ
بخلت عــلي بـودهــا وصفــائهــا
ومنحـتهــا ودي ومحض صـفــائي
فتخــالـف الأهــواء فيــما بيننــا
والمــوت عنـد تخــالف الأهــواءِ.

ويعطينا صـورة للمتيم الولهـان، ولا اصدق، مأخوذة من حاله هو ومعاناته:

يقول أناس: لو نعت لنا الهـوى
ووالله مـا ادري لهم كيف انعتُ
سقـام على جسمي كثـير مـوسـع
ونـوم عـلى عيني، قليــل مفَـوَّتُ
اذا اشتـد ما بي كان أفضل حيلتي
له، وضعُ كفي فـوق خدي، واسكت...

ولا ننسى الرقة والليونة اللتين تسريان في عروق الصورة وظلالها، كما سرتا في عروق الشاعر المتيم وروحه. مما جعل غزله يشيع ويسير، خاصة في اوساط النساء. قال ابن قتيبة: وغزله ضعيف(أي رقيق) مشاكل لطبائع النساء، ومـا يستخففنه من

الشعر، وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة في الغزل [1] ويوافقه في هذا الرأي ابن المعتز حيث يقول: «وغزله لين جدا مشاكل لكلام النساء موافق لطباعهن.. وله في قلوبهن موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته»

وفي الاغاني: « ان جواري المهدي كن يشتهين ان يسمعن شعر ربيعة الرقي. قال: وكان فيه لين، وكذلك كان ابو العتاهية »[2]. وقد رأينا كم كان الخلفاء معجبين بغزل ابي العتاهيةالعف الرقيق، لا سيما الرشيد الذي كان يستدعي شاعرنا لسماع غزله، حتى انه كان يأمر مؤدبي اولاده الا يسمعوهم سوى غزل ابي العتاهية. ومن هنا ثار الرشيد ثورته على الشاعر حين قرر الامتناع عن قول الغزل ونوى التزهد.

ويذكر ابن الأثير قصة أبيات ابي العتاهية في مديح المهدي التي اولها:

---

(١) الشعر والشعراء ص ٤٩٧

(٢) اغاني ساسي ١٥/ ٣٧

الا مـا لسيـدتي مـا لـهـا
تـدل، فـاحمـلُ ادلالهـا

والتي يقول فيها:

اتـتـه الخـلافـة مـنـقـادة
الـيـه تجـرجـر اذيـالهـا
فـلم تـك تـصـلح الا لـه
ولم يـك يـصـلح إلا لهـا
ولـو رامـهـا احـدٌ غـيـره
لـزلـزلـت الأرض زلـزالهـا
ولـو لم تـطعـه بنـات القلوب
لمـا قـبـل الله اعـمـالهـا

وقـول بشـار حـين سمـاعهـا: «انـظروا الى امير المؤمنين هل طار عن أعواده؟». ويعلق ابن الأثير على هذا فيقول: «ولعمري ان الأمر كما قال بشار، وخير القول ما اسكر السامع حتى ينقله عن حالته.. الخ»[1]

(١) المثل السائر ط الحلبي ١/ ١٧٦

ونحن نقول: ان اللهجة الخطابية الموفقة، التي تتناهى الينا أصداؤها حين نتخيل ابا العتاهية يلقي قصيدته واسلوبه السهل الممتنع الـذي صب فيه معانيه، والأروع من كل هذا تلك الصورة الحية المتحركة التي صور بها الخلافة فجعلها حسناء ذلولاً تمشي نحو ساحرها (الخليفة) مأخوذة بعظمته منقادة الى جلاله، تجرجر اذيالها ودلالها نحوه، لا تملك من امرها، حياله، شيئا..

ثم تلك المقدرة في تصوير اتحاد الأشياء، وتطابق الصور والمعاني، عبر سياق فني مضغوط، وكأن الكلمات في حقل ممغنط، تفر منها اليها.. تتعالى، ثم تهبط، ولا مناص..

ب ـ في الخمرة:

من ذكريات لهوه ولذته، قال يصف مجالس الشراب في الكوفة متلهفا متحسرا، مبدعا في الوصف، في معرض مدحه المهدي:

لهفي عـلى الـزمـن القـصـير
بـين الخـورنـق والسـديـر

اذ نحن في غرف الجنا
نِ، نعوم في بحر السرورِ
في فتية ملكوا عنا
نَ، الدهر، امثال الصقورِ
ما منهم الا الجسو
رُ على الهوى غير الحصورِ
يتعاورون مدامة
صهباء من حَلَبِ العصيرِ
عذراءَ رباها شعا
عُ الشمس في حر الهجيرِ
لم تُدْنَ مِن نارٍ ولم
يَغْلق بها وَضر القدورِ
ومقرطق يمشي اما
مَ القوم كالرشأ الغريرِ
بزجاجة تستخرج ال
سر الدفين من الضميرِ
زهراء مثل الكوكب الد
ري في كف المديرِ
ومخصَّراتٍ زرننا
بعد الهدو من الخدورِ

ريــــًا روادفـــهـــن يـــل

بسن الخــواتـم في الخـصـــورِ

غــر الــوجــوه محــجــبــا

تٌ قــاصـرات الــطرف حـورِ

مــتـنــعــمــات في الــنــعــيـ

مِ، مـضـمـخـات بـالـعـبـيـرِ

يـرفـلـن في حــلل المـحـا

سنِ، .والمجـاسـد، والحـريـرِ[1]

مــا إن يَــرَيْــنَ الــشــمس

،إلا الفـرط، من خلل الشعورِ

نهج نواسي، لا شك فيه. ولكن ابا نواس يفوقه دقة وشمولا في وصف مفاعيل الخمرة، والحوار مع الساقي والساقية والنديم، ويمزج وصف الخمرة بوصف الطبيعة. فالكل عند النواسي مخموراو مشارك مأمور، والكل مأخوذ بالجو. حتى الجو. .

---

(١) مجاسد ج مجسد وهو القميص الذي يلي. البدن. وهو قميص النوم عندنا.

ج ـ في الزهد:

امام الموت:

الموت لا والدا يبقي ولا ولدا
ولا صغيرا ولا شيخا، ولا أحدا
للموت فينا سهام غير مخطئة
من فاته اليوم سهمٌ، لم يفته غدا
ما ضر مَن عرف الدنيا وغرَّتها
ألاَّ ينافسِ فيها اهلها ابدا

حبذا، هنا، لو استرسل في التأمل، عبر الموت، ولم يتفلسف، مستنتجا: أن`على الانسان الذي خبر الحياة: الا ينافس فيها أهلها ابدا.. واذا كان يعني بالمنافسة: التكالب والاستئثار فلا بأس.. ولكن المنافسة غير التكالب..

وفيما يلي ابيات يصف فيها زوال العمر، وقد وفق في تصوير الموت وتصوير نفسه توفيقا فنيا ملحوظا. قال:

أُضِيع من العمر ما في يدي
واطلب ما ليس لي بيدِ

أرى الأمس قد فاتني رده
ولستُ على ثقة من غدِ
واني لأجري الى غايةٍ
قد استقبل الموتُ لي مولدي
وما زلت في طبقات الردى
اصعَّد في مصْعَدٍ مَصْعَدِ
فاوشك عما قليل أكون
من الموت في البرزخ الأبعدِ

تحليل رائع لنفسية الانسان، عبر انسانيته، يضيع ما بيده، ويطلب من غيره، المستحيل والانسان حائر بين عجزه عن رد ما فات، وبين عجزه عن معرفة ما هو آت.. والموت قابض على البدايات والنهايات، وما بينها من غايات..

اما ما بعد الموت.. فيا ويلي مما بعد الموت!! طبقات من الظلمات فوقها طبقات!! انا فيها «في البرزخ الأبعد».. حقا لقد بلغ ابو العتاهية منتهى الروعة في تعبيره هذا، لقد عبر «البرزخ الأقرب»، في السهولة، الى البرزخ الأبعد، في الجودة وتألق التعبير.. وكان شاعرا..

وله قصيدة مثيرة في وصف زوال الدنيا واهوال الموت خرج فيها عن الرتابة في الوعظ الى الخطابة

والاثارة، فاكثر من أدواة الاستفهام والتعجب، وضرب الأمثلة الحية من تاريخ الشرق، بقصد الاقناع والتأثير والاستقطاب، في سياق متسام من جزالة اللفظ وفخامة التعبير، ولهجة الوعيد والتهديد، والتكرار بقصد الاقناع والتأكيد:

المنايا تجوس كلُّ البلاد
والمنايا تبيد كل العبادِ
لتنالن من قرون اراها
مثلما نلن من ثمود وعادِ
هن افنين من مضى من نزار
هن افنين من مضى من اياد
هل تذكرت من خلا من بني الاصفر
اهل القباب والأطوادِ
هل تذكرت من خلا من بني سا
سان ارباب فارس والسوادِ
اين داود، اين، اين سليما
نُ المنيع الأعراض والاجنادِ
راكب الريح، .قاهر الجن والإنس
بسلطانه، مذل الاعادي

اين نمرود وابنه، اين قارو
نُ وهامان، اين ذو الاوتادِ
ان في ذكرهم لنا لاعتبارا
ودليلا على سبيل الرشادِ
وردوا كلهم حياض المنايا
ثم لم يصدروا عن الإيراد
ايها المزمع الرحيلَ عن الدنيا
تزودْ لذاك من خير زادِ
لتنالنك الليالي وشيكا
بالمنايا. فكن على استعدادِ
اتناسيت. ام نسيت المنايا
انسيت الفراق للاولادِ
انسيت القبور إذ انت فيها
بين ذل، ووحشة، وانفرادِ
أيُّ يوم يومُ السباق وإذ أنت
تُنادي، فما تجيب المنادي
أي يوم يوم الفراق واذ انت
من النزع في اشد الجهاد
اي يوم يوم الفراق وإذ
نفسك ترقى عن الحشا والفؤاد

أي يـوم يـوم الـصراخ واذ

يلطمن حـر الـوجـوه والآسـاد

بـاكيـاتٍ عليـك ينـدبن شجـوا

خـافـقـات الـقـلوب والأكـبـادِ

يـتجـاوبـن بـالـرنـين ويـذرفن

دمـوعـاً تـفـيض فـيض المـزادِ

أي يـوم، نسيت يـوم التـلاقي

أي يـوم نـسـيـت يـوم المعـادِ

اي يـوم يـومُ الـوقـوف إلى الله

ويـوم الحـسـاب والاشـهـادِ

أي يـوم يـوم الممـر عـلى النـا

رِ واهـوالهـا الـعـنظام الـشِـدادِ

أي يوم يوم الخـلاص مـن الـنـا

رِ، وهـولِ الـعـذاب والأصفـادِ

كم وكم في القبور من اهل مُلْكٍ

كم وكم في الـقبـور مـن قُـوادِ

كم وكم في القبور من اهل دنيا

كم وكم في القبـور مـن زهـادِ

لو بذلت النصح الصحيح لنفسي

همت اخرى الزمـان في كل وادِ

بؤس لي بؤسَ ميتـاً يـوم ابكي
بـين اهـلي وحـاضـر الـعُـوادِ
كيف ألهـو، وكيف أسلو وأنسى
م، الموت، والموت رائح ثم غادِ
ايهـا الـواصـلي سترفض وصـلِي
عنك لو قد أُذِقتَ طعمَ افتقاديَ
يا طويل الرقاد، لو كنت تـدري
كنتَ مَيْتَ الرقادِ حَيَّ السهـادِ..

لِـمَ كل هذا الوقوف امام الموت والميتين؟ ماذا في نفس الشاعر من نوازع؟ وهل انصرافه وتفرغه للزهد كان، وحده، ما جعله يحيا ويحيي هاجس الموت في نفسه وفي الآخرين؟ اذ ماذا امام الزاهد او الناسك ليعظ به ويزجر، سوى الموت؟ام ان هناك اسبابا أخرى؟

لقد ماتت نفس الشاعر وخبا وجدانه حين انطفأ فيه دافعان من اقوى دوافع حب الحياة ونوازع حب البقاء. هما: الحبيبة الهاجرة، والشباب المولي. وكم كانت ردة الفعل لدى العاشق المهزوم قوية، وقوية جدا.. فلقد كان عشقه مركبا وكثيفا، بل مثلث الزوايا والاضلاع: الحياة/ وعتبة/ والأنا/وحين أفـرغ

وجدانه ووجوده من الحياة وعتبة. وبالأصح: حين خبا قلبه وكبا، استفاق عقله ونما على حساب قلبه. فاذا بالحياة لا تساوي عنده قلامة ظفر، والاحياء، شروى نقير.. رغم ما كان يبدو عليه، بين الحين والآخر من مظاهر الحرص وحب المال ومعاشرة الناس.. حتى بعد تزهده واثناء هرمه.. لعلها فقط استمرارية العادة المتأصلة، لا اكثر...

اما وقد تحرر العقل من تأثيرات القلب فقد انطلق به الشاعر نحو الحياة والأحياء مطلا عليهم من فوق،ساخرا من تكالبهم على الحياة وما فيها، ناسين ما ينتظرهم بعدها من فواجع وآلام ورهبات.. لكن سخريته هذه غير صريحة.. بل مرموزة، مبطنة بثوب الحكمة، ورداء الموعظة، تماما كأي حكيم شرقي قديم، يعظ الناس كل يوم، دون ان يحيا معهم، او مثلهم..

هؤلاء السادرون في غيهم، بم يجعلهم يستيقظون؟ بأي سوط يلهب ظهورهم الرابضة على الفريسة كالبهيمة؟

لا شك انه، هنا، عند شاعرنا، سوط الشعر،

وصوت التجربة، يعلن بها ان هذه الحياة التي تهيمون حبابها ليست سوى متعة عابرة، ودار غرور، ومتاع الى حين.. ويأتي الموت، والتخويف به، الموضوع الطبيعي الوحيد المقابل للحياة. فما دامت الحياة تافهة الى هذا الحد، فان الموت لا شك ليس تافها، بل هو قضية، وموقف وفلسفة.. اي هو شيء هام وذو قيمة..

يقول شوبنهور: «ليس من المؤكد ان الوجود خير من اللاوجود، بل لعل العكس هو الصحيح، كما يبدو لنا، لو امعنا النظر بعض الإمعان. ولو استطعت ان تسعى الى قبور الموتى، وتقرع ابوابها سائلا اياهم، هل يريدون العودة الى الحياة، اذن، لرأيتهم ينفضون اليك رؤوسهم رافضين، وإلا فعلام التعلق بهذه البرهة القصيرة التي يقضيها المرء في الوجود والتي لا تبدو شيئا، وسط تيار الزمان اللانهائي؟! انما هذا التعلق بالحياة حركة عمياء غير عاقلة.. » الخ. ولعل ابا العتاهية قد ذهب الى قبور الموتى وسألهم وحاورهم مرارا. وها هو في وقفته الطويلة امام الموت ينقل الينا هذا الحوار، الصامت الناطق، شعرا اعتباريا ولا

اصفى، ولا اصدق.. يخبرنا فيه، نحن الموتى الذين لا نزال على قيد الحياة، باننا راحلون عما قريب، طال مكوثنا ام قصر، تعامينا عن الموت « الرائح الغادي » بيننا، ام لم.. ناعيا علينا مثل هذا الوجود القسري وتلك الحياة المليئة بالشر والقبح والتفاهة. ناعيا نفسه قبلنا، في صور تأملية حارة، مريرة، وفي نشيج شعري مليء بالدم والدموع.. ختمه بهذا النداء الموجع:

يا طويل الرقاد لو كنت تدري
كنت ميتَ الرقادِ حَيَّ السهادِ..

موحيا لأبي العلاءنفس الموقف ونفس النشيج، في قصيدته الرثائية الشهيرة: غير مجد في ملتي واعتقادي.. .ولكن في وقفةعلائيةتأملية أعمق وارقى.. ولا شك ان ابا العلاء قد اعجبه كثيرا بيت ابي العتاهية الأخير: يا طويل الرقاد لو كنت تدري.. فصاغه صياغة حكمية جديدة حين قال:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ
جسمُ فيها، والعيشُ مثل السهادِ

وظل، لاعجابه، محتفظا بنفس البحر والروي

والقافية في قصيدته كلها. . وظل الفارق بين الشاعرين قائما: المعري غواص، تأملي، فيلسوف، وابو العتاهية يمضي على رسله. . لا يلوي على شيء. .

حيرة حائرة:

في الزمان والمكان وما بعدهما:

ليت شعري، فانني لست أدري
أي يوم يكون آخر عمري
وبأي البلاد تقبض روحي
وبأي البلاد يحفر قبري.

صورة رهيبة:

نحن في الحياة، اشباح هائمة تتجسد، في ملاقاة الموت، قطعانا، تتوالى بعد قطعان:

كم ترانا يا اخي نبقى على
جولان الموت في هذا الأفق
نحن أرسال الى دار البلى
تتوالى عنقاً بعد عنق

صورة الصديق الاحمق:

حكمة ساخرة اوسخرية حكيمة بالألوان:

احذر الاحمق واحذر وده
انما الاحمق كالثوب الخلقْ
كلما رقعته من جانب
زعزعته الريح يوما فانخرق
او كصدع في زجاج فاحشٍ
هل ترى صدع زجاج يلتصقْ
فاذا عاتبته، كي يرعوي
زاد شرا، وتمادى في الحمُق
قلما رأينا لأبي العتاهية هجاء فنيا ضاحكا كهذا:

رأيت الفضل متكئا
يناجي البحرَ والسمكا
فارسل عينه لما
رآني مقبلا وبكى
فلما ان حلفت له
بأني صائم ضحكا..

موعظة كونفوشيوس:

انما انت بحسك
ومن الناس، بأنسك

لا يفوتنك بيومك
ما فات منك بأمسك
ارحم الناس جميعا
فهم ابناء جنسك
ابغ للناس من الخير
كما تبغي لنفسك

حدث القاسم بن عيس العجلي قال: حججت فرأيت ابا العتاهية واقفا على اعرابي في ظل ميل[1] وعليه شملة. فقال له: كيف اخترت هذا البلد القفر على البلدان المخصبة. فقال له: يا هذا، لولا ان الله قنع بعض العباد بشر البلاد، ما وسع خير البلاد جميع العباد.. فقال له: فمن اين معاشكم؟ فقال: منكم معشر الحاج، تمرون بنا فننال من فضولكم، وتنصرفون فيكون ذلك. فقال: اننا نمر ونتصرف في وقت من السنة. فمن اين معاشكم. فاطرق الاعرابي. ثم قال: لا والله، لا ادري ما اقول الا اننا نرزق من حيث لا نحتسب أكثر مما نرزق من حيث نحتسب فولى ابو العتاهية، وهو يقول:

---

(١) صفة للضباب. يقال: ضباب ميلٌ مع الريح يتكفأ. (لسان العرب مادة مَيَلَ)

هــب الــدنــيــا تــواتــيــكــا

ألــيس المــوت أتــيــكــا

الا يــا طــالــب الــدنــيــا

دع الــدنــيــا لــشــانــيــكــا

ومــا تــصــنــع بــالــدنــيــا

وظــل المــيــل يــكــفــيــكــا

واخبر المسعودي ان ابا العتاهية قال هذه الابيات للرشيد، وكان حج معه في بعض السنين، فنزل الرشيد عن راحلته، ومشى ساعة، ثم أعيا، فقال: هل لك يا أبا العتاهية ان تستريح الى ظل هذه الميل؟ فلما قعد الرشيد اقبل على أبي العتاهية. وقال: حركنا. فقال ابو العتاهية هذه الابيات...

تجارب واعترافات:

بكائية الى الدنيا:

مـا انت يـا دنيـا بـدار إقــامـة

مـا زلت يـا دنيـا كفيء ظـلال

وخفقت يــا دنيــا بكــل بكيــة

ومــزجت يـا دنيــا بكـل وبــال

قـد كنت يا دنيـا ملكت قيـادتي

فـقــرنـتـني بــوســاوس وخـبــال

حولت يا دنيا جمال شبيبتي
قبحاً، فمات لذاك نور جمالي
غرس التخلص منك بين جوانحي
شجر القناعة، والقناعة مالي
الآن ابصرت الضلالة والهدى
والآن فيك قبلت من عذالي
وطويت عنك ذيول برد صُبُوَّتي
وقطعت حبلك من وصال حبالي
وفهمت من نوب الزمان عظاتها
وفطنت للأيام والاحوال
وملكت قود عنان نفسي بالهدى
وطويت عن تبع الهوى اذيالي
وتناولت فكري عجائب جمةً
بتصرف في الحال بعد الحالِ

الخ..

والموت هاجسه على الدوام:

تمسكت بآمالٍ
طِوالٍ، بعد آمالِ

واقبـلت عـلى الـدنـيـا
بـعـزم، ايَّ إقـبـالِ
ومـا تـنـفـك ان تـكـدح
اشـغـالاً بـأشـغـالِ
فـيـا هـذا تجـهـز
لـفـراق الاهـل والمـال
ولا بـد من المـوت
عـلى حـالٍ مـن الحـالِ

صورة كئيبة لنتائج سعينا، ولكن: هذه هي الحقيقة:

أبقيت مـالـك ميراثـا لـوارثـه
فليت شعري، ما ابقى لك المالُ
القـوم بعـدك في حـال تسرهم
فكيف بعدهم، دارت بك الحـالُ
ملوا البكاء، فما يبكيك من احد
واستحكم القيل في الميراث والقالُ

عبّادان: مصدر الزهد و... النفط!

وصف ابو العتاهية عبادان وهي مدينة على مصب دجلة في الخليج العربي، وهي عن البصرة

مرحلة[1] ونصف. وكان فيها نساك منقطعون للعبادة ولأجل هذا ذكرها واصفا:

سقى الله عبّادان غيثاً مُجَلَّلاً
فان لها فضلا جديداً واولا
وثبت من فيها مقيما مرابطا
فما إن ارى عنها له متحولا
اذا جئتها لم تلق إلا مكبرا
تخلى عن الدنيا، وإلا مهللا
فاكرم بمن فيها على الله نازلا
واكرم بعَّبادان داراً ومنزلا

حِكم اجترارية مكرورة تنظم رجزا ما تعرفه الخاصة والعامة ولا غناء فيها، ولا شعر. كهذه:

من سالم الناس سلم
من شاتم الناس شُتم
مَن ظلم الناس اسا
من رحم الناس رحم
مَن طلب الفضل الى
غير ذوي الفضل حُرم

(١) المَرحَلة: جمعها مراحل وهي المسافة. التي يقطعها المسافر في نحو يوم. (محيط المحيط مادة رحل)

مَن حفظ العهد وفى
من احسن السمع فهم
مَن صدق الله علا
من طلب العلم علم
مَن خالف الرشد غوى
من تبع الغيَّ ندم
مَن لزم الصمت نجا
من قال بالخير غنم
مَن عف واكتف زكا
من جحد الحق أثم
مَن مسه الضر شكا
من عضه الدهر ألم
لم يعد حيا رزقهُ
رِزْق امرىء حيث قُسم

وشتان بين«مَن » هذه، و«مَن » زهير في معلقته..

وعلى عادته، نجد ابا العتاهية حيناً في القمة، واحيانا في السفح.. في هذه الأبيات الأربعة التالية نراه وقد سما اسلوبا وشاعرية:

الـليــل شيَّبَ والنهــارُ كــلاهمــا
رأسي بكثـرة مـا تـدورُ رحـاهمــا
يـتنــاهـبــان لحــومنــا ودمــاءنــا
ونفوسنا جهـراً ونحن نـراهما
الشيب احــدى الميتتين تقــدمت
احــداهما وتَـأخـرت احــداهمــا
فكــأن من نــزلت بــه اولاهمــا
يـوماً، وقـد نـزلت بـه اخـراهما

وكذلك في هذه القصيدة العصماء التي اخذ عنها المتنبي نفسه بعض معانيها، وبعض اشطارها:

الدهر ذو دولٍ والمـوت ذو عللٍ
والمرء ذو أمـل، والنــاسُ اشبـاهُ
ولم تــزل عبــر فيـهن مـعتبــرٌ
يجــري بهـا قــدر، والله أجــراه
يبكي ويضحك ذو نفس مصرِّفةٍ
والله اضــحــكــه، والله ابــكــاه
والمبتــلى فهــو المهجــور. جــانبــه
والنـاس حيث يكون المـال والجاه

يـا بائـع الدين بـالدنيـا وباطلهـا
تـرضى بدينـك شيئا ليس يسـواه
حتى متى انت في لهو وفي لعب
والمـوت نحوك يهـوي فاغـرا فـاه
مـا كل مـا يتمنى المـرء يـدركـه
رب امــرىء حتفــه فيــا تمنــاه
ان المـنى لـغــرور ضـلة وهــوى
لعل حتف امرىء في الشيء يهواه
كــأن حيا وقـد طـالت سـلامتـه
قد صار في سكرات الموت تغشاه
والنـاس في رقــدة عـما يـراد بهم
ولــلحــوادث تحــريــك وانــبــاه
أنصف، هديت، اذا ما كنت منتصفاً
لا ترض للناس شيئا لست ترضـاه
يـا رب يـوم اتت بشــراه مقبلةً
ثم استحالت بصـوت النعي بشراه
لا تحقـرن من المعـروف اصغــره
أحسن، فعـاقبة الاحسـان حسنـاه
تلهـو، وللموت ممسـانـا ومصبحنـا
من لم يصبحه وجه المـوت مَسَّاه

ما اقرب الموت في الدنيا وابعده
وما أمرَّ جنى الدنيا واحلاه
كم نافس المرء في شيء، وكابر فيه النا
سَ ثم مضى عنه وخلاه
بينا الشقيق على إلف يُسَرُّ به
اذ صار اغمضه يوماً وسجّاه
يبكي عليه قليلا، ثم يُخرجه
فيمكن الارض منه، ثم ينساه

أمثال سائرة:

لو رأى الناس نبياً
سائلاً ما وصلوه
انت ما استغنيت عن صا
حبك، الدهر، اخوه
فاذا احتجت اليه
ساعة مجك فوه
-نام الخلي، لانه خلْوُ
عمن يَؤرقُ عينه الشجوُ
ما إن يطيب لذي الرعاية
للأيام، لا لعب ولا لهو

اذ كـان يسـرف في مسـرتـه

فيمـوت من اعضـائـه جـزوُ

واذا المـشيـب رمـى بـوهنتـة

وهت القـوى وتقـارب الخـطوُ

واذا استـحـال بـاهـله زمـن

كـثُر القـذى، وتكـدر الصفـوُ

قال اسحاق الموصلي: انشدني اسحاق بن مخلد الرازي لابي العتاهية هذه الابيات، فقلت: ما احسنها! فقال: اهكذا تقول! حقا انها روحانية بين السماء والارض. . .

اما «ذات الامثال» الشهيرة فهي ارجوزة كبرى يقول المؤرخون انها مؤلفة من اربعة آلاف مَثَل، وكلها في الاعتبار والوعظ. .الا ان الأيام لم تبق منها سوى نيف وخمسين مثلاً او بيتا. واليك بعضَ هذه الخمسين.

حسبـك مما تبـتـغيـه القـوت

مـا اكـثر القـوتَ لمن يمـوتُ

الـفقـر فيـما جـاوز الكـفـافـا

مـن اتـقـى الله رجـا وخـافـا

ان كان لا يغنيك ما يكفيكا
فكل ما في الارض لا يغنيكا
ان القليل بالقليل يكثر
ان الصفاء بالقذى، ليكدز
ما انتفع المرء بمثل عقله
وخير ذخر المرء حسن فعله
ان الفساد ضيره الصلاح
ورب جد جَرَّه المزاح
يغنيك عن كل قبيح تركه
يرتهن الرأي الاصيلَ، شكه
يا رب من اسخطنا بجهوه
قد سرنا الله بغير حمده
مَن لم يصل فارض اذا جفاكا
لا تقطعن للهوى أخاكا
لكل ما يؤذي وان قَلَّ ألم
ما اطول الليلَ على من لم ينم
ان اختفى ما في الزمان الآتي
فقس على الماضي من الاوقاتِ
ما تطلع الشمس ولا تغيب
إلا لأمر شأنه عجيب

لـكــل شيء مـعــدن وجــوهــر
واوسط واصغر واكبر
وكل شي لاحق بجوهره
اصــغــره مــتــصــل بــاكــبــره
مَن لــك بالمحض وكــلٌ ممتزج
وساوس في الصدر منك تختلج
ما زالت الدنيا لنا دار اذى
ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخــير الشــر بهــا أزواج
لــذا نــتــاج ولــذا نــتــاج
لــكــل انســان طــبــيــعــتــان
خــير وشــر وهمــا ضــدان
والخــير والــشــر اذا مــا عــدا
بــيــنــهــما شــأو بــعــيــد جــدا
انــك لــو تستنشق الشــحيــحــا
وجــدتــه انــتــن شــيء ريحــا..
الــتــرك للدنــيــا النجــاة منهــا
لم تــر انهى لــك منهــا عنهــا
من جعــل النمام عينــا هلكــا
مبلغــك الــشــرَّ كبــاغيــه لكــا

من لم يكن في بيته طعام
فماله في بيته مقام
صلح قرين السوء للقرين
كمثل صلح اللحم والسكين!
وللكلام باطن وظاهر
في ساحة العدل يموت الجائر
ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للعقل اي مفسدة
ان الشباب حجة التصابي
روائح الجنة في الشباب
اصحب ذوي الفضلِ واهلَ الدين
فالمرء منسوب الى القرين
لا تذهبن في الامور فرطا
لا تسألنَّ إن سألت شططا
وكن من الناس جميعا وَسَطا

ذكر سليمان بن ابي الشيخ قال: قلت لأبي العتاهية اي شعر قلته اجود واعجب اليك قال:

قولي: ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للعقل اي مفسدة

وقولي: ان الشباب حجة التصابي
روائــح الجنـــة في الشبــاب..

قال عمرو بن بحر الجاحظ: وفي قول ابي العتاهية « روائح الجنة في الشباب معنى لمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته الا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة الا بعد التطويل، وادامة الفكر الجليل، والتفكر الجزيل. وخير المعاني ما كان الى القلب اسرع من اللسان.

اما انا فأقول: ان هذا البيت يساوي، وحده، كل ما قاله ابو العتاهية من الشعر... وواضح ما بين القمة والسفح في شعر شاعرنا من التفاوت الكبير مما فصلناه سابقا، وصح فيه قول الاصمعي: « شعر ابي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب، والتراب، والخزف، والنوى »..

ونختتم، اخيرا، هذه النماذج بابتهالية من ابتهالياته الخاشعة المستسلمة المنيبة، يرتلها ابو العتاهية، صلاة حرى بين يدي ربه:

إلهي لا تعذبني فإني
مقر بالذي قد كان مني
وما لي حيلة الا رجائي
وعفوك إن عفوتَ وحسنُ ظني
فكم من زلةٍ لي في الخطايا
وانت عليٌّ ذو فضل ومَنٍّ
اذا فكرت في ندمي عليها
عضضت أناملي وقرعتُ سني

يظن الناس بي خيراً واني
لشرُّ الناس، ان لم تعف عني
أجن بزهرة الدنيا جنونا
وافني العمرَ فيها بالتمني
وبين يدي مُحْتَبَسٌ ثقيلٌ
كأني قد دعيت له كأني
ولو اني صدقت الله فيها
قلبت لأهلها ظهرَ المِجَن

بل هي اعترافات انسان يتضور ندما، ويضج اسى ولوعة.. يصعّد كلُّ ذلك في دعاء لاهث

حزين.. احسست كأني ارفع يدي معه نحو السماء طالبا العفو والغفران، لي وله ولجميع المؤمنين..

آمين..

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموسوعة الأدبية الميسرة
٨

حسان بن ثابت الأنصاري

من الحرية الى الالتزام

تأليف
الأستاذ خليل شرف الدين

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان

طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ١٥/٥٠٠٣ برقياً مكتهلال

استهلال

من الـوثنيـة إلى التـوحيـد ، من التجسيـد إلى التجـريـد : وثبـةٌ هـائلة من الـزمـان الـرتيب ، والمكـان الجـديب ، إلى حيث الـزمـان حـدوده الأبـد ، والمكـان تخومه الأرض بما وسعت ، والسماء بما رحبت . .

وثبة حققها العربي ــ البدوي ، على يد النبي ﷺ ، فـاجتـاز معـه وبـه ،.من المتنـاهي ، إلى الـلامتنـاهي ، إلى . . . الله . . . فكـانت الرسـالة المحمـدية إحـدى ، بل لعلها آخر المحطات الكبـرى لذلـك الإنسان البـدوي في انـطلاقته نحـو تكوين « الأنـا » المنفتحـة الخـلاقـة ، وتحقيق الذات المجتمعية ، البديلة . .

ومـا نزعـة الـزهـد ، من ثم ، وحـالـة التصـوف في الإسـلام ، إلا تجسيـداً رائعـاً لكينـونـة هـذه الـذات المتشـوفة ، وقـدرتها الفـائقة ، على الاختـراق والتجـاوز.

إلى ما وراء المادة ، نزوعاً إلى الكمال . . وتوقا إلى المثال .

إلا أن المعادلة بين ما هو جسدي ـ مادي ، وما هو إلآهي ، ظلت هي السائدة والرائدة في تعاليم الإسلام ، وسيرة كبار المسلمين . وحين تجاوزت الصوفية حدودها كُفِّر أصحابها ، ويُدّعوا . . غير أن الغزالي بقي مؤمناً بالمعرفة الحقيقية تأتيه ، كما الصوفية ، من ذلك « النور يقذفه الله في القلب » فينداح في الكيان ، ويتلقفه العقل العاجز . واستمر المسلمون ـ في السيرة والتفكير، غزاليين، أشاعرة في غالبيتهم، إلى أن جاء ابن رشد وقلب المعادلة . .

حتى في العلوم كان اهتمام العرب بالجانب الإلآهي في المادة أكثر من المادة نفسها ، وذلك لإيمانهم بأن الله يتجلى في المادة أو « يتمظهر »[1] فيها كما يقول المستشرق « روم لاندو في كتابه : « الإسلام والعرب »[2] وما كانت أبحاثهم المستفيضة في الفلك والحيوان إلا لإظهار حقيقة هذا التمظهر من جهة وقدرة

(١) تمظهر الله أو التجلي بالتعبير الديني : Transfiguration de Dieu .

(٢) انظر ترجمة هذا الكتاب الى العربية لمنير البعلبكي ـ دار العلم للملايين .

الله على الخلق والإبداع من جهة أخرى .

سقنا هذه العجالة لنبرهن أن العربي الجاهلي حين حطم ، بالإسلام ، وثنياتهِ ، وقضى بقوة الروح ، وعمق الإيمان ، على أصنامه ، لم يستطع ، أو لم يرد ، أن يحطم صنمية التقاليد ، وأنماط عيشه القديم ، ولا سيما أنماط تعبيره وأساليب لغته ، وقوالب شعره ، فظل أسير اللغة، وعبدَ قوافي قصائده وبحورها الرملية الجافة . .

فشتان بين تلك القفزة الروحية الهائلة التي قفزها على دروب التسامي والتجرد ، والتجريد ، وتعشق المثال والكمال ؛ وبين هذه القوالب اللغوية والتعبيرية الضيقة ، على رحبها ، بين هاتيك الوثنية التجسيدية في العادات والتقاليد ، على اصالتها ، وبين هذه الشطحات الجديدة في عالم الروح والعقيدة . .

فما السبب يا ترى؟ . .

لعل ذلك عائد، في نظرنا ، إلى أن العربي سَلَفي في طبعه يتشوق إلى القديم والمحافظة عليه ، أكثر مما يتعشق الجديد والانغماس فيه . خاصة ذلك العربي الجاهلي المعتز بتراثه . إعتزازَه بإسلامه ، وبلغته وسحر

بيانها . وإيمانه الشديد بكمالها ، وإن ما قاله فيها من شعر ونثر قد بلغ الغاية ، وأن لا جديد يمكن أن يضاف إلى كل ذلك . . وها أن القرآن قد أغناه عن كل نثر وشعر ، إذ رأى في آياته البينات مزيجاً مدهشاً من روائع الكلم المنثور ، والصور الشعرية المثيرة . وهكذا « قعد » هذا العربي المسلم يتأمل معجزات التعبير القرآني ، مستغرقاً فيها ، مستوحياً منها ، في شبه ذهول ، دون أن يقلد أو يجدد . . مما أبقاه بعيداً عن دائرة الضوء الجديد ، في هذا المجال .

واستمر الشعر التقليدي ، الذي أكثر منه في الجاهلية ، ماثلاً أمامه كالصنم لا يكف عن التعبد له وحرق البخور على قدميه . . وحين أطلق النبي ﷺ حرية الشعراء في الرد على المشركين ، بعد أن نهاهم عن قول الشعر ، أو ، بالأصح ، عن بعض موضوعاته التي لا تتلاءم وتعاليم الدين الجديد ، كالغزل الإباحي ، والخمرة ، والاقذاع في الهجاء ، وذكر الأصنام والازلام والميسر وما شابه ، حين فعل النبي ﷺ ذلك لم يجد هؤلاء الشعراء ، وأكثرهم مخضرم ، سوى الشعر الجاهلي يعبّرن منه اغترافاً وبلا قيد ، أو تغيير ، في المباني والمطالع ، والصور .

كـان الإسـلام إذن إنقـطاعـاً عن الجـاهليـة ، على صعيـد النظر أو المضمـون . واستمـراراً للجـاهليـة على صعيـد الشكل أو التعبيـر[1] . والسـر كمـا رأينـا ، يكمن في أن الإسـلام قد تبنى ذلـك الشكل الجـاهلي على أنه المعبـر الأكمـل عن شخصيـة العـربيّ في مجـال اللغـة والفكر . وقد استحـال على الإسلام تفسيـر تغييره ، بـل لقـد اتهم النبي ﷺ بأنـه يقول شعـراً وليس قرآنـاً . . كما سبق القـول . إذن ، ظـل الشـاعـر وارثـاً لهـذا الشكـل الثـابت لا يغير فيـه شيئاً ، فهـو ناسـخ لـه ومكـرر . أمـا المضمـون فقد سلب منـه أيضاً ، وليس عليـه إلا أن يغير في الأسمـاء ، عند المـدح ، وأن يضـع كلمـة حـرب أو غـزو أو واقعة بـدل يوم أو أيـام وأحيـانـاً لا يغيـر شيئـاً . وهكذا انتقل الشاعر الإسـلامي من مبدع للمضمـون إلى نـاسخ لـه ومن صاحب حَـدْس شخصي إلى متحدث عن حدس إلٰهي . .

لم يعد الشاعر في الإسلام ذاتاً مستقلة ، بل أصبـح جزءاً من جماعة أو أمة .

من هنـا كـان إنحســار الشعـر ، كمـاً وكيفـاً ، في

---

(1) أدونيس: الثابت والمتحـول ٣ صدمـة الحداثـة ص ٢٣٣ دار العـودة ـ بيروت ١٩٧٩ .

الإسلام حين أصبح الشاعر في الدرجة الثانية باعتباره وسيلة وليس غاية ، بعد أن كان غاية وطاقة خلاقة في الجاهلية .

نشأة حسان :

في هذا الجو الجديد نشأ حسان أو بالأحرى بدأ حياته في قسمها الثاني ، إذا صح التعبير ، (كان عمره حين أسلم قرابة الستين وقد عمّر ١٢٠ عاماً . . كما يرجح الرواة) ما عدا بروكلمن[1] .

نشأ ، إذن ، مشدوداً إلى وترين : وتر الإسلام وجاذبية روحانيته ، ووتر الجاهلية وذكرياته الحميمة فيها ، وتر التجديد روحاً وموضوعاً ، ووتر التقليد منهجاً وطرائق وحسية تصوير . ثم أنه هو نفسه شاعر مخضرم ، فلا يعقل أن ينقلب بين عشية وضحاها إلى شاعر مجدد مهما كانت دوافع التجديد قوية آسرة .

ويمضي العهد الإسلامي الأول كله على هذه الوتيرة ، فلا تجديد ، عند حسان وغير حسان من الشعراء . وكذلك مضى النقد على الوتيرة نفسها . إلى

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ج ١ ص ١٥٢ .

أن كان العهد الأموي حيث التمعت في الأفق بعض ومضات التجديد .

ومما أبقى حسان أسير ماضيه الجاهلي . أنه عاش كشاعر وكإنسان ، زمناً طويلاً في رحاب الغساسنة والمناذرة على أطراف الجزيرة العربية ، يتعيش بشعره ويحقق به مقاماً رفيعاً ومجداً قلما داناه فيه شاعر سوى النابغة . . وظل هاجسَهُ طوال إسلامه ، يحن إليه وإلى رموزه حنيناً جارفاً أفصح عنه في كثير من المناسبات ، كما سنرى .

هويته :

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حَرام بن زيد مَناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار[1] . . . بن ثعلة ، وهو العنقاء بن عمرو ، سمي بذلك لطول عنقه . . . انتهاء بيعرب بن قحطان .

---

(١) وبنو النجار هم تيم الله بن ثعلبة أخوال رسول الله ﷺ فلشاعرنا اذن صلة بالرسول وقرابة . اغاني ج ٤ ص ١٣٤ ويسمون بني مغالة ، وهي امرأة من القين ، واليها كانوا ينسبون . رواية مصعب الزبيري عن الحسن بن علي .

كنيته :

يكنى حسان بأبي الوليد ، وأبي عبد الرَّحمان ، وأبي حسام .

أمه :

أما أمه فهي الفريعة ابنة خالد بن قيس بن لوزان عبد ود . . ابن الخزرج . أدركت الإسلام وأسلمت .

نسبه :

إذن هو من بني النجار من قبيلة الخزرج ، يماني قحطاني ، يرقى من جهة الأم إلى آل جفنة الغساسنة العرب المسيحيين اليعقوبيين ملوك الشام[1] وكذلك إلى المناذرة اللخميين العرب المسيحيين النسطوريين ملوك العراق في الحيرة[2] .

---

(1) وكانوا على خلاف عقدي مع المناذرة النسطوريين حول طبيعة السيد المسيح . يضربون بخيامهم في جلق ، وليس في دمشق . فكانوا أقرب الى حياة البادية منهم الى حياة الحاضرة على عكس أقربائهم المنادرة (في الحيرة) الذين كانوا يتشبهون بحياة أسيادهم الأكاسرة وطرائق عيشهم وسكناهم .

(2) الحيرة أو حرتا في السريانية ، ومعناها الخيمة . مما يدل على ان المناذرة سكنوا الخيام في أوائل حكمهم . ثم لما تأثروا بالأكاسرة بنوا مثلهم القصور وتحضروا . حتّي تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١٢٢ .

فهـو بهـذا طيب الأرومـة عـالي النِجـار صـافي العروبية . . وقد أحس هو بـذلك إحسـاساً عميقـاً ، ظهر في مدائحه لأقـربائـه آل جفنة الغسـاسنة ، وآل المنـذر ، كما ظهر في مفـاخره ، وإعتـزازه ، في شعره ، بـإنتمائـه إلى أرفع بيوتات العرب القحطانيين .

طول عمره :

يجمـع المؤرخـون على أن حسـانـاً أَسَنَّ حتى بلغ المـائـة والعشـرين . نصفهـا أو يـزيـد في الجـاهليـة ، والنصف الآخـر في الإسـلام . ومعنـى هـذا أن حيـاة الشباب ، والهوى ، والمجـون ، والتجوال ، والعيش في القصـور مـع الملوك ، قـد أنتجـا لنـا شـاعـراً مشبـوب العـاطفة عميق التجـربة ، ذا نتـاج قيم ، أو هكـذا يجب أن يكـون ؛ بـإمكـانـه أن يصـل بعضـه ، على الأقـل ، إلينا ، في كثير من هواجسنا وعواطفنا ، ورؤانا .

أما حياة الشيخوخة والعيش في رحـاب الجو النبـوي المهيب ، والإلتـزام الإسلامي الـرهيب ، فقـد أفـرزا لنـا شاعراً فاتراً متواتر المعاني ، لا قيمة فنيـة تذكـر لشعره ؛ واشـدد على فنيـة ، كمـا سنـرى ــ إذ أن بـاقي مـدائحـه النبوية ، ومدافعاته عن العقيدة الإسلامية تنضح بالصـدق

وطـول بـاعــه في معـرفـة أنسـاب المشــركين وأيـامهم ومخازيهم ، كما تنم عن عفوية الإلتزام وصرامته في آن .

مثـل هذا الشعـر إن دل على شيء ، فـإنمـا يـدل ، في المقيـاس النقدي الصحيـح ، على حقيقتين لا ثـالثـة لهمـا . أولاهمـا : أنـه جـاء وثيقــة تـاريخيــة في قـالب شعـري ، لأهم مـرحلة من مــراحـل الإســلام في أولى إنبثاقاته ، وبواكير ظهوره ، تسجـل بأمـانة مـا كان يعـانيه النبي ﷺ من إيـذاء مشركي مكـة لـه ، كمـا تسجـل أهم انتصـاراته وغـزواتـه ، وتتغنى بمـآثـره وصفـاتـه ، والقيم الجـديدة التي بشَّـرَ بها وعمـل لهـا ، وجـاهـد في سبيـل تجسيــدهــا في أرواح وكيــانــات الــرعيــل الأول مـن المسلمين .

وهـذه الحقيقة لا تمنـح الشعر امتيـازاً في نظرنـا . . فتسجيل الوقائع والأحداث من شأن النثر وموضـوعاتـه . إذن، هـو نظمٌ وليس شعـراً ، وبالتـالي فهو لا يتصـل بنا إلا كمــا تتصـل البــديهيـات ـ المسلمــات في العقـول والأذهان . .

وثـانيتهما : أن نتـاج الشيخـوخـة لا يمكن ، إلا في حالات نادرة ، أن يـأتي إبداعيـاً أو مثيراً ، أو قـادراً على

الإستمرار ، لأن الموهبة تكون ، في الستين وما فوق ، قد خبت أو كادت ، وضاقت دائرة إشعاعها ؛ فيصبح الشاعر معها وقد اجتر نفسه وكرر معانيه ، ولم يأتِ بجديد ، كما هي الحال مع أكثر شعرائنا القدامى ومنهم حسان .

قبيلة الشاعر ـ الأنصار :

تقدم معنا أن حسان كان من الخزرج لجهة أمه ومن الأوس لجهة أبيه . وحين نصروا النبي ﷺ يوم جاءهم مهاجراً إلى المدينة سموا بالأنصار . يقول ابن خلدون في تاريخه[1] : « ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب الأنصاري، حتى ابتنى مساكنه ومسجده . ثم انتقل إلى بيته ، وتلاحق به المهاجرون ، واستوعب الإسلام سائرَ الأوس والخزرج ، وسموا بالأنصار يومئذ بما نصروا من دينه » . وكانت لهؤلاء الأنصار حرمة وإيثار عند النبي ﷺ لما بذلوه في سبيل الإسلام من دماء وأموال وحماية ، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يشهد لهم بذلك .

(١) تاريخ ابن خلدون : ج ٢ ص ٢٠٨ طبعة دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

وحين بلغهم من بعض المنافقين أن النبي ﷺ يقسم الغنائم « فيمن كان يستألفه على الإسلام من قريش وسواهم ، وجدوا[1] في أنفسهم وقالوا : سيوفنا تقطر من دمائهم (دماء المهاجرين) وغنائمنا تقسم فيهم إلخ » وبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار : ما الذي بلغكم عني . فصدقوه الحديث[2] فقال : ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، ومتفرقين فجمعكم الله ؟ فقالوا : الله ورسوله أَمَنُّ . فقال : « والله اني لأعطي (الغنائم) رجالاً استألفهم على الدين ، وغيرهم (أي أنتم) أحبُّ إليَّ . . . أما والذي نفسي بيده ، لولا الهجرة ، لكنتُ امرءاً من الأنصار . الناس دثار ، وأنتم شعار ، ولو سلك الناس شِعْباً ، وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكتُ شعبَ الأنصار ! ففرحوا بذلك . الخ . . » .

وهكذا أصبح كل إنسان يسكن المدينة[3]

---

(١) وجدوا : من الوجد أو الاضطغان.

(٢) اشارة الى الحديث الذي نقله بعض المنافقين الى النبي .

(٣) وكان اسمها أول الأمر : يثرب . سميت باسم بانيها يثرب بن فانية ابن مهلهل بن إرم بن عبيل ابن عوض وعبيل اخو عاد . والأصح ، على رأي ابن خلدون : انه يثرب ابن قائد بن عبيد بن . . . عمليق بن لاوذ بن ارم . ومنه العمالقة . اما الأوس والخزرج فمن بطون جفنة =

أنصارياً ، وأصبحت المدينة منورةً بحلول النبي ﷺ فيها[1] . وكل قبيلة فيها أنصارية ، وحسان بن ثابت أصبح أنصارياً . لكنه ذهب وحده بهذه الصفة ولازمته واشتهر بها ، فقيل : حاسن بن ثابت الأنصاري . وغلبت الشهرةُ النسب/ ولعل هذا التفرد بالأنصارية ناتج عن كونه شاعرَ النبي ﷺ المميز عن سائر شعراء الدعوة من المهاجرين ، ورمزاً ساطعاً من رموز الأنصار ، والناطق الأوحد باسمهم ، المتغني بمآثرهم وأمجادهم ، وحسنِ بلائهم في الإسلام ونصرة نبيه .

هؤلاء الأنصار تساموا بالخطوة لدى النبي ﷺ ، وكادوا يتفوقون على المهاجرين في حبه والاستشهاد بين

= الغساني وحين هاجر اليها الرسول سماها طيبة بدلاً من يثرب (من التثريب وهو اللوم والتعيير) فكأنه كره ذلك .

(١) خوطب الرسول في القرآن بأسماء وألقاب ونعوت كثيرة أهمها : النبي والرسول . يرجع الدكتور جواد علي ان كلمة نبي عبرانية Nabi وقد وردت اللفظة في اكثر من ٣٠٠ موضع في العهد القديم . تقابلها في السريانية كلمة : نبيأ Nabiia ونبيو Nabiio وتعني : الرأي أي الناظر والمنذر بوحي من الله قبل كونها في هذه اللغة . وكل رسول نبي . غير ان من الأنبياء من ليسوا رسلاً . والرسل عند المسلمين أقل عدداً من الأنبياء بكثير . للتفصيل انظر : تاريخ العرب في الاسلام د. جواد علي ط ١ دار الحداثة بيروت ١٩٨٣ .

يديه ، مما ولد عندهم شعوراً بالعزة ، من جهة ، وبالاحقية في خلافته ، من جهة أخرى . حتى إذا توفي النبي ﷺ « اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة[1] بن كعب ، ودعت الخزرج إلى بيعة سعد بن عبادة . وقالوا للمهاجرين : « منا أمير ومنكم أمير ، ضنا بالأمر أو بعضه فيهم ، كما يقول ابن خلدون[2] لما كان من قيامهم بنصرة رسول الله ﷺ . لكن المهاجرين رفضوا . فذكّرهم الأنصار بوصية النبي ﷺ ، في آخر خطبة له ، حيث قال : « أوصيكم بالأنصار انهم كرشي[3] وعيبتي[4] وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ؛ فأوصيكم بأن تحسنوا إلى محسنهم ، وتتجاوزوا عن مسيئهم . قال المهاجرون : لو كانت الإمارة (الخلافة) لكم ، لكانت ، ولم تكن الوصية . فحجوهم ، فقام

---

(١) خبر سقيفة بني ساعدة : ملخصه: قال الطبري: اجتمع الأنصار في سقيفة بني ما عدة ليبايعوا سعد ابن عبادة . فبلغ ذلك ابا بكر فجاءه ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح . فقال الانصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر : منا الأمراء ومنكم الوزراء الخ انظر خبر سعد أعلاه .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٦١١ طبعة دار الكتاب اللبناني ــ بيروت .

(٣) كَرَشَ الرجل : صار له جيش بعد انفراده .

(٤) العيبة : من الرجل : موضع سره .

زعيم الخزرج وبايع لأبي بكر ، واتبعه الناس » الخ[1] .
أما سعد بن عبادة الذي رشحته الأوس فقد تخلف عن البيعة ، ولحق بالشام ، إلى أن هلك . ويروي عنه ابن خلدون خبراً لا يخلو من طرافة وخيال مفاده أن الجن هم الذين أهلكوه . كما روى بيتاً لأحد شعرائهم يقول فيه :

نحن قتلنا سيدَ الخزرجِ سعدَ بنَ عباده
وضربناه بسهمين فلم نخطىء فؤادَه . .

فتش عن اليهود ! :

وكان في المدينة ، عدا الأوس والخزرج فئة قليلة من اليهود من بني النضير ، وبني قريظة ، يتعاطى أكثرهم الزراعة ، ويرجح المؤرخ حتي في تاريخه المطول[2] أنهم يتحدرون « من القبائل العربية والآرامية التي تهودت » . كما يذكر أنهم هم الذين استبدلوا اسم « يثرب » القديم باسم جديد : « مدينتا » وهو آرامي . ثم أعطاها المسلمون صفة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ إليها ، فصارت : المدينة المنورة ، وسارت هكذا في التاريخ .

---

(1) تاريخ العلامة ابن خلدون ج ٢ ص ٦١٢.
(2) تاريخ العرب المطول ــ حتي ــ ج ٢ ص ١٤٦ .

وحين جاء الرسول ﷺ المدينة مهاجرا ، دعاهم إلى الإسلام ، بعد أن أسلمت الأوس والخزرج ، فأبوا ذلك ، وراحوا يكيدون للنبي ﷺ ، ويؤازرون أحزاب المشركين يوم الخندق . .

وعدهم النبي ﷺ أنهم إذا أسلموا يأمنون على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ، فأبت بنو قريظة ، فَحَكَمَ الرسول ﷺ بقتلهم . كما كان قد أمر بني النضير بالجلاء عن المدينة ، بعد أن رفضوا الدخول في الإسلام[1] .

وقد كانت هاتان القبيلتان اليهوديتان ، بمواقفهما المخزية والمؤذية للإسلام في أوائل عهده ، مادة خصبة لشاعر النبي حسان ، فراح ، في حرية تامة وحماس ديني عارم ، يهجوهما ، مصوراً لؤمهما وعداءهما للإسلام وحقدهما التاريخي لكل دين غير دينهم ، كما سنذكر ذلك في حينه .

---

(1) ويعد انّ فت في عضدهم رحلوا الى خيبر وهو حصن في اليمن ، وبعضهم رحل الى اذرعات واريحا . للتفصيل : انظر كتاب : موكب النور في سيرة الرسول للاستاذ المرحوم محمد زكي يضون ص ٢١٣ دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٧٠ .

صفاته، ما ثبت منها وما لم يثبت :

سمته : كانت لحسان ناصية (أو غرة) قد سد لها بين عينيه . وعشنون مخضب بالحناء ولحية غير مخضبة . قال له ابنه عبد الرحمان : يا أبت : لِمَ تفعل هذا ؟ .

قال : لأكون كأني أسدٌ والغ في دم ! ومن عاهاته الجسَدية أنه كان مقطوع الأكحل[1] . ولعل هذا من أسباب قعوده عن المدافعة ، بالسيف ، فجعلوا منه مثلاً في الجبن ، وانعدام الشجاعة . حتى قيل : أجبن من حسان »[2] ..

أخلاقه :

أما سائر صفاته ، فكرم العنصر وطيب الأرومة ، ونبل النفس والوفاء ، والجود ، وسرعة الخاطر ، وخصوبة الذهن ، وقريحة في الشعر فياضة .

---

(١) الأكحل : عرق في وسط الذراع . قال ابن سيدة : يقال له عرق النساء في الفخذ ؛ وفي الظهر يقال له الأبهر . ويسمى عرق الحياة ونهر البَدَن .

(٢) سنناقش مسألة جبن حسان في حينه .

ولـه مـع النجـاشي قصـة تـدل على نبله وسمـاحـه وجرأته :

هجـا النجـاشي الحـارثي[1] يـومـاً حسـانـاً . فهجـا حسان قوم النجاشي بأبيات منها هذا البيت العائر :

لا بـأس بـالقـوم من طـول ومن عِـظَمٍ
جـسم البـغـال وأحـلام العصـافيـر

ثم قال لقومه : اكتبوهـا صكوكـاً وألقوهـا إلى صبيان المكاتب : فما مَـرَّ بضع وخمسـون ليلة حتى طرقت بنـو عبـد المدان حسـانَ بالنجـاشي مكبـل اليـدين ، وارغـوا ببابه ، فقـال لابنته : مـا هذا الـذي أسمع ، قـالت : ما والله أدري . قـال : إن أبـاك كـان ذا شـرارة في العـرب بلسـانه . فـانظري مَن طـرقني . فـإن كـانت ابـل تعـوي عواء الكلب توطأ على أذنابهـا كأنهـا تزاحف إلى ورائهـا فهي ابلٌ مضرية : وإن كانت تبكي ، تشكي العـذارى ، تلوي أصـابعهـا . . فهي ابـل الحـارث بن كعب ، وقـد أُتيت بـالعبد (يـريـد النجـاشي) . قـالت : يـا أبت هي والله ، كمـا وصفت . قال : نـادي بأبيـات « اطم » (أي حصن) حسان ليأتيك قومك . فَحضروا . فلم يبق أحـد

(١) النجاشي الحارثي من بني الحارث بن كعب : ابن سلام ص ١٢٥ .

في عاليةٍ ولا سافلة ، إلا رمي بهم إلى فارع اطم حسان معهم السلام . فلما اجتمع الناس ، وُضع منبر ، ونزل في يده مخصرة . فقام عبد الله بن عبد المدان . فقال : يا ابن الفريعة ، جئناك بابن أخيك . فاحكم فيه برأيك . . فاتي بالنجاشي فأُجْلِسَ بين يديه ، واعتذر القوم : فنادى ابنته ، فقال : البقية مَن جائزة معاوية . فاتته بمائة دينار إلا دينارين . فقال (للنجاشي) : دونك هذه يا ابن اخي . . وحمله على بغلة امد الرحمان ، فقال له ابن المدان : يا ابن الفريعة ، كنا نفتخر على الناس بالعِظَم والطول فأفسدته علينا . قال كلا ألستَ القائل :

وقد كنا نقول إذا رأينا
لذي جسم يُعد ، وذي بيانِ
كأنك أيها المُعْطَى بياناً
وجسماً ، من بني عبد المدانِ

فعادوا الى الافتخار بذلك[1] .

وواضح ما في هذه الواقعة من آية النبل والسماح ،

---

(١) انظر كتاب : شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري . تحقيق البرقوقي ـ دار الأندلس ـ بيروت ١٩٨٣ .

حين تمكن من النجاشي الشاعر وشهَّر بقومه واخـزاهم ، فمـا كان منـه ، بعد ان مَثُـلَ النجاشي بين يـديه مقيـداً ، إلا أن عـاد وذكَّر ابنَ المـدان بقولـه : وقد كنـا نقـول اذا رأينا (البيتان) .

ليرد بذلك اعتبار قوم النجاشي ، وكرامتهم .

امـا ما فيهـا من الجرأة الادبيـة فـواضـح ولا حـاجـة لتبيانه . نـاهيك « بشـرارة لسانـه » الأسود السليط ، على حد تعبيره ، هجاء وتحدياً واستعلاء .

فأين جبن حسان ، إذن ، وما مدى صحته ؟

هـل اغناه قلمـه ولسانـه عن زنـده وسيفـه ، ام سقط دونهمـا في سـاح البـطولـة والابـداع ؟ ظهـر لنـا ، حتى الآن ، ان حسـان كـان يتمتـع بصفتين واضحتين : شـرة اللسان في الهجاء ، والجـرأة الادبية التي بـرزت في عدة مواقف ، في الجاهلية والاسلام .

وهذه قصته مع النجاشي بن الحارث ، كما تقـدم ، ومـوقفه من الحـارث بن هشـام ، حين عيـره بفـراره يـوم بدر . قال يؤنب الحارث :

ان كـنـتِ كـاذبـةَ الـذي حـدثـتـنـي
فنجـوت منجى الـحـارث بن هـشـام

تـرك الأحـبـة ، لـم يـقـاتـل دونـهـم
ونـجـا بـرأس طـمـرّة ولـجـام

مـلأت بـه الـفـرجـين فـامتـدت بـه
وثـوى أحـبـتـه بـشـر مـقـام

وكان الحارث هـذا قد فـر يوم فتح مكة امام ضغط المسلمين[1] .

وقـد ظلت جـرأتـه الأدبيـة مـرافقـة لـه حتى بعـد ان عمي وشـاخ : روى صـاحب العـقـد[2] عن جبلة بـن الايهم بن ابي شمـر الغساني لمـا اراد ان يُسْلم على يـد الخليفـة عمر بن الخـطاب . . . ثم ارتداده السـريـع عن الاسـلام ، وتنصره . . . الى آخـر الروايـة التي جـاء في آخـرهـا : « ثم التفت جبلة الى الجـواري اللواتي عن يمينـه ، فقال : بـالله اطربينني . فـاندفعن يتغنين يخفقن بعيدانهن ويقلن :

لـلّه در عـصـابـة نـادمـتـهـم
يـومـا بـجـلق فـي الـزمـان الأول

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٨ وهي رواية مفصلة .

يُسْقَـون مِن وِرْدِ البـريص[1] عليهم
بـردى[2] يصفق بالـرحيق السلسل
أولاد جفنة حول قبر ابيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
يُغْشَون حتى ما تهر كلابهم
لا يَسألون عن السوادَ المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم
شم الانوف ، من الطراز الاول[3]

وهكذا يظهر من سياق الرواية أن حسان ، بالرغم من اسلامه ، لا يزال يكن لانسبائه الغساسنة ، وبالأخص لجبلة ، حباً لم ينكره ، حتى في حضرة الخليفة ، بل جاهر به ، وتباهى ، كما في الأبيات التالية :

إن ابنَ جفنةَ مِن بقية معشرٍ
لم يَغْذُهم آباؤهم باللومِ

(١) البريص : نهر بدمشق (لعله من روافد بردى) .
(٢) وفي مكان آخر : راحاً بدل بردى .
(٣) لا غرو فقد كان أكثر شعر حسان يتغنى به (كما جاء في العقد ج ٢ ص ٦) .

لـم يـنـسـنـي بـالـشـام اذ هـو ربـهـا
مـلـكـاً ، ولا مـتـنـصـراً بـالـروم
يـعـطي الـجـزيـلَ ، ولا يـراه عـنـده
إلا كـبـعض عـطيـة الـمـذمـوم

فقال له رجل كان في مجلس عمر : اتذكر ملوكاً كَفَرَة ابادهم الله وافناهم ؟ قال : من الرجل ؟ قال : مُزَني . قال : اما والله ، لولا سوابق قومك مع رسول الله لَطوقتك طوق الحمامة .

اليس هذا دليلاً كافياً على جرأته الأدبية الصارخة ، رغم شيخوخته وعماه ، الى جانب وفائه واعترافه بجميل تلك «العصابة» التي نادمها، يوماً بجلق، في بواكير الشباب؟ . . .

وهذا هو يتحدى الخليفة عمر نفسه ، لكن بأدب . جاء في الاغاني[1] : مر عمر بحسان وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ . فانتهره عمر . فقال حسان : قد انشدتُ فيه مَن هو خيرٌ منك فانطلق عمر[2] . كما وردت الرواية بشكل آخر على لسان مسلم بن يَسار .

---

(١) ج ٤ ص ١٥٥ .
(٢) المصدر نفسه .

قال : مر عمر بحسان ، وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ . فأخذ بأذنه ، وقال : ارغاء كرغاء البعير؟! فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ! فوالله لتعلم أني كنت أنشدُ في هذا المسجد مَن هو خير منك ، فلا يُغَيِّر علي ! فصدقه عمر .

وواضح ان كل معاني البطولة الأدبية ورموزها في حسان ــ الانسان ، قد نطقت وتجسدت ، في مثل هذه المواقف ، فعوضت عن تلك البطولات المادية التي لم يكن من سبيل اليها عند حسان ــ الشخص لاسباب صحية وفيزيولوجية واضحة ، تجاهلها خصومه ، واحيانا كثيرة ، مجتمعه الذي كان لا يزال مجتمعا بدويا ــ فروسيا في عاداته وتقاليده . فلا يعقل ان يكون فيه رجل ، اي رجل ، لا يصاول ولا يطاول ولا يحارب مع المحاربين ، مهما كانت معاذيره وتعلاته . مجتمع يزهو بوجود علي وعمر وابي بكر وخالد واسامة وعلى رأسهم النبي ﷺ ، ومن قبلهم ، في الجاهلية ، امثال عمرو بنِ ود ، وعنترة بن شداد ، وعمرو بن كِلثوم ، وابن معدي كرب (صديق حسان) وعلى رأسهم ابو سفيان . . مجتمع ، كهذا ، كل قيمه ، وكل مفاخره وامجاده مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوتين المادية والمعنوية ،

الجسدية والعقلية ، فاذا افتقر الرجل الى القوة المادية او الجسدية خسر شيئاً كثيرا ووجد صعوبة كبرى في تحقيق اي نوع من انواع السيادة او الرياسة بالقوة المعنوية وحدها .

هكذا مجتمع حاول الاسلام جاهدا التخفيف من غلواء مثل تلك القيم حين دعا وباصرار الى الوسطية في كل شيء . ولولا تدخل النبي ﷺ في مسألة قعود حسان عن الحرب لقضي عليه قضاء مبرما . .

لقد كان النبي بأمثال هذه المواقف الانسانية يرهص لمفاهيم جديدة في مجتمع جديد يكون فيه الدفاع عن القيم والعقائد بطولة سقراطية اهم بكثير من البطولات الجسدية او الحربية وحدها . ويكون فيه الموقف الجريء ، والكلمة الشجاعة امام الطغاة ينطق بها مجهورةً رجل هزيل مضعوف الجسد ، اعمق تأثيرا من بطولات عنترية لا تدوم طويلا . والبطولة الحقة قد تكون احيانا بالصمت عندما لا يفيد النطق ، كما عند الرواقيين ، وليس بتضريب أعناق الملوك ، وان تُرى لك الهبواتُ السودُ والعسكر المَجْرُ . . لا غير . .

اذن : لقد ذهب حسان ضحية مجتمعه ، ولم ينقذه

سوى لسانه ، في الهجاء ، وحسن دفاعه عن الاسلام بالشعر ، واحتضان النبي له .

عقاب وثواب :

جاء في الاغاني[1] : كان حسان بن ثابت يجلس الى اطمه فارع ، وهو حصن متين ويجلس معه اصحاب له ، ويضع لهم بساط يجلسون عليه . فقال يوما ، وهو يرى كثرةِ مَن يأتي الى النبي من العرب فيُسْلمون :

اری الجلابيب[1] قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة[2] أمسى بيضةَ البلد[3]

(١) كان المشركون يسمون المهاجرين الذين اسلموا : الجلابيب ، او يسمونهم : الخلابيس : وهم الأخلاط من كل وجه ، والسفلة من الناس . انظر : لسان العرب وتاج العروس في شرح القاموس ج ٥ ص ١٢ .

(٢) ابن الفريعة : حسان بن ثابت . وكان ينادى به .

(٣) العرب تقول للرجل : هو بيضة البلد ، يمدحونه بذلك ، وتقول للآخر : هو بيضة البلد ، يذمونه بذلك . والممدوح يراد به البيضة التي يحتضنها الظليم ويقيها ، لأن فيها فرخة . والمذموم يراد به البيضة المنبوذة بالعراء ، المذرة ، التي لا حافظ لها ، ولا يدرى لها أب ، وهي تريكة الظليم . قال الرماني : إذا كانت النسبة الى مثل المدينة ومكة والبصرة فبيضة البلد مدح ، وإذا نسب إلى البلاد التي أهلها أهل ضعة فبيضة البلد ذم .

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ . فقال : من لي باصحاب البساط بفارع ؟ فقال صفوان بنُ المعطل : انا لك يا رسولَ الله منهم ، فخرج اليهم ، فاخترط سيفه ، فلما رأوه عرفوا الشرَّ في وجهه ، ففروا ، وتبدَّدوا ، وادرك حسانَ داخلا بيته فضربه فغلت إليَته . قال : وبلغنا ان النبي عوضه ، بعد ان اسلم واعتذر ، حائطا[1] فباعه من معاوية ، بعد ذلك ، بمالٍ كثير . فبناه معاوية قصرا ، وهو الذي يقال له : قصر الدارَين . وقد قيل : إن صفوان بن المعطل انما ضرب حسانَ لما قاله فيه من الافك الخ[2] .

---

(١) الحائط : البستان . وفي كتاب التنبيه للبكري : فاعطاه النبي عوضا بيرحاء ، وهي قصر بين حُديلة بالمدينة . كانت مالاً لأبي طلحة بن سهل ، تصدق بها رسول الله ، فأعطاه حسان في ضربته .

(٢) حديث الإفك : هو الحديث الذي تخرصه قومٌ (من المهاجرين) على عائشة زوج النبي . وكان ذلك عقب غزوة غزاها النبي كان يصطحب فيها عائشة . فحدث انه أمَرَ بالرحيل . وكانت عائشة منطلقة لبعض شأنها ، فأمر بهودجها فحمل على بعيره . وظن القوم أنها فيه . ولم تكن هناك . . فلما رجعت عائشة إلى الهودج ألْفت النبي وأصحابه قد ارتحلوا . فمكثت مكانها حتى عثر بها صفوان بن المعطل فاسترجع وأناخ ناقته مرجعها الى المدينة . فارجف بها اناس ، ورموها بالافك ، وكان منهم حسان بن ثابت ، حتى نزلت الآية الكريمة ببراءة زوج النبي . اغاني ج ٤ حاشية الصفحة ١٥٦ .

وقد سمي هذا الحديث بحديث الافك لقوله تعالى : ﴿ إن الذين =

كما عوض النبي حسان عن ضربة صفوان بن المعطل له بأن وهبه سيرين ، وهي أَمَةٌ قبطية ، واخت مارية القبطية احدى زوجات النبي وام ابراهيم ابن رسول الله ، فأولدها حسان ابنه عبد الرحمان . فتمت له قرابة نبوية ولا ارقى.. ألم تكن، الشاعرية والحظوة والجرأة الأدبية كافيةً، لتكون بديلا عن كل بطولة جسدية اكتفى بها اصحابها . .

ثم ذلك الرضا والمباركة يأتيانه من لدن النبي الكريم ، في كل مناسبة يُطْعَن فيها حسان ويتهم في رجولته، أليسا كافيين لوضعه في صفوف ابطال المسلمين الذين دافعوا عن الدعوة وصاحب الدعوة ، دفاعا نضاليا فداائيا ، سواء بسيوفهم ام بألسنتهم ، ولعل وقع الألسنة في القلوب ، اشد واعمق من وقع الأسنة . وحسان كما علمنا صاحب ذلك اللسان الذي وصفه صاحبه بأنه « يفلق الصخر » وانه شواظ من نار . مشحونا بكهربائية الايمان ، و« معلوماتية » ابي بكر وخبرته بأنساب المشركين ومثالبهم .

جاء في العقد[1] : قال النبي لحسان : شَنَّ

= جاؤوا بالافك عصبة منكم ﴾ سورة النور الآية ١٠ .

(١) العقد ج ٥ ص ٢٧٧ .

الغطاريف على بني عبد مناف . فوالله لَشِعْرك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام . وَتَحَفَّظْ بيتي فيهم . قال حسانُ : والذي بعثك بالحق نبياً ، لأسُلَّنَّك منهم مسلَّ الشعرةِ مِن العَجين . ثم اخرج لسانه فضرب به ارنبةُ أنفه ، وقال : والله يا رسول الله انه ليخيل لي لو وضعته على حجر لفلقه ، او على شَعْرٍ لحلقه . فقال النبي : ايد الله حسانَ ، في هجوه ، بروح القدس[1] .

لست ادري كيف لا تستقيم لمثل هذا الانسان رجولته اذا جمع كل ، صفات الرجولة ما عدا البطولة الجسدية . هل قضي على الفكر العربي الا يفكر او يزن الرجال الا بميزان القوة الجسدية وحدها ؟ هل علينا ، اليوم ، ان نبقى قائلين مع السلفيين ، بجبن حسان دون تبرير او تمحيص ، هل نسي باحثونا المعاصرون مقاييس علم النفس الحديث ، ومعايير الشخصية البطلة ، فراحوا يكررون ما قاله القدامى عن حسان وجبن حسان . . حتى ضربوا به المثل ، فقالوا : اجبن من حسان؟! ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث الموضوعي ، والسبر العميق لمثل شخصية حسان ،

---

(١) أكد الصحابي أبو هريرة هذا القول في ما روى عن النبي ﷺ . انظر اغاني ج ٤ ص١٣٧ .

وحقيقة وضعه الصحي على الأقل[1] .

مضى القدامى في سرد روايات جبن حسان ، لا يلوون على شيء ، ومضينا ، نحن ، في اثرهم لا نلوي على شيء ، كأن فينا ، مثلهم ، نهماً للتشهير ، وطمس حقائق الأعلام ، والتعتيم على كفاءاتهم الأخرى التي كثيرا ما عوضت عما خسروه ، قسراً ، في ميادين البطولات المادية، والعنتريات.. إن ما رووه عن جبنه، وقعوده عن الحرب ، كان شيئا كثيرا حقا . ننقل منه ، هنا ، بعضه ، لا لتأكيده ، أو التشفي من صاحبه ، فليس بيننا ، وبين حسان ، والحمد لله ، سوى صلات واهية من انسانية وقومية .. بل لتبيان هزاله وعدم صحته ، ورفع الظلم عن شاعر كل ذنبه انه كان مقطوع الاكحل لا يقوى على حمل السيف والقتال .

ولسنا هنا للدفاع عن بطولة حسان غير الموجودة ، او لاثبات عكس ما اتهم به . فنحن لا يهمنا ذلك اطلاقا ، بل كل ما يهمنا اظهار زيف تلك الروايات التي لفقت عن جبن حسان ، وتهافت حججها ، وانقطاع

(١) كان حسان مقطوع الأكحل كما علمنا وهو عرق في وسط الذراع . كما تؤكد ذلك روايات الثقاة . فكيف يحمل سيفا؟ وإذا حمله أنى له أن يحارب ويثبت في المعارك . .

اسـانيدهـا ، ومدى مـا لحق بالتـراث واعلامـه من تزويـر وتحريف .

من هذه الروايات :

جـاء في الكـامـل لابن الاثيـر[1] عن جبن حسـان ، في واقعة الخندق (الاحـزاب) : « وكانت صفيـة ، عمة النبي ، في فـارع[2] وكان حسـان فيه مـع النسـاء ، لأنـه كان جبانـاً . . (ولم يقل : مـريضا أو عـاجزا عن القتـال كمـا هو الـواقع) قـالت : فأتـانا آتٍ من اليهـود . فقلت لحسـان : هذا اليهـودي يطوف بنـا ، ولا نـأمنـه أن يـدل على عـوراتنا . فـانزل اليه فاقتله . فقـال : والله مـا انـا بصـاحب هذا ، قـالت : فاخـذت عمـودا ، ونـزلت اليـه فقتلتـه (. . .) ثم رجعت فقلت لحسـان : انـزل اليـه فخذ سَلَبَه . فانه يمنعني منه انه رجـل . فقال : والله مـا لي بِسَلَبِهِ مِن حاجة. الخ . .

على اننا لا ننكر تـولد حـالة تشبـه حالـة الجبن لدى اصحـاب العاهـات الجسديـة ، يسميهـا علمـاء النفس : الاسترخاء ، او الخـوف او القعود عن تقحم الصعـاب .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٢٥ .

(2) فارع : اسم حصن لحسان .

حسان يجبن حتى عن انتزاع اسلاب اليهودي بعد قتله .. هذا ، ان صحت الرواية، ليس جبناً على كل حال ، بل استرخاء او خوف وقعود قسري عن التقحم .. وهي حالة يبررها اليوم علماء النفس التجريبيون ، ويقولون انها تخلق لدى صاحبها شعوراً بالدونية Sentiment de moindre valeur يسعى معه أمثال حسان جاهدين ، الى اجتراح امور غير عادية ، او التطلع دائماً الى العلاء Sublimation لتغطية ذلك الشعور او التعويض عنه . وهذا ما فعله شاعرنا حين راح يحقق ، منذ اصيب ، امجاده الشعرية ويؤكد ذاتيته ، كشاعر اوحد للانصار ولسائر أهل اليمن ، ثم برز ، بعد اسمه ، كشاعر للنبي يكاد يكون اوحدَ ايضا ، مؤيدا « بروح القدس » على حد تعبير النبي نفسه ، مما زاده امتلاء بنفسه واستعلاء الى درجة انه تحدى حتى الخليفة عمر ، وكبار الصحابة ، وابطال المسلمين[1] ، متسلحاً بحماية النبي له ، وكونه شاعر

(١) يقول ادلر : اشهر علماء النفس الألمان : ان شعور الانسان بالدونية اي بأنه دون غيره ، من اعظم الدوافع الى العمل وبذل الجهد ، وان الغريزة المتسلطة هي غريزة السيطرة والتطلع الى العلو . وعندما يعجز الشخص عن إثبات ذاته واكتساب النفوذ الاجتماعي الذي يصبو اليه ، نظراً لعيوبه الجسمانية خاصة ، كقصر القامة ، او قبح الهيئة، او =

الانصار ، وسائر اهل المَدَر ، على حد تعبير ابي عبيدة ، حيث يقول[1] : اتفقت العرب على ان اشعر اهل المَدَر اهل يثرب ، ثم عبد القيسّ ، ثم ثقيف ، وعلى ان اشعر اهل يثرب حسان بن ثابت ، وانه شاعر اهل اليمن في الاسلام .

وهكذا تولد عند شاعرنا « المعاق » « فهم » تام « لحالته » فواجه سوءَ فهم الكثيرين لهذه الحالة ، بالصراحة التامة ، كما جرى له مع صفية عمة النبي ، وبالقعود في اطمه فارع ، مع النساء يوم الخندق . فقد تقمصت ، في لاوعيه ، تلك الحالة بحيث استطاع ان يتمثلها[2] ويهضمها ، فتجري معه في دمه وكيانه وشعوره ، ولا يرى فيها بأساً . .

الاحديداب ، او شلل في الاطراف (كما عند حسان) او ضعف في النظر ، او عي في اللسان الخ فانه يلجأ الى سبل مختلفة من التعويض ، قد تؤدي به احياناً الى التفوق والقيام بأعمال جليلة ، واحياناً اخرى الى اصطناع سلوك شاذ كالقسوة (كما في هجاء حسان) والاستبداد في ضعاف البنية الخ. والادعاء الكاذب والصلف (شيمة حسان تماماً عندما راح في أكثر مفاخره يتغنى بالقوة والبطولة في معارك لم يخضها .

(١) اغاني ج ٤ ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) من التمثل في التعبير السيكولوجي Assimilation .

وهـذا ما يؤكـده علماء النفس بقـول بعضهم : « انه كلمـا نجح المـرء في ان يُخرج الى ضـوء العقل ، كـلَّ مـا هو مختبىء في هـامش الشعور ، وان يـركزه في بؤرة الشعـور ، اصبح قـادراً على ان يملك زمام نفســه ، وان يحقق في شخصيتـه المثـلَ الأعـلى الـذي نـادى بـه سقـراط : اعرف نفسـك »[1] وحسـان عـرف نفسـه حين اخرج الى ضوء العقـل « كل مـا هو مختبىء في هـوامش مشــاعـره ، من احســاس بـالخــوف والنقص في كمـال جسـده ، فتعامـل مع نفسـه ، ومع الآخـرين ، على انـه انســانٌ سـوي ، وصـريـح ، وجـريء ، ومميـز ، وانــه يَشْغَـلُ ، بعيدا عن بـطولاتهم المادية ، حيزا اجتمـاعيـا واسلاميا وفنياً مرمـوقاً هـو البطولـة الحقة عينهـا . وحسبه بـطولة ، انـه جـاهـد في سبيـل ذلـك جهـاداً مـريـراً . . وفاز . .

قلت : انني حين انفي تهمـة الجبن عن حسان ، لا أود ان اضعــه بين الشجعـان ، فهــذا أمــرٌ لا يهمنــا ، نحن ، ولا يهمه هو ، كمـا لا يهم المعجبين بشعره ، او غير المعجبين .

---

(١) انـظر كتاب مبـادىء علم النفس العـام ، د. يـوسف مـراد دار المعـارف بمصر ط ٧ ص ١٨٢ .

فنحن قد نكره في ابن الرومي ، مثلاً ، تردده ، وخوفَه ، ووسواسه ، لكننا لا نملك إلا أن نهتفَ من اعماقنا لروائع وصفياته ، ودقة تصويره لخلجاته ، ومرثياته ، وابداعه في السخرية وتجسيد عيوب المشوهين ، والتافهين . .

ونحن قد نكره ، كذلك ، في حسان ،، اشياء كثيرة ، الا اننا لا نملك الا نعجب به كشاعر (جاهلي خاصة) في تصويره لمزايا ملوك الغساسنة وتلك الحياة الرخية التي عاشها في اكنافهم . وهذا الهتاف الحار لذكرياتها : لله در عصابة نادمتهم . . .

وجبن حسان كان ، كما سنرى ، فرية ، لا أساس لها من الصحة . . ومن الظلم ان يستمر هذا الجبن صفةً لازمة من لوازم حسان ، يأخذها المتأخر عن المتقدم على انها حقيقة . لا مراء فيها ، ولا اصطناع . . فانبرينا ، في هذه الدراسة ، لنرفع هذا الحيف عن شاعر ، كل عيبه ، انه كان مريضا ، مقطوع الأكحل ، وفي ذراعه بالذات . . وليس جباناً على الاطلاق . وعزاء هذا الانسان ، انه ليس اول ولا آخرَ مَن افترى عليه الرواة الملفقون الذين اساؤوا ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، الى التراث واعلامه ،

فشوهوا تاريخ الادب ، والفلسفة والدين بما اختلفوا ، ولفقوا . . غير انه لا يسعنا ، هنا ، ان نفيض في ذلك، كما فعل أحد المحققين المعاصرين[1] حيث عقد فصلا كاملا ، ملأ من كتابه نيفاً وستين صفحة ؛ اظهر فيه زيف الكثير من الروايات ، وتلفيق الرواة سواء في تاريخ الادب العربي ، وسيرة اعلامه ، او في الحديث النبوي ، وما دس عليه من نحل ، وتشويه ، واختلاق : منتهياً الى تهمة الجبن التي الصقت بحسان ظلما وبهتانا ، مرجحا بطلانها ، بعد مقارنات وتحقيقات قام بها خَلَلَ النصوص الواردة في المراجع المختلفة ، معتمداً منهجية علمية افتقر اليها القدامى ، وخانت اكثر المعاصرين . .

اليك ، بايجاز ، اهمّ اسباب الشك في صحة التهمة :

أولاً : ان قعود حسان عن المشاركة في حروب المسلمين ، وغزوات النبي لا يمكن ان يكون بسبب الجبن . فالاسلام لا يعترف بالجبن في الرجال ، ولا

---

(١) انظر: نظرات جديدة في تاريخ الأدب للدكتور أحمد لواساني الجامعة اللبنانية ١٩٧١ - بيروت.

يجيز للجبناء مثل هذا القعود ، لكي يسمح لحسان وغير حسان الا يشاركوا في قتال المشركين ؟ فلا استثناء في هذا المجال الا للعميان ، والعرج ، والمرضى ، كما تنص الآية الكريمة في سورة الفتح[1] . حتى الشيخوخة ، مع سلامة البنية ليست مانعاً في المفهوم الاسلامي الجهادي . وحسان كان فعلاً مريضاً اي مقطوع الاكحل في الذراع الضاربة . وهو سبب وجيه مقروناً بتقدم حسان في السن[2] .

ثانياً : كان لحسان خصوم في الجاهلية والاسلام ، وشعراء ألداء يهجونه ويهجوهم بأقذع الصفات . ومع هذا لم نجد أحداً منهم تناوله في جبنه وخوفه وتقاعسه . مع ان هذا الجبن لو كان صحيحاً لوفر لخصومه مادة دسمة للطعن والتجريح . كما فعل جرير ، مثلاً ، مع الفرزدق ، حين هجاه في وَهَن ساعده ، وضرباته الطائشة . وهذا ديوان حسان بين ايدينا ، وكثير من المراجع الأدبية كالاغاني ، والكامل ،

---

(١) الآية : ﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يطع اللّه ورسولَه يدخلْه جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتولَّ يعذبه عذاباً أليماً ﴾ .

(٢) كان حسان قد تجاوز الستين من عمره أيام الرسول .

ومروج الذهب ، والشعر والشعراء وغيرها ، فاننا لا نجد فيها شاعراً ممن هجوا حسان ، يوجه إليه تهمة الجبن . تناولوه في كل شيء ما عدا تهمة الجبن ، وهم مَن هم ضراوة في مصاولة حسان[1] ومقارعته الحجة بالحجة والتهمة بأقسى منها . وهذا الأخطل ينعته « بالجحش » حيث يقول :

وإذا نسبت ابن الفريعة خلتَهُ
كالجحش بين حمارة وحمار

ولعمري ان حسان كان يفضل ، الف مرة ، ان ينعت بالجبن على ان ينعت بأنه جحش بين حمارة وحمار . . او ان يطعن في نسبه ودينه . واخلاصه لهذا الدين ، على ان تنزع عنه صفة الانسان . .

ثالثاً : قصة صفية عمة النبي ، وقتلها ذلك اليهودي المتسلل (الى فارع) بعمود على رأسه ، او بين كتفيه . . وامتناع حسان ، لجبنه ، عن البروز له وسلبه ، قصة مضعوفة مقطوعة الاسناد ، مشكوك في صحتها من اساسها الى رأسها . قال محقق قديم هو

---

(١) امثال : قيس بن الحطيم ، وعبد الله بن الزبعري ، وضرار بن الخطاب ، والنجاشي بن الحارث وعمرو بن العاص ، والاخطل .

السهيلي في كتابه : الروض الأُنُف ، عن القصة اياها : « ومجمل هذا الحديث عن الناس ان حسان كان جباناً ، شديد الجبن ، وقد رَفَعَ هذا بعض العلماء وانكره ، وذلك انه حديث منقطع الاسناد ، ولو صح هذا لهجي به حسان الخ » .

رابعاً : اما قول بعضهم ، وهو ابن السراج بأن « سكوت الشعراء عن تعييره بذلك (اي الجبن) هو من اعلام[1] النبوة ، لأنه شاعره ﷺ » فهو قول متهافت وساذج « لأن كثيرين ممن خاصموا حسان وكانوا أهلاً لتعييره ، لم يكونوا يؤمنون بنبوة رسول الله ، وكانوا يلمون حتى النبي نفسه »[2] وقد رأينا ان مِن المسلمين مَن لم يكن يحترم في حسان حظوته من النبي ، او على احسن تقدير يتناساها ، كما فعل الخليفة عمر حين أخذ بأُذنِ الشاعر عندما سمعه ينشد شعراً في مسجد رسول الله صائحاً به « ارغاء كرغاء البعير »؟! ولولا جرأة حسان في جوابه المشهور : « اني والله كنت أنشد فيه مَن هو خير منك ، لهزىء بهذا حسان ، وأُخْزي .

---

(١) اعلام او علامات : معجزات .

(٢) نظرات جديدة في تاريخ الأدب ط ١ ص ٩٣، الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٧١.

وضربة صفوان له بـالسيف حتى فَلَقَ إليته ، ثـأراً منه على ما تأوله عليه الشـاعر في حـديث الإفك . كـل هذه المواقف من الشاعـر ، لا تشير الى ادنى احتـرام له ، او تقـدير لحـظوته من النبي ، وبـالتالي ، فـلا معجـزة ، او شبـه معجزة لجمت هؤلاء الخصـوم عن ايذاء الشـاعر ، وسحرتهم او اذهلتهم عن التعرض له ، ووصمه بـأية آفـة او نقيصة : كمـا ذهب ابن السـراج في قـولـه الى « ان سكـوت الشعـراء عن تعييـره بـالجبن هـو من اعـلام النبوة »! .

يـذكـر المحقق شـوقي ضيف : « ان النبي كـان من فـرط وثوقـه بحسان وايثاره له يـرفـع ازواجـه الى اطمـه (اطم حسـان) ، حين يخرج لحـرب اعدائـه »[1] . فما معنى هـذا بـالنسبـة الى جبن حسـان ؟ معنـاه ان النبي ، وهو ادرى الناس بحسـان ، لو كـان يعرف انـه جبان لمـا إئتمنـه على نسـائـه في غيـابـه . . إذ ليس ضـروريـاً أن يكـون الجبان في الحـروب جبانـاً مع النسـاء ! والعـاهـة النفسيـة تجر عـاهاتٍ ، وتخلق في الانسـان آفـات أقلهـا الكـذب والخيـانـة . فـالجبن يُعـرَف عنـد علمـاء النفس

(١) انـظر كتاب : العصـر الاسلامي د. شـوقي ضيـف ص ٧٨ دار المعـارف بمصر ط ١ ، ١٩٦٣ .

بأنه : « هروب من المواجهة القاسية » . وعاهة الكذب والخيانة التي يخلفها الجبن هي أيضاً : هروب من المواجهة وتزوير الحق والحقيقة . . والنبي الكريم من اكبر علماء النفس في عصره : فراسةً ، وسبراً ، وحذراً . . ثم إن الأمين يأتمن الأمين ، لا الجبان . . ويثق بالشجاع لا الرعديد . .

خامساً : صحيح أن حسان كان يتضور التياعاً وألماً ، حين يخاطب نفسه ، عَبْرَ صاحبته « شعثاء » في مثل قوله :

لعمر ابيكِ الخير يا « شعثُ » ما نبا
على لساني في الحروب ، ولا يدي

لكن هذا دفاع انسان نبيل تجنى عليه اللؤماء ، ونعتوه ، بما هو أقسى من الجبن ، وربما اتهموه بالنَسَوية ، اذا صح التعبير ، وبالتخنث ، والجلوس مع النساء في اطمه ، متجاهلين اسباب ذلك من مرض او نقص في الذراع ، وافتقار الى وسائل البطش والقتال . فعقّدوه ، حتى خالجه شعور دائم بالنقص والضعف والهوان ، فتصدى له بالنفي والتعالي حيناً ، والمكابرة والادعاء حيناً آخر ، خاصة امام حبيبته « شعث » أو

« شعثاء » . . وامام نفسه الأحب . وطالما تصاعدت من سويدائه ، وعلى أسلات لسانه السليط ، زفرات حرّى ، في شكل هجاء هجومي مرير : ما أبالي ، أنبَّ بالحزن تيسٌ أَمْ لحاني ، بظهر غيبٍ ، لئيمُ . . أو في شكل انكفاء على الذات ، واستسلام حزين ، هو السعادة كل السعادة ، في نظره ، حيث يتطهر بالبراءة ، والبعد عن الاذى :

وإن امرءاً يمسي ويصبح سالماً
من الناس ، الا ما جنى ، لسعيد[1]

حنينه الى عشراء الصبا (في الجاهلية) :

روى صاحب العقد[2] عن جَبَلَة بن الأيهم بن أبي شمر الغساني ، لما أراد أن يسلم على يد الخليفة عمر بن الخطاب ثم ما كان من أمر طوافه في الكعبة ، واصطدامه بأحد الاعلاج الذي وطىء ثوبه . . . ثم ارتداده عن الاسلام وتنصره . . الى آخر الرواية التي جاء في آخرها : « ثم التفت جبلة ، (في قصره بالقسطنطينية) الى الجواري اللواتي عن يمينه فقال :

---

(١) نظرات جديدة ص ٩٦ .

(٢) العقد ج ٢ ص ٥٨٥.

بالله اطربنني ، فاندفعن يتغنين ويقلن :

لله در عصابة نادتهم
يوماً بجلق في الزمان الأولِ

ويمضين في ترتيل قصيدة حسان :

يسقون درياقَ الرحيق ولم تكن
تدعي ولائدهم لنقض الحنظل
فلبثت ازماناً طوالاً فيهم
ثم ادركتِ ، كأنني لم أفعلِ
ولقد شربتُ الخمر في حانوتها
صهباء ، صافية ، كطعم الفلفل
يسعى علي بكأسها متنطفٌ
فيعلني منها ، ولو لم انهلِ
ان التي ناولتني فرددتُها
قُتلتْ ، قُتلْتَ ، فهاتها لم تُقتَلِ . .

وتتم لِجَبَلَة نشوتان : نشوة السكر ونشوة الشعر . وحين صحا منهما أراد ان يُسلم ولكن . . وها هو ، حسان ، بالرغم من اسلامه . لا يزال يكنُّ لعشراء الصبا ولدات العمر الأول حباً لم تمحه الأيام ، وحنيناً ما فتىء يخالجه وينعشه . يروى انه كان ماراً ليلاً بازاء قبر

صديقه القديم الحميم ربيعة بن مكرَّم[1] ، فاذا بناقته تنفر من حجارة القبر ، فتثير فيه هذه الحركة ذكريات هوى دفين لذلك النديم الأغر والفارس المُعْلَم الراقدِ تحت الثرى ؛ ينتهر ناقته وكأنه يوبخها على نفورها من تلك الحجارة الحرة الكريمة . قائلاً :

نفرتْ قلوصي من حجار حُرَّةٍ
نصبت على طَلْق اليدين وَهوبِ
لا تنفري يا ناق منه فإنه
شرِّيب خمر ، مُسْعِرٌ لحروبِ
لولا السفار وطولُ قفر مَهْمَهٍ
لتركتها تحبو على عرقوبِ

حقاً إن الحنين إذا تغلغل في كيان الشاعر، انهمر ، عند اول إشارة ، وأدنى إشارة ، وقوة التمثل والمشاركة تبرز في هذا الحوار الحميم يعقده الشاعر بين نفسه وناقته وقبر صديقه وما تنطوي عليه « حجارته الحرة » من ذات كريمة لبطل كريم أقل شمائله انه :

---

(1) هو ربيعة بن مكرم من بني فراس ... بن كنانة ، وكان يعقر على قبره في الجاهلية ، ولم يعقر على قبر أحدغيره.العقد ج ١ ص ١١٦ .

شريب خمر مسعرٌ لحروب[1] . فهي حجارة تندى بالخمرة ، وتتلظى بنار الشرف والكرامة . . وتجمع النقيضين وتتأبى على العدمين . . وينهض البطل الميت حياً رغم البلى . . ليعانق حنين الأوفياء . .

ويتريث حسان ليتلو على الضريح ــ الصديق صلاة غفران واعتذار ، ويسكب دمع وفاء وثناء . بهذه الأبيات الآيات التي ، ان دلت على شيء فوق هذا ، فانما تدل على ان العقيدة الجديدة ، مهما سمت وترسخت في كيان الشاعر ــ الانسان ، لا يمكنها ان تمحو فيه كياناً آخر أصيلاً ، وقيماً أخرى جليلة ، وذكريات شباب عاشه بكل أحاسيسه الأولى ، وبواكير صبواته ، في ذلك الزمان الاول الذي نادم فيه الأقيال والأبطال ، وارتشف معهم رحيق الصبا ، ورضاب الجمال . .

ولعل اسلام امثال حسان من الأوفياء ، هو عندي أروع وأثبت من اسلام غيره من الذين خلت قلوبهم من ثمالات الهوى والحب والحنين والوفاء . .

قد يداني حسانَ فارسٌ محب ، وبطل عاشق ،

---

(١) شِرِّيبُ خمر مُسْعِرٌ لحروبٍ : يختصر الشاعر بهاتين الصفتين أقوى وأغلى صفات البطولة والسيادة في الجاهلية .

لكن يتـدنى عنه ، حتماً ، فارس بـلا حب ، وبطل بـلا عشق ، ومؤمن بلا قلب . . وشاعر بلا ذكريات . .

حسان الجاهلي :

مع آل جفنة ، أقاربه ، الغساسنة[1] .

وكـانت إمـارتهم في الشـام حـاجـزاً بين أسيـادهـا الرومان ، وخلفـائهم البيزنـطيين ، وبين بدو الصحـراء ، تـرد غاراتهم ، وتسـاعدهم في حـروبهم ضـد الفـرس ، ومن كـان يؤ يـدهم من عـرب المنـاذرة فـي الحـيـرة بالعراق . وهكـذا نشأت إمـارتان عـربيتان متصـارعتان ، يُؤَمنُ ملوكهـا وامراؤهمـا مصالـحَ القيـاصـرة من جهـة، والأكاسرة من جهة أخرى . كمـا نشأت في شمـالي نجد إمـارة ثالثـة ، هي إمارة كنـدة دانت بالـولاء لملوك اليمن الحميريين .

(١) جـاء في تاريـخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨١ ما يلي : قـال المسعـودي : « سـار عمرو مـزيقياء حتى اذا كـان بـالشـراة بمكـة ، اقـام هنـالـك بنـو نصـر بن الازد ، وعمران الكـاهن ، وعلي بن حـارثة بن عمـرو بالازد ، حتى نـزلـوا بـلاد الأشعـريين ، وعـك ، على مـاء يقـال لـه غسـان بين واديين يقـال لهما زبيـدُ وزُمع ، فشـربوا من ذلـك الماء فسمـوا غسـان . وكانت بينهم وبين مَعَدّ حروب ، الى ان ظفرت بهم مَعَـدٌ ، فاخـرجوهم الى الشـراة ، وهـو جبـل الازد وهم على تخـوم الشـام ، مـا بينـه وبين الجبال يلي أعمال دمشق والاردن » .

وآل حفنة أو الغساسنة ، هم أيضاً من أصل يمني ، نزحوا مع مَن نزح من عرب الجنوب إلى الشمال ، كقبائل جذام ، وعاملة ، وكلب ، وقضاعة . اما جفنة ، ومنه الملوك ، فهو ابن عمرو بن عامر مزيقياء ، واخواه الحارث ، وثعلبة وهو العنقا (لطول عنقه) احد أجداد الشاعر حسان ، فليس مستغرباً ، إذن ، أن يمدحهم ويتغنى بمآثرهم ، وسطولاتهم . ولا سيما صديقه جبلة بن الأيهم الذي خصه شاعرنا بمدائح معروفة . وظل الاثنان على حب واعجاب متبادلين حتى بعد اسلام حسان وتنصر جبلة[1] .

وملوك غسان على التوالي هم : الحارث بن عمرو مزيقياء ، ثم الحارث بن ثعلبة بن جفنة ، وهو ابن مارية ذات القرطين ، وقد ذكرها حسان في شعره ، ثم النعمان بن الحارث بن جفنة ، وأبو شمر بن الحارث ، واخواه المنذران الحارث ، وجبلة ، وبعدهما عوف بن ابي شمر ، وفي عهده كانت بعثة الرسول . وقد كتب النبي الى الأحياء من هؤلاء الملوك يدعوهم الى الاسلام ، فلم يسلموا ما عدا جبلة بن الأيهم الذي

(١) انظر قصة جَبَلَة مع الخليفة عمر بن الخطاب في مقطع سابق من هذا الكتاب .

اسلم ثم ارتد وتنصر ، وهو آخر ملوك غسان[1] وجفنة هو الذي بنى جلق او جلولاء قرب دمشق ، وهي ليست دمشق كما توهم الكثيرون .

وتعد أيام الحارث بن جبلة « ازهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم في « بطرا » الى الرصافة ، شمالي تدمر[2] . اما ابنا الحارث الأصغر : النعمان وعمرو فقد كانت لهما جيوش جرارة تجوب نجداً والصحراء الشمالية ، وتدين لهما القبائل العربية الأخرى بالطاعة . وعمرو هذا هو الذي كثيراً ما خصه شاعرنا بمدائحه . ومنها المدحية الشهيرة التي ذكرنا بعض أبياتها ، ومطلعها :

اسألتَ اسمَ الدار، ام لم تسألِ
بين الجوابي[3] فالبضيع فحوملِ

إلى أن يقول :

---

(١) مجموع ملوك غسان أحد عشر ، على رواية المسعودي . واثنان وثلاثون على رواية ابن سعيد في تواريخ الأمم . وقد تحدر منهم « الشركس » بعد نزوحهم إلى القسطنطينية.

(٢) وهي غير رصافة بغداد بالطبع .

(٣) جمع لجابية الجولان ، ما بين دمشق الى الاردن .

لـلّه در عـصـابـة نـامـتـهـم

يـومـاً بجلق فـي الـزمـان الأول

ويبـدو ، من اخبـارهم ، ان الغسـاسنـة لم يكـونـوا اجـلافاً ، على بـداوتهم ، وسكناهم الـوَبَر ، بـل كـانـوا ذوي نعمـةٍ ويسر . وصف شـاعرنـا مجلسـاً من مجـالس جَبَلَة بن الأيهم . فقال : « لقد رأيت عشـرَ قيان : خمس روميات يغنين الرومية بالبرابط . وخمس يغنين غناء اهـل الحيـرة . وكان يفـد اليـه مَن يُغنيـه مِن العـرب من مكـة وغيـرهـا . وكـان اذا جلس للشـراب فـرشَ تحتـه الآس واليـاسمين ، واصنـاف الـريـاحين ، وضـرب لـه العنبـر والمسـك في صحاف الفضـة والذهب ، وأتي بـالمسـك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المنـدى إن كـان شاتيـاً ، وإن كان صـائفاً بُـطّنَ بـالثلج . واتي هـو واصحابه بكسـاء صيفية ، يتفضـل هو واصحـابه بهـا في الصيف ، وفي الشتـاء الفِراء الفَنَـك ، ومـا اشبهـه ، ولا والله مـا جلست معـه قط إلا خَلَعَ عليَّ ثيـابـه التي عليـه في ذلك اليوم[1] .

شاب في مقتبل العمر ، وإبان الـطموح الى الشهـرة

---

(١) اغاني (ساسي) ١٦/١٤.

والمجد الأدبي ، لا بد الا ان ينتجع مثلَ هذه المنتجعاتِ ، تخفيفاً من جفاف صحرائه ، وفراغ شبابه . فكيف اذا كان المنتجع غسانياً وعند انسبائه آل جفنة بالذات ؟.

إذن كان سهلاً عليه الاتصال بهؤلاء الانسباء والعيش معهم ، كما كان صادقاً الصدق كله في مدحهم ، وتصوير حياتهم في خشونتها ، وفي لينها ، وحروبهم في كرها وفرها ، وكان اكثرها كراً موفقاً تــوّجوه أخيراً في يوم حليمة ، الذي انتصروا فيه على المناذرة انتصاراً كاسحاً . حتى ذهب مثلاً ، فقيل : وما يَوم حليمة بسر[1] . تذكر سيرته انه كان يمكث في المدينة سنة ، وسنة عند ملوك غسان يصف ايامهم ويتغنى بمآثرهم وينال عطاياهم . ولا غرو ان يوفق في ذلك لأنه كان جزءاً لا يتجزأ من ذلك الجو الملكي العابق بالطيب من كل نوع ، وبالاريحيات من كل لون . .

---

(١) وحليمة : هي بنت الحارث بن أبي شمر الغساني . وجه أبوها جيشاً الى المنذر بن ماء السماء . فأخرجت حليمة لهم مركنا فطيبتهم . ويوم حليمة أحد أيام العرب المشهورة ، وهو يوم التقى المنذر الأكبر والحارث الأكبر الغساني . شرح الديوان ص ٢٠١ (البرقوقي) .

مداعبات :

وكثيراً ما كـان الحارث الغسـاني يداعبـه ليرى مـدى صدقه في صحبته لهم . قال لـه مرة : يـا ابن الفريعـة ؛ لقـد نبئت انـك تفضـل النعمـان (بن المنـذر اللخمـي) عليَّ . فقال : وكيف افضله عليك . فـوالله لقفاكَ احسنُ من وجهـه ، ولأمك أشـرف من أبيه ، ولأبـوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه. ولحرمانك انفـع من نـداه، ولقليلك أكثر من كثيـره ، ولثمـادك اشـرع من غـديره . ولكـرسيك ارفـع من سريـره ، ولجدولـك اغور من بحره ، وليومـك اطول من شهـره ، ولشهرك أمَـدُّ من حـوله ، ولحـولـك خيـر من حِقَبـه ، ولـزنـدك اورى من زنده ، ولجندك اعـز من جنده ، وانـك من غسان ، وانـه من لخم . فكيف افضله عليـك واعدلـه بك ؟. فقـال : يا ابن الفريعة ، هذا لا يُسْمَع الا في الشعر فانشد :

نـبئـتُ أن أبـا مـنـذر
يـسـاميـكَ لـلحـارث الأصـغـر

قـفـاك احـسـن مـن وجـهـه
وامـك خـيـر مـن الـمـنـذر

ويـسـرى يـديـك على عـسـرهـا
كـيمـنـى يـديـه عـلى الـمـعـسـر

وشتــان بيـنكـمــا فـي الــنـدى

وفي البــأس والخِيْــرِ والـمنــظر[1]

وتـراه حين يفتخر بنسبـه يمـدح الغسـاسنـة أيضـاً . ذلك لأنه منهم وفيهم :

ألــم تَــرَنــا أولادَ عــمــرو بــنِ عــامــرٍ

لنــا شــرف يعلو على كــل مــرتقي[2]

رســا فـي قــرار الأرض،ثـم ســمـتْ لـه

فــروعٌ تــســامـي كــلَّ نـجـم مــحـلق

مــلوك وابــنــاء الــمــلوكِ كــأنــمــا

ســواري نـجــوم طــالعــاتٍ بـمشــرق

ولا ينفـك حسـان مـربـوط الكيــان بمن كـانــوا هم الكيـان ، مهما بعـدت الأيام ، وشط المـزار ، فكـأنـه لا يجــد نفســه ، ولا يتحسس ذاتــه إلاَّ بهم ، رغم بعــده عنهم . وهــذه « شعثاء » تـذكره بهم فيتضـاعف حنينـه ، فينشد :

يــا لـقــومٍ ، هــل يقتــل الـمــرءَ مثـلي

واهــنُ الـبــطش والــعــظامِ سؤومْ[3]

---

(۱) الخِيْر : الكرم وقيل الشرف .

(۲) عمرو بن عامر هو : مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة .

(۳) يقصد صاحبته شعثاء .

هـمـهـا الـعـطر ، والـفِـراش ويـعـلو
هـا لـجـيـنٌ ، ولـؤلـؤ مـنـظـومُ
لـو يـدب الـحـولـي مـن وَلَـدِ الـذَ
رِ ، عـليهـا ، لأنـدبـتـهـا الكـلومُ
لـم تـفـقـهـا شـمسُ الـنـهـار بَـشـيء
غـيـر ان الـشـبـابَ لـيس يـدومُ
إن خـالـي خـطيبُ جـابـيـة الـجـو
لانِ ، عنـد النعمـان، حيث يـقـوم[1]
وأبـي في «سـميحـة»[2] القـائـل الـفـا
صـلُ ، يـومَ التفت عليـه الـخصـوم
وأنـا الـصقـر ، عـنـد بـاب ابي سـلمى
يـومَ نـعمـانُ فـي الكـبـولِ مقيـمُ[3]

ويـذهب في هـذه الانشـودة كـلٌّ مـذهب في الفخـر

(١) اراد بـالنعمـان بني جفنة أو الغساسنة . خـالـه : سلمة بن مخلد . الجابية : الحوض الكبير . الجولان : من أعمال دمشق على طريق مصر .

(٢) سميحة : بئر بالمدينة ، كانت لـلأوس والخزرج ، تحـاكموا عنـدها الى جده المنذر بن حزام .

(٣) ابن سلمى : النعمـان بن المنذر اللخمي . نعمان : هـو ابن مـالـك بن نوفل بن عـوف ، وكان حبسـه النعمان بن المنـذر ، فتوسط لـه حسان ، واطلقه .

والانتساب والمباهلة ، والتعريض بابن الزبعرى[1] ، وتسليط الأضواء على ذاته ومكانته ، وعظم شأن قومه من بني عبد الدار بنِ قصي ؛ رغم انه الصقر (السيد) عند باب النعمان بن المنذر . لكنه عند باب شعثاء عبد أسيرُ لحاظها وعطرها . يقتله غنجها ويذيبه جمالها ، وتغمره أضواء فتنتها ، ويصبيه ريعان شبابها . . لكن ، مهلاً ، يا شعثاء ، أيتها الجميلة المدلة : تأكدي أنك بصدودك وهجرك تسيئين الى هذا الجمال ، حين تستفيقين ذات مساء فإذا بهذا الجمال وقد ذوى بين يدي الزمن :

---

(١) هجا حسان ابن الزبعرى ، قبل ان يسلم هذا الأخير ، طبعاً ، وهو عبد الله بن الزبعري بن قيس بن عدي بن سعد القرشي . كان من أشد شعراء قريش على النبي وأصحابه . وكان من أشعر الناس على رأي ابن سلام . اسلم عام الفتح بعد ان هرب الى نجران فرماه حسان ببيت واحد كان كافياً ليعود من نجران ويسلم على يد النبي ويعتذر إليه فيقبل النبي عذره . هذا البيت هو :

لا تَعْدُ مَنْ رجلاً أحلك بغضه نجران في عيش أجد لئيم

وابن الزبعرى هو القائل في جاهليته ،

حياة ثم موتٌ ثم نشرٌ حديث خرافة يا أم عمرو

وهو القائل يمدح سيد قريش عمرو العلى (هاشم) . .

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

لم تفتها شمس النهار بشيء
غير أن الشبابَ ليس يدوم . .

وإذا بي أبدل جمالك بجمال آخر[1] وستندمين ، يومها ، اشد الندم . .

هكذا يجري حسان ، في الجاهلية ، على حرية مطلقة ، وبلهنية عيش وشباب ، تارة عند انسبائه الغساسنة وتارة عند المناذرة ، لكن النابغة كان يستأثر باعجاب هؤلاء وعطاياهم . فلم ينل عندهم شاعرنا ما تمناه ، وتارة ثالثة نراه يتنقل في الأسواق منشداً شعره ، وحين استمع اليه النابغة في عكاظ ، بعد ان استمع الى الخنساء ، قال له : انك لشاعر ، وانها لبكاءة . . وهو ميزان نقدي ، مزاجي ، كما ترى ، يصدر عن حكيم عكاظ وحَكَمِها دون تبصر او موازنة دقيقة . ميزان

---

(١) يروى ان حسان احب فتاة اخرى وتزوجها تدعى عَمْرة . وهي غير عِمرة بنت علقمة الحارثية التي خرجت مع زوجها من بني عبد الدار (في معركة أحد) فلما قتل اصحاب اللواء تُرك وبقيَ خارجاً لا يقربه أحد فأخذته عمرة هله ورفعته فاجتمعوا اليها ثم ارتدوا على المسلمين الذين انشغلوا بالسَلَب، وانقلب النصر هزيمة . اما عمرة صاحبة حسان فهي : عمرة بنت الصامت بن خالد بن عطية تزوجها حسان ثم طلقها ثم اتبعها نفسه . وهناك عمرة ثالثة شبب بها ة س بن الحطيم . وهي عمرة بنت رواحة اخت عبد الله بن رواحة أحد شعراء النبي .

بـدائي ، يعتمد البيت الـواحد ، او الشهـرة الغـالبـة ، او الميل الشخصي .

حوار غير متكافىء :

إذا صحت الـروايـة التي تقـول إن الخنسـاء انبــرت لحسان بالنقد حين سمعته ينشد النابغـة فخريتـه التي جاء فيها :

لنــا الجفنــات الـغــر يلمـعن بــالـضحى
واسـيــافنــا يـقــطرن من نـجــدةٍ دَمــا .

فقالت له على التو : لقد قلت : يلمعن بـالضحى ، وكان حقه الـدجى . وقلت : الغر ، وكـان حقه البيض ، ويقـطرن . وكان الاجمـل : يسلن او يفضن . وإذا صـح أن النـابغة دافـع عنه وأنصفـه ، وغلبـه عليهـا . . تكـون الخنسـاء ــ المرأة قـد وقعت بين شـاعـرين (رجلين) لا يعتـرفان بقـدرة المرأة يـومذاك على التفـوق في الشعـر . مع ان النابغة قال لحسان ناقـداً : « أنت شاعـر ، ولكنك أقللتَ أجفـانك ، وأسيـافك ، وفخـرتَ بمن ولـدتَ ولم تفخـر بمن وَلَـدَك». قـال الصـولي في أوراقــه: فـانــظر الى هـذا النقـد الجليــل الـذي يــدل عليـه نقــاء كـلام النابغة ، وذيباجة شعره ، لأنه قـال : واسيافنـا ، واسياف

جمع لأدنى العدد ؛ والكثير السيوف . والجفنات ، كذلك ، لأدنى العدد ، والكثير جفان . وترك الفخر بآبائه ، وفخر بمن ولد نساؤه .

وينضم الصولي الى ميزان النابغة ، وتبقى الخنساء وحيدة بلا منصف . . إلا من ذوقها المرهف ورقة شعرها وتدفق عاطفتها فيه . النابغة اوسي يحكك شعره ؛ والخنساء تفيض كما الينبوع ، ثم تنهمر كما الشلال . . كما تبرز ، أمامنا ، مثلاً ساطعاً لهاتيك الحرية المطلقة ، والجرأة الأدبية التي بلغتها المرأة الجاهلية قبيل الاسلام ، شاعرةً وناقدة .

حسان والمناذرة :

إذا كان سهلاً عليه الاتصال باولئك الغساسنة الانسباء ، وإذا كان صادقاً الصدق كله ، في مدحهم ، وتصوير حياتهم في خشونتها ولينها ، وحروبهم في كرها وفرها ، فهل كان سهلاً عليه وبنفس اليسر ، الاتصال بالمناذرة وهم أعداء الغساسنة ؟ .

لن يكون ذلك سهلاً على الاطلاق ، ومنتجع الحيرة غير منتجع جلق او الجابية او بصرى ؛ وملوك المناذرة الكسرويون عقلية وعيشاً وطريقة حكم وسرعة

غضب ، هم غيـر ملوك الغسـاسنـة الانـعم والألـطف والأحب والأثبت . . غيـر أن همة حسـان ، وشاعـريته ، وطمـوحـه ، أبت إلا أن يـظل شـاعـر البلاطـات ، على تخوم الجزيرة : غساسنة كانوا أم مناذرة . لكن الْنـابغة ، هنـاك ، بالمـرصاد . ومـا هي ، في حسبانـه ، الا خطوة أولـى ويتـم اللقـاء ، وتـحـقـق الـشـهـرة ، ويـرتـوي العطشانـان : عطش النعمـان الى الاستقطاب ، والشـاعر الى زحزحة النابغة . . ولكن هيهات ! .

خـطوة أولى يتيمة: جـاء في العقد[1] « وفـد حسان بن ثـابت على النعمان بن المنـذر[2] قال : فلقيت رجـلاً ببعض الـطريق . فقـال لي : أين تـريـد ؟ قلت : هــذا الملك . قال : فإنـك إذا جئته متـروك شهراً ، ثم شهـراً آخـر ، ثم عسى أن يـأذن لـك . فـإن أنت خلوتَ بـه

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) هو النعمان الثالث الملقب بأبي قابوس ، وهـو ابن المنذر الـرابع . جـاء في الأسـاطير : أن النعمـان احتكر زراعـة ذاك النـوع من الزهـر البـري الأحمـر ، فلا يـزرع الا في حديقتـه الملكية حتى عـرف بها وعـرفت به فقيـل : شقائق النعمـان . ولكن هناك اسـطورة اقدم عهـداً من النعمـان يجعل الإلّه ادونيـس (تموز) ينقلب زهرة من شقـائق النعمان حين خـرج للصيـد وهاجمـه خنزيـر بري ، فـانفذ نـابه في جسمـه وقتله . ولا يـزال الإلّه أدونيس يعرف بهذا اللقب الى يومنا الحاضـر انظر . تـاريخ العـرب المطول د. حتي . جبور . ج ٤ ــ ١٩٥٨ دار الكشاف ــ بيروت .

واعجبتَه ، فأنت مصيب من خيراً ، وان رأيت ابا أمامة النابغة ، فاطعنْ ، فإنه لا شيء لك ، قال : فقدمت عليه ، ففعل بي ما قال . ثم خلوتُ به ، واصبتُ مالاً كثيراً ، ونادمته . فبينما أنا معه ، إذا رجل يرتجز ، حولَ القبة ، ويقول :

أنامَ ؟ أم يسمع رب القبة
يا أوهبَ الناسِ لعنس صُلْبَة
ضرابة بالمشفر الأذية
ذات نجاء ، في يديها جذبة

فقال النعمان : أبو أمامة ! ائذنوا له . فدخل ، فحياه ، وشربَ معه ، ووردت النَّعَمُ السودُ ، ولم يكن لأحد من العرب بعيرٌ اسودُ غيره ، ولا يفتحل احدٌ فحلاً أسود . فاستأذنه النابغة في الانشاد . فأذن له . فأنشده قصيدته الشهيرة التي يقول فيها :

فانك شمس والنجوم كواكب
اذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السود برعاتها . . فقال حسان : « ما حسدتُ أحداً ، قط ، حسدي له في شعره ، وجزيل عطائه » .

الخطوة الثانية :

لكن حسان ما زال بهم حتى قدموه ، واستمعوا إليه ، خاصة بعد أن غضب النعمان أبو قابوس على النابغة ؛ حسب القصة الشهيرة التي تروي حكاية علاقة النابغة بالمتجرِّدة امرأةِ النعمان ووصفه لها بما لا يليق . . لكن ، ظهر ، ان المنخل اليشكري ، أحد شعراء البلاط ، هو الذي أراد أن يزيح النابغة عن عرش الشعر ، في ذلك البلاط ، فلفق تلك الرواية متهماً النابغة ظلماً وافتراء . وكان ان غضب النعمان على النابغة ، قبل التحقق ؛ ذلك الغضب الذي جعل النابغة يلتجىء إلى الغساسنة ، فيمدحهم معرضاً بالمناذرة . غير أن التهمة والغضب أقضا على النابغة مضاجعه ، فراح يطلق أروع قصائده في تصوير خوفه من الملك النعمان ، معتذراً عن هربه ولجوئه إلى خصومهم ، بقصائد مشهورة سميت بالاعتذاريات . وفيها تظهر براعته ، وصدقه في وصف تلك التجربة الرهيبة التي مر بها . . الى ان رضي النعمان بعد ان اكتشف صدق الشاعر وخيانة المنخل مع المتجردة ، فيقتلهما معاً ويستقدم النابغة ويرضى عنه .

أثناء ذلك اطلق حسان في المناذرة بعض مدائحه

التي تفوح منها رائحة المصلحة الشخصية . وهي ليست من الجودة والصدق بمنزلة غسانياته طبعاً . وكثيراً ما كان يفخر ، فيها ، بنسبه مادحاً الغساسنة والمناذرة معاً ، الذين كانت بينهم قرابة في النسب . لكن هذه القرابة لم تمنعهم من الاقتتال ، والتنافس في حكم عرب الجزيرة . قال يعدد أبطال القبيلتين :

كجفنة ، والقمقام عَمروِ بنِ عامرٍ
وأولاد ماء المزن، وابني محرق[1]

لم يطل المقام بحسان عند المناذرة وعاد إلى الغساسنة بعد أن تركهم النابغة . حتى أدركه الإسلام وهو في المدينة ، بعد هجرة الرسول إليها . فأسلم مع الأوس والخزرج . وما لبث أن أصبح شاعر النبي الأقرب ، والأكثر حظوة .

لماذا ؟ والشعراء أيام النبي كثيرون ؟ جاء في

---

(١) جفنة : هو ابن عمرو اول ملوك الغساسنة وقد تقدم تعريفه. القمقام : السيد الكثير الخير ، الواسع الفضل . أولاد ماء المزن : أولاد ماء السماء ، وهو لقب عمرو بن مزيقياء لأنه كان كماء السماء يمون قومه في الجدب وابن ماء السماء هو المنذر الثالث . وماء السماء لقب امه مارية او ماوية . وهو والد عمرو بن هند . وهند هذه : اميرة غسانية نصرانية . وهي التي بنت الدير المعروف باسمها في الحيرة . انظر : تاريخ العرب المطول لحتي .

العقد[1] : شعراء النبي البارزون هم : حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن الزبعري (بعد أن أسلم) وعبد الله بن رواحة ، ومن كبار الصحابة شعراء مميزون كأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب : كان راوية للشعر أكثر منه شاعراً . . وعلي بن أبي طالب ، وكان أشعر الثلاثة ، وعمر بن العاص ، وأبو حمزة وأنس بن مالك خادم النبي وغيرهم كثير » . لكن كبار الصحابة هؤلاء صرفهم عن قول الشعر دورهم الخطير في نشر الإسلام ، والذب عن حياضه ، وقتال المشركين ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت للانصراف الى قول الشعر : فمن قتال ، الى بعثات ، الى اقامة صلاة وحدود ، الى خطابة ، الى الاهتمام ، مع النبي وبعده ، بتأسيس دولة الاسلام ، وترسيخ بنيانها الحديث ، الى الاستغناء بالقرآن الكريم عن كل ما دونه من النثر والشعر . ثم ان النبي اضطر الى اصطناع الشعراء ، بعد ان اشتدت وطأة شعراء المشركين عليه . وقد اتهم النبي من قبل المشركين بأنه « شاعر مجنون » (اي يستمد وحيه من الجن . .)

---

(1) ج ٥ ص ٢٨٣ .

فنـزلت الآية بنفي التهمـة ، وتبعتها آيـات[1] . فلا يعقـل ان يقـول هؤلاء الشعـر او يـروجـوا لـه[2] . فقـد اصبـح الاسـلام غذاءهم الـروحي اليـومي ، والقـرآن ريـاضتهم الفكرية والشعورية الدائمة .

ولا يكـاد حسان ينفـرد بـزعـامـة الشعـراء ، بعـد ان اطلق النبي لهم العنـان في هجـاء مشـركي قـريش ورد

---

(١) كمـا في الآية : ﴿ ويقـولون أئنـا لتاركـو آلهتنا لشـاعر مجنـون ﴾ سورة الصافات ٣٦ .
والآية : ﴿ بل قالوا اضغاث احلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ﴾ سـورة الأنبياء ٥ .
والآيـة : ﴿ أم يقولـون شاعـر نتربص بـه ريب المنـون ﴾ سـورة الـطور ٣٠ .
والآية : ﴿ وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ﴾ سورة الحاقة ٤٠ .

(٢) علمـاً بأن كبـار الصحابـة لبثوا شعـراء ونقـدة شعـر ، يـروونـه ويعلقـون عليه . واحياناً ينظمونه . وقـد نسب الى الامام علي ديـوان شعر ، ولكن الثـابت ان له مقـطوعات وشـذرات شعريـة ابتهاليـة وحِكَمية كثيـرة اثبت منهـا صاحب كتـاب: « اعيان الشيعـة » والـبلاذري مجمـوعـة لا بـأس بهـا . وذكر الجـاحظ في البيان والتبيين وفضـائـل بني هـاشم ان الامـام علي كـان اشعر الصحـابة وأخـطبهم . ويـذكـر المـرزبـاني في « معجم الشعراء » شعراً كثيراً للإمـام . في حين ان الزمخشـري لا ينسب للامـام سوى بيتين من الشعر هما :

تـكلم قـريش تـمنـانـي لتـقتـلني	فـلا وربـك مـا بـروا ومـا ظفـروا
فـإن هـلكت فـرهـنٌ ذمتي لـهـمُ	بـذات ودقين لا يعفـو لـهـا أثـرُ

افتـراءاتهـم ، حتى يتفوق عليـه كعب بن زهير ، وينتـزع منه هدية النبي الكبرى : بـردته الشـريفة ، وكـذلك كـان عبد الله بن رواحة ، شاعراً ومناضلاً .

ولعل تبوأه لتلك المكانة السامية لدى الرسـول ﷺ ، كـان ناتجـاً عن كونـه قـريب النبي وزوج سيـرين شقيقـة مارية القبـطية زوج النبي وأم ولـده إبراهيم ، من جهـة ، ومن جهـة أخـرى كـونـه كبيـر الشعـراء سنـاً ، وأقـدمهم شاعرية ، ومعرفة بأنساب المشركين خـاصة بعـد ان امده ابو بكر بمعلومـات قيمة عنهـا ، استطاع بهـا ان « يسله » (اي النبي) من بينهم ، كمـا تسـل الشعـرة من العجين على حـد قولـه ، وكونـه لا عمل لـه تقريبـاً ، ولا مقـدرة عنـده إلا على الشعـر ، بعـد أن علمنـا مـرضـه وضعفَـه الجسـدي ، وانـه كـان مقـطوع الاكحـل . فكـان النبي ألطفَ به من نفسـه ، فصرفـه عن كل جهـد ومجاهـدة ، وجعله يتفـرغ لهجـاء المشـركين والـدفـاع عن الاسـلام « مؤيـداً بروح القـدس » كمـا قـال لـه يـومـاً . . لا لأنـه جبـان ، كما زعمـوا ؛ وقد أظهـرنا زيف تلك التهمـة في فصل سابق .

هزال هذا التفوق فنياً :

بيد أننا ، رغم شهادة الكثيرين من مؤرخي الأدب ، قديماً وحديثاً ، الذين تبرعوا ، بمجانية مطلقة وبسخاء حاتمي ، فاطلقوا على حسان نعوتاً وألقاباً كثيرة ، أقلها أنه أشعر أهل المدر ، وأشعر أهل اليمن ، وشاعر النبي الأول والخ .. لا نرى لحسان أحقية مطلقة بهذا التفوق ، ولا استحقاقاً .. لا من حيث الصياغة ، او العمق ؛ ولا من حيث الجدة والابداع .. كل مدائحه النبوية ، وهجائياته في المشركين ، كانت تدور ضمن إطار روتيني كلاسيكي من المباني والمعاني المكرورة ، لا جدة فيها ، ولا إثارة ، ولا تنوع ، ولا خيال رفيع . ولعل ذلك عائد ، في نظري ، إلى نضوب شاعريته ، بعد أن شاخ ، وإلى ان الاسلام ، فيه من الغنى والوضوح والقوة والجدة ، بحيث لا يحتاج معها الشاعر الى المبالغة التي تزوق الواقع وتجمله ، وتصبغ الحقيّقة الساطعة بصور الخيال ، وتهاويل الجمال .. وتفاجىء القارىء بما لم يكن بالحسبان .. كان الاسلام هو المفاجأة الكبرى ، التي أخرست الشعراء ، وأقعدتهم عن أن يزيدوا شيئاً عليه والقرآن آيته العظمى .. فكأنه جاء يسلب الشعراء أدواتهم ،

وسننهم بما حمل من عناصر الدهشة ، والفكر والصورة والاعجاز . . فبماذا يمدح حسان ، وغير حسان ، هذا الدين ، وهو فوق مدحهم ، وفوق مجال خيالهم ؟ وماذا يضيفون على صفات النبي وشمائله.وهو الانسان الفوقي الذي عناه الشاعر بقوله:

واذا استطال الشيء قام بنفسه
وضياء نور الشمس يذهب باطلاً

لذلك جاءت معاني مدائح حسان وسواه ، معادة لا جديد فيها، ولا تشويق ولا إثارة، من الناحية الفنية.

كان حسان في الجاهلية يقدح زناد فكره ، ويثير عجاج خياله حين يتغزل أو يمدح أو يهجو أو يصف فيأتي شعره عن تجربة معاشة ، ومعاناة في جو من الحرية المطلقة ، متاحة للخيال كما هي متاحة للإنسان . أما مع الإسلام فأمر الشعراء يختلف : أنهم ، من جهة ، أمام عقيدة متكاملة ، وصاحب عقيدة كامل ، وعبقري سوي . . ومن جهة ، امام حد فاصل أو (خط أحمر كما يقال اليوم) لا يتعدونه ، وامام التزام وشبه جبرية ، وبتعبير آخر : امام حرية محدودة لا مجال معها للتلاعب او الكذب او التزوير

وحتى التـزويق ، او الخوض في مـوضوعـات محـرمـة او متعارضة مع الذوق والقيم الجديدة .

ثم ان الجـو الاسلامي العـام ، خـاصـة في بـدء الدعوة ، ليس جواً شعرياً ، يسترخي معـه الممدوح على عرشه واريكته وطنافسه وهات يـا شاعـر ويا مـطرب وابدأ بإحراق مبـاخرك وكـرامتك على قـدمي سيدك . . بـل هو جو مهيب ، وجدي ، مشحـون بروح الثـورة والجهاد . . جـو قـرآني ، لا مجـال معـه للتغيش والادعـاء ، ونبش الاعـراض ، والقذف . . كـل المجال للوسـطية في كـل شيء . . . والشعـر ، كما نفهم ، ونعلم ، تجـربـة حـرة مبـدعـة ، لا مجـال معهـا للتـوسط أو الانحـدار عن الوسط ، لا سيما في مواجهة الحقـائق المرفـوضة والقيم الفـاسدة . . يمـوت الشعـر حين يـواجـه الحقيقـة بتهيب والتزام وحذر وحياء ، فلا يخترق ، ولا يُغير . .

وهكـذا مات الشعـر ، كظاهـرة فنية تـطويـريـة ايـامَ الاسـلام الاول ، وَجَمُدَ عنـد حـدود سننـه الاولى . بـل لقـد تـأخـر الشعـر وانحـدر الشعـراء ، ايـام النبي ، فلم يبـدعـوا ولم يجـددوا ، وراحـوا يـدورون حـول الحقيقـة الجديدة ، ولا يدخلون رحابها أو يتفاعلون معها.

ولو كان الشعراء بدرجة من الوعي والحرية والثقافة لنظروا الى الدين الجديد ، كظاهرة اجتماعية ابداعية ، جاءت لتنتشل الانسان ، كل إنسان من وثنيته ، وهوانه ، وعبوديته ، وراحوا من هذه الزاوية يطرونها ويتباهون او يتماهون بها ، كمصدر جديد من مصادر استلهامهم ووحيهم .. لو فعلوا ذلك لكان لنا ، منهم ، شعراء دعوة حضاريون مبدعون .. لكنهم كانوا أدنى من هذا المستوى بكثير ؛ وكانت الدعوة ابعد واعمق من مجال فكرهم وخيالهم .. وعذرهم الوحيد ان اشعتها النورانية المنبثقة في منارة القرآن وشخصية النبي ، وفدائية حوارييه، كانت أقوى من أبصارهم ، فسقطوا كالفراشات حولها ، وظلوا ، بلا أشرعة ، على شاطىء بحرها العباب ، يلتقطون أصدافه بانتظار عودة البحار ليبحروا معه .. ولكن هيهات! .

لم يستطع ، إذن ، خيال هؤلاء الجاهلي أن يلحق بابعاد الدين الجديد ، وان ترقق من حواشيه ، فظل مادياً ، مغرقاً في ماديته ، سادراً في غلوائها لا يريم .. وظل حسان مع رفاقه ، من شعراء النبي ، جاهلي الصورة ، والصياغة والخيال ، متمسكين بتلك النمطية الجاهلية في الوقوف على الاطلال ، ووصف

الناقة ، أو الفرس ، وعناء السفر للوصول الى مكة او المدينة . . ولم يتغير عندهم سوى الموضوع . . فاستبدلوا الملك او الأمير او السيد بالنبي ، وراحوا يصفونه بنفس الصفات التي كانوا يسبغونها على الملك او الأمير او السيد . . وقلما استمدوا من شخصية النبي معاني جديدة : كالانسانية والابوة ، والرحمة والعفو والسماح ، وسمو الروح والفكر والتجرد والانقاذ ، والدعوة الى السلم ، والمساواة بين البشر . . وغير ذلك من الشمائل الجديدة التي دعا اليها الاسلام ونبي الاسلام وكرسها في حياة المسلمين وسيرتهم . . بل ظلوا يلوبون حول شخصية النبي كزعيم او سيد قبلي . . فهو : بطل ، كريم ، مشرق الوجه وضاح الجبين ، رفيع العماد ، طويل النجاد ، كثير الرماد . . إذا ماشتا . . تماماً كصخر الخنساء ، أو من شابه صخراً في نخوته ، وكرمه وبطولته . . وأمثالها من الصفات المعروفة التي لم تكن شيئاً مذكوراً امام صفات النبي وشمائله الربانية وخلقه العظيم . . وشيمه الانسانية الفذة . . وبالتالي : لم يصل إلينا النبي من خلال شعرهم ، كما وصل إلينا من خلال الفكر العربي والمفكرين العرب . . ثم من خلال الفكر العالمي . .

ذلك ان العقل العربي استطاع ان « يفهم » النبي ، كما يجب أن يفهم ، في حين ان القلب العربي لم ينفعل كفاية والشعر حديث القلب والروح : فإذا لم يمتلئا بما يوحي ، وبما يثير ، فبأي حديث ترى ، يحدثان؟! .

كان هجاء الشعراء المسلمين للمشركين بتكليف رسمي من النبي ، ولم يكن تلقائياً أو ذاتياً ، ومدحهم للنبي كان تقليدياً روتينياً . . فجاء أدنى بكثير من مستوى الشخص الممدوح ، ومن رسالته . .

ولولا تشجيع النبي لشاعره حسان ، وتأييده بروح القدس وتسليحه بخبرة أبي بكر في أنساب قريش ومثالب المشركين ، لما استطاع الاقلاع . . ورغم كل المنشطات والاغراءات واهدائه سيرين ، لظل يهذي باهوائه واشعاره الجاهلية و « يرغي » في انشادها « رغاء البعير » . . على حد قول عمر له . .

إليك نموذجاً هشاً من مدائح حسان ، مع أنه مؤمن ، لا شك في ايمانه ، وقريب الرسول وسيد شعراء اليمن و « اهل المَدَر » كما قالوا عنه ، وطالما طاف على اطراف الجزيرة ، وتأثر بالحضارات القديمة التي كان يمثلها الغساسنة والمناذرة والفرس والروم ،

ويتأثرون بها عيشاً وفكراً وأدباً . . قال يمدح النبي :

أغـرٌّ، عـليـه لـلنـبـوةِ خـاتـم
من الله مشهـور، يلوح ويشـهـد[1]

وضـم الإلـه اسـمَ الـنـبـي الى اسـمـه
إذا قـال في الخمس المؤذن: اشهـد

وشـق لـه مـن اسـمـه لـيـجـلـه
فذو العرش محمـودٌ، وهـذا محمـد

نـبـي آتـانـا بـعـد يـأس، وفـتـرة
من الرسل، والأوثان في الأرض تُعبدُ[2]

(١) اغـرّ : كريم الافعال . والأغـر من الغـرة بياض في الوجه . جاء في شرح الديوان (للبرقوقي) : وقوله عليه للنبوة خاتم من الله ، يجوز ان يكون المراد عليه من اشراقه وتلألؤه ، ومن جميع خصاله طابَع النبوة يلوح ويُشاهَد . او ان يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته ، وخاتم النبوة قيل : انه شامة خضراء او سوداء محفرة في اللحم . وقيل : كغدة عند غضروف كتفه اليسرى . قيل : ولد عليه السلام به . وقيل : بعد ان وُلِد ــ او هو اشارة الى انه خاتم النبيين . الحاشية ص ١٣٤ .

(٢) اصـل الاوثان عنـد العرب : كـل تمثال من خشبـة او حجارة او ذهب او فضـة او نحاس، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . وقـد سمى الأعشى الصليب يعظم النصارى وثنا وقال :

تـطوف العفاة بـابوابـه   كطوف النصـارى ببيت الـوثن: اراد الصليب

وقـال عـدي بن حـاتم (وكـان نصـرانيـاً) : قـدمتُ على النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقـال لي : الق هـذا الـوثن عنـك . وبعضهم جعل الصنم والوثن واحـداً ، وآخرون فـرقوا بينهمـا ، قـال ابن الأثيـر : ــ

فـامسي سـراجـاً مـستنيـراً، وهـاديـاً
يلوح كمـا لاح الـصقيـل الـمـهـنـد
وانـذونـا نـاراً ، ويـبشـر جـنـة
وعلمنـا الاسـلام ، فـالله نـحـمـد
وأنـت إلـه الـخـلق ربـي وخـالـقـي
بـذلـك مـا عمـرتُ في النـاس ، أشهـد
تعـاليت رب النـاس عـن قـول مَن دعـا
سـواكَ إلـهـاً ، أنـت أعـلى وأمـجـد
لـك الـخـلقُ والـنـعـمـاء والأمـر كـله
فـإيـاك نـستـهـدي ، وإيّـاك نـعـبـد

النبي محمد خاتم الأنبياء ، واسمه مشتق من اسماء الله الحسنى ؛ يصلي عليه ربه وملائكته خمس مرات في اليوم ، إذ يقول المؤذن : إن الله وملائكته يصلون على النبي . كما يذكره اسمه بجانب اسم الله خمس مرات كذلك . كلما قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلاّ

= الفرق بين الوثن والصنم ان الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض . او من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تُعمل ، وتُنصب ، فتُعبد . والصنم : الصورة بلا جثة . ويقول شفيق المعلوف في كتابه : عبقر نقلاً عن الجاحظ : « في بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة » . ولم يقل الأصنام . وهذا يعني ان الجاحظ كابن لأثير ، يفرق بين الوثن والصنم .

الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسـول الله . وقد جاءنا ، يقـول حسـان ، بعد انتـظار ، سراجـاً منيراً تلمـع حنايـاه لمعانَ السيف الصقيـل ، جاءنـا هاديـاً ونذيـرا . . وكلها ، كمـا تـرى ، معـان وصـور وعبـارات مـأخـوذة من القـرآن الكريم . . ثم ما أسرع ما يختصر الشاعـر المديـح ليعود إلى رب العـالمين ليمـدحـه ويشكـره ويتعبـد لـه ، في ابتهالية بسيطة لا حرارة فيها ولا توتر . .

إن أي شـاعـر إسـلامي مثـل حسـان لن نجـد عنـده سـوى إثبـات هـذه الصـور والمعـاني تتكـرر بـألفـاظهـا وحـروفها تقـريباً عنـد شعراء النبي كعبـد الله بن رواحة ، وكعب بن زهيـر والنابغـة الجعدي ، وسـواهم . . ويـظل النبي امـامهم ، هوايـاه ، كما نعـرفـه من سيـرتـه ، ومن القـرآن . فـلا هـو استجـال رمـزاً كبيـراً ، ولا مصلحـاً اجتماعياً خطيراً ، ولا ثائراً من ثـوار الانسانيـة في مطولـة تضج بالمعـاني الملحمية والصـور المثيرة ، حتى تقـارب الخارقة . . كل ما نجده انه انسان مهيب ، قوي ، يلمـع كـالسيف ، وانه بشيـر ونذيـر ، وسـراج منيـر . . الى مـا شـابه هـذه الصفـات المـأخـوذة ، ببـرودة ، من قـامـوس المـدح في الجـاهليـة . . ويـا ليتهم استـرسلوا في ذلـك وتعـدوا الأبيـات القليلة التي لا تفي بجـانب واحـد من

جـوانب عـظمـة النبي وغنى شخصيتـه ، ولست أدري ، كيف أن حـربـاً قبليـة ضئيلة كحـرب البسـوس أو داحس والغبراء تُنظم فيهما ، قبيل حسان ، المعلقات الـطوال ، ولا تنظم في حروب النبي وانتصاراته ، ودعوته الانقـلابية الخـطيرة، قصـائـد طِـوال، ومـلاحم ضخمـة تنـطلق من الحقيقـة الـرائعـة الى الخيـال البعيـد ؟! لست ادري اذا كان السبب ، كما قلنـا ، هو الجـو الديني الضـاغط على الشعـراء ، ام هو نضـوب شاعـريـة حسـان ، ورفـاقـه ، وضيق افقهم . .

ام معبد أشعر !

ولعمـري ان امرأة بـدوية لا تعـرف النبي محمد قـد وصفتـه وصفاً يفـوق في دقته وصـدقه كـلَّ مـا وصفـه بـه هؤلاء الشعـراء جميعاً . انهـا ام معبد الخـزاميـة[1] التي مرَّ بها النبي مهاجراً من مكة إلى المدينـة مع صـاحبه أبي بكـر ومولاه عـامر بن فَهيـرة ، والدليـل الليثي عبد الله بن الأريقط . ومـا كان من معجـزة النبي مع شـاة أم معبـد .

(١) هي عاتكة بنت خـالـد ابن منقـذ بن ربيعـة . . . بن حبشيـة ، خـزاعيـة كعبيـة صحابيـة . وكانت نـازلة بخبـاء في طريق المـدينة . وقصتهـا مـع رسـول الله ﷺ مشهورة مـرويـة بتـواتـر وأسنـاد . وحبيش بن خـالـد هـو أخوها .

وكانت عجفاء لا يدر لبنها ، فمسح النبي ضرعها ودعا ربه ، فإذا بلبنها يتدفق ليرتوي منه الجميع . . . وحين عاد زوجها من الرعي ، ورأى اللبن ، عجب ، وقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاء عازب ، حِيال ، ولا حلوبَ في البيت ؟ قالت : لا والله . إلا أنه مرَّ بنا رجل مُبارك ، من حاله كذا وكذا . قال : صفيه لي يا أم معبد. قالت : رأيت رجلاً ظاهرَ الوضاءة[1] ابلجَ الوجه[2] حسنَ الخَلْق ، لم تَعِبْه ثجلة[3]، ولم تُزْرِ به صعلة[4] وسيما قسيما[5] في عينيه دَعَجٌ[6] وفي أشفاره وَطَف[7] وفي عنقه سَطَع[8] وفي صوته صَحَل[9]

---

(١) الوضاءة : حسن الوجه ونظافته . ومنه اشتقاق الوضوء .

(٢) ابلج الوجه : مشرق الوجه . يقال تبلج الصبح اذا اشرق وانار .

(٣) لم تعبه ثجلة : لم يعب بالترهل . الثجلة : استرخاء البطن .

(٤) الصعلة : صغر الرأس . وفي رواية : صقلة . وهي الخاصرة ، تريد أنه ضامر الخاصرة .

(٥) القسيم بمعنى الوسيم . تقصد أن كل موضع منه أخذ قسماً من الجمال .

(٦) الدعج : شدة سواد العين . او سواد السواد . والحَوَر : بياض البياض .

(٧) الوطف : طول شعر اشفار العين .

(٨) السطع : الطول ، عنق سطعاء : طويلة .

(٩) الصحل : كالبحة . تريد انه ليس بحاد الصوت .

وفي لحيتــه كثــاثــة[١] أزَجّ أقــرن[٢] إن صمت فعليــه الوقار ، وان تكل سَمَاه وأعلاه البهاء . فهو أجمل النّـاسلى وابهــاهم من بعيـد ، واحسنهم واجملهم من قــريب . . حلو المنـطق فصلٌ ، لا نَـزْرٌ ، ولا هَذْرٌ[٣] كـأن منطقـه خرزات نَظْمٍ يتحدرنَ ، رَبْعَةٌ : لا يـأسَ مِن طولٍ ، ولا تفتحـه عينٌ مِن قِصَـر . . غض بين غضين ، فهـو انضـرُ الثـلاثة منـظراً ، واحسنهم قدراً ، لـه رفقاء يَحْفُـون به ، أن قال افضوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمـره ، محفور محشور ، لا عابس ، ولا مُفْنَد[٤] . .

قـال أبو معبـد : هو والله صـاحب قريش الـذي ذكر لنـا من أمره مـا ذكر بمَكـة . ولقد هممتُ بـأن اصحَبه ، ولأفعلن إن وجـدتُ إلى ذلـك سبيـلاً . فـأصبـح صـوتـه بمكة عالياً ، يسمعون الصـوتُ ولا يدرون مَن صـاحبه . وهو يقول :

جــزى الله رب الــنــاس خيــرَ جــزائــه
رفـيقـين قــالا خيمـتي أم مـعبــد[٥]

(١) الكثاثة : كثرة أصول اللحية . لا دقيقة ولا طويلة .
(٢) ازج اقرن : الزجج: دقة شعر الحاجبين والقرن ان يتصل ما بينهما .
(٣) معتدل الكلام فلا هو عيي ولا هو مهذار .
(٤) المفند : الذي لا فائدة من كلامه لكبر أصابه .
(٥) قالا : من القيلولة : الاستراحة نصف النهار .

همـا نـزلاهـا بـالهـدى واهـتـدت بـه
فقـد فـاز من أمسى رفيقَ مـحمـد . .

إلىٰ آخر الأبيات .

فلما سمع بذلك حسان، قال يجاوب الهاتف:

لـقـد خـاب قـوم غـاب عنهم نـبيهـم
وقُـدس مـن يسـري إلـيهـم ويغتـدي
تـرحـل عـن قـوم فضلت عقـولـهـم
وحـل عـلى قـوم بـنـور مـجـدد

إلى آخر الأبيات .

وهكـذا أخذت تتـدفق في وصف سماتـه وصفاتـه ، بما يدهش ، فعلاً ، ببلاغتـه ، ودقته ، وشمـوله[1] ممـا قصر عن مداه حسان وأمثال حسان . .

أمـا المقطوعـات التي لا تتعـدى البيتين أو الثـلاثـة ، فربما ، أجاد حسان فيها كقوله يمدح الرسول :

وأحـسـن مـنـك لـم تَـرَ قط عـيـنـي
وأجـمـل مـنـك لـم تـلد الـنـسـاء

(١) للوقوف على تفاصيل الرواية انظر : شرح الديوان للبرقوقي صفحة ١٣٨ وما بعدها . الناشر : دار الأندلس ـ بيروت .

خلقتَ مبرءاً من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

لا سيما البيت الثاني ، في صياغته وايجازه ومعناه الجديد ؛ هذا إذا اعتبرنا جودة المعنى مقياساً لامتياز الشعر . . اما البيت الاول ، فلا يخرج الشاعر عن اعتبار النبي شخصاً جميلاً نادر المثال . . وهو معنى جاهلي مادي مكرور . .

ونرافق حسان في مدائحه النبوية كلها فلا نقف على « شعر » بالمعنى المقبول نسبياً . . بل نجد سجلاً مجتزءاً لوقائع النبي وغزواته ، واشادة بمواقفه المشرفة من المشركين حين انتصر عليهم يوم الفتح[1] . . وتأريخاً مضغوطاً لمسيرة الدين الجديد ، وبعض الخبرات بالمواقع الجغرافية ، « الاستراتيجية » ان صح التعبير . . يقول ابن الأثير[2] : قيل لرسول الله : من أين تدخلُ مكة ؟ فقال : من حيث اشار حسان . يريد قوله في وعيد قريش :

---

(١) عندما قال للمشركين واتباع أبي سفيان : اذهبوا فأنتم الطلقاء . و « من دخل بيت أبي سفيان ، فهو آمن الخ » .
(٢) الكامل ج ٢ ص ١٦٧ .

عـدمـنـا خـيـلنـا إن لـم تـروهـا
تثيـر النقـع ، مـوعـدهـا كَـدَاءُ[1]

وخبـرة بـأشبـاء الحضـارة وأدواتهـا كـالـورق مثـلاً . قال :

عرفـت ديـار زيـنـب بـالـكـثـيـب
كخط الـوحي في الـورق القشيـب[2]

تقييم هجائياته : هجاء بلا سخرية :

أمـا الهجـاء عنـد حسـان المسلم ، فلم يخـرج عن بقـائـه جـاهليـاً يعتمـد السّبابَ والقـذف ، والـطعن بالأنساب . . ولم نجد هذا الهجاء يرتقي ويسمـو إلى أن

---

(1) كـداء : موضـع في أعلى أذاخر مكـة ، أو الثنية العليا بمكة ممـا يلي المقـابر وهـو المُعلى . وفي الحديث : ان النبي دخـل مكة عـام الفتح من هذا الموضـع .

(2) نستفيـد من قـول حسـان هـذا : ان الـورق القشيب (الأبيض) كـان مـوجوداً وكـان الوحي يكتب عليه كما نستفيـد ان هذاالـورق هو غيـر الجلد او الاديم . ولعله ورق البـردي . فقد روي ان خـالد بن الـوليـد كتب كتـاب الأمان لأهـل الشام (٦٣٥) على القـرطاس . ويسمي ابن النـديم ورق البـردي القـرطـاس المصـري ، والـطومـار المصـري . والقـرطاس وارد في الشعـر الجاهلي واخبـار الصحابـة . يقـول طـرفـة
وخد كقرطاس الشآمي ومشفر ... كسبت اليمـاني قـده لم يُجَـرد

يصبح « سخرية » ضاحكة ناقدة إلا على يد الجاحظ ، في النثر ، وابن الرومي ، في الشعر ، ثم سخرية فاجعة ، على يد المتنبي ، وأبي العلاء ، ثم على يد أبي حيان التوحيدي الذي لقب بالجاحظ الثاني . . وقبل هؤلاء المبدعين لم نجد الهجاء على شيء من الفن والتطور ، وسبب ذلك أن الشاعر الجاهلي أو الاسلامي المخضرم كان متلبساً « بحس الدهر »[1] لم يعرف السخرية ، أو قلما عرفها ، مسكوناً بالشعور بالفاجعة والعذاب المستمرين . . فلم يكن لهذا الجاهلي أن يفرح ، أو يبتسم ، في خضم المداهمة والمفاجأة التي هي من طبيعة تلك القوة الخفية التي تزعجه ، وتقلقه على الدوام ، عنيت : الموتَ أو الغياب ، أو قسوة الوجود العدمي الرابض بضراوة على كتفيه . . وحين أراد الاسلام أن يرتب له فوضى حياته ، ويخفف من غلواء وجوده المهدد طلع له بفكرة الروح والخلود ، والخلاص . أراد أن يرفعه عن صحراء وواقع ، كان في حرب دائمة معهما ، وخوف ، وتربص . . لكنه ظل خائفاً وجلاً ، ولم تتغير نظرته إلى « الآخر » إلا حين كان يصحو على صوت العقل ،

(١) انظر : ديوان الشعر الجاهلي ــ الكتاب الثاني ص ١ .

وضربات سنابك خيل المسلمين تدك له مواقع عالمه القديم ، وتدفع به إلى معايشة فجر جديد وأمل جديد كان يخشى زوالهما ؟! وهكذا ظل الهجاء في مطلع العصر الاسلامي الأول تقليدياً ، لا تنساب في تضاعيف جديته نسائم السخرية والعبث إلا قليلاً ، وعلى استحياء خجول نظراً للجو الاسلامي الصارم . ولولا تدخل النبي في التخفيف من وطأة ذلك الجو باشاعته لبعض المَرَح والفكاهة ، لما وجدنا أي نوع من أنواع السخرية يتخلل الهجاء ، وغير الهجاء .

وواضح أن الأسلوب الهجائي أو التعبيرية الهجائية عند الشعراء المخضرمين لم تتطور ، كذلك ، لا في هجائياتهم ولا في نظرتهم إلى العالم والآخر ، تطوراً ملحوظاً ، بل لبثوا أسرى نمطية تعبيرية قديمة تصدر عن عقلية صحراوية لم ترتفع ، بعد ، من حضيض المادة إلى عالم الروح والشفافية والنورانية الميتافيزيكية الجديدة. التطور الوحيد الذي أصابوه كان في اقتباساتهم الكثيرة من القرآن وبلاغته ، وصوره الفنية المعجزة ، ليس غير . . حتى جاءت بعض قصائدهم الابتهالية وكأنها نقل حرفي عن آيات القرآن وسوره[1] .

---

(١) سُوَر جمع سُورة : كثيرون من المستشرقين استبعدوا ان يكون اصل

على أن حسان كان خفيف الوطأة في الهجاء ، بشكل عام وبالمقارنة مع الأخطل مثلاً . تخفف من غلواء هجائه روح مرحة ، تقارب في مرحها جو السخرية، لكنها لا تدخله . جاء في العقد[1] : لما هجا الحطيئة الزبرقانَ بنَ بدر بالشعر الذي يقول فيه :

دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعد فانك انت الطاعم الكاسي . .

استعدى عليه عمرَ بنَ الخطاب ، وانشده البيت . فقال : ما أرى به بأساً . قال الزبرقان : والله يا أميرَ المؤمنين ما هجِيتُ ببيتٍ ، قط ، اشدَّ عليَّ منه . فبعث إلى حسان بن ثابت . وقال : انظر إن كان هجاه . فقال : ما هجاه ، ولكن سَلَحَ عليه . . غير أن هذه الروح المرحة ، قلما ظهرت في شعره الهجائي . فقد فرض عليه الجو الجدي الذي كانت تجري فيه المهاجاة بينه وبين المشركين ألا « يمزح » أو يسخر ويداعب ،

= اللفظة عبرياً من : شورا بمعنى ترتيب ، صف ، مثل لا جارد ونولدكه وبول. اما «بل» فقد ذهب الى ان الكلمة مشتقة من السريانية صورتا بمعنى النص . . اذ كثيراً ما كان النبي ﷺ يسمعها من رهبان المسيحية قبل البعثة . انظر : تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٣٨ لبروكلمن .

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٣١٨.

شيمـة ابن الرومي ، فيما بعد ، ذلك ان المهاجـاة كانت بين عقيدة وعقيدة ، ومن يمثـلانهما من جبـابرة قـريش ، وعتـاة المشركين ، من جهـة ، وبين النبي واصحـابـه من جهــة اخــرى . الهجــاء في المعــركــة ، ولـيس على جـوانبها ، ينـطلق من صميمها ، من المـوقع الحـربي ، والمـوقف الحـاسم : النبي يـدفـع بشعـرائـه وعلى رأسهم حســان ، قائـلاً لهم : دافعوا وروح القـدس معكم، تمامـاً كمـا يدفـع بابـطاله إلى سـاحة المعـركـة في احـد وبـدر ومؤتـة والاحـزاب . . وهـو معهم . . فـالسـاحـة سـاحـة معـركـة بـوجهيهـا العسكـري والأدبي . ولا مجـال ابـــداً للضحك أو السخرية أو العبث . .

لكن مثـل هـذا الهجـاء « الحـربي » فقـــد كثيـراً من « الفن » وإن لم يفقــد الكثيـر من القيمــة الاجتمـاعيــة والتـأثير والحسم . فـاستمر ، كمـا كان في الجـاهليـة ، قبلياً ، اجتماعياً ، اخلاقيـاً يعتمد على الـطعن في القيمة الشخصيـة للخصم ، ومنـزلتـه الاجتمـاعيــة ، وان تغيـر المـوضوع . كمـا ظـل سـاذجـاً ، ودون مستـوى التـطور الفكري والروحي الذي اصابه العقل العـربي عندمـا تقبل « الصدمة الكبـرى » عنيت الدعـوة الاسلاميـة ، وتفاعـل معها ، وراح يتحضر بهـا ويتجذر . . وفي رأيي : أنـه لو

أطلق العنان للشاعر المسلم ، ولم يقيد بقيود الهجاء والمدح والفخر وسواها من الموضوعات السلفية القبلية الموروثة ، وبدأ حريته تلك بالتعبير عن ذاته ونْزعاته ورؤ اه لتحضر مع المتحضرين ، وارتقى الى المستوى الفكري والروحي الذي بدأ العربي المسلم يرتقي إليه ، وبه . . فيدخل ، مع الداخلين ، في حُمّى المغامرة الجديدة : فكرياً بالتقبل الفاعل للدعوة ، وفنياً بالتساؤ ل ، والرفض للشكل القديم في بناء القصيدة العربية ، على الأقل . . ولن يمضي وقت طويل ، حتى يبدأ الرافضون بالتساؤ ل واعادة كتابة القصيدة من جديد ، ولكن باستحياء ، كما سيحدث ذلك مع ابن ابي ربيعة ، بعد اقل من نصف قرن ، حيث رفض ، بكل حرية ، الشكل والموضوع في كثير مما غنى وأنشد وتغزل[١] .

ففي الشكل تخلى عن البحور الطويلة ، وتفعيلاتها الكاملة ، واكتفى بالمجزوءات ، ربما ، ليستجيب الى ضرورات الغناء والتلحين ، والانسجام مع الجو النسوي الرقيق ، ويلبي ذائقته الفنية الخالصة ، في بيئة مكة

(١) قيل لعمر بن أبي ربيعة: لماذا لا تمدح الخلفاء . قال : انا لا امدح الا النساء . .

والمدينة المتحضرة . تلك كانت نقلة تبعتها نقلات في أوائل العصر العباسي على يد بشار وأبي نواس ، ثم أبي تمام ، في تنافر أضداده ورموزه ، والمتنبي ، والموشحات ، لا مجال ، هنا ، لتفصيل ونقد ابداعاتها[1] هؤلاء ، حين تحضروا ، عكسوا ، في شعرهم ، حضارتهم ، وإذا كانوا لم يعقدوا كما تفيض عادة أي حضارة متقدمة ، فحسبهم انهم كانوا في صميم الاحداث بل كانوا الحدث . . ولم يدوروا جوله . باستثناء ابي تمام الذي مال إلى التعقيد بحكم الضرورة الحضارية[2] ، لا بحكم الاصطناع . .

من هجائيات حسان: قال يهجو الحارث بن عامر الذي اشترك ، في الجاهلية ، بمؤامرة دبرها أبو لهب لسرقة غزال وثني ثمين كان مقاماً في الكعبة[3] .

---

(١) يقول اليوت : على الشاعر في ظل حضارة مها ، ان يميل الى الشمول ، وحتى التعقيد ، لكي يصبح اكثر عمقاً وايحاء ، وابعد عن المباشرة، والالتزام بلغة المعاني . . الخ . .

(٢) قصة الغزال وسرقته من الكعبة قصة طويلة وسارقوه أكثر من أن يُعدوا . منهم على سبيل المثال : أبو لهب بن عبد المطلب، والحكم بن أبي العاصي ، والحارث بن عامر . اطلبها مفصلة في ديوان حسان .

يـا حـار[1] قـد كنتَ لـولا مـا رميتَ بـه
لـلّه درك ، فـي عـز وفـي حـسـبِ
جـللتَ قـومَـكَ مـخـزاة ومـنـقـصـه
مـا لـم يـجـلله حـي مـن العـرب
يـا سـالبَ البيت ذي الاركـان حليتـه
أدِّ الـغـزالَ فـلن يـخـفـى لـمـسـتـلب
سـائـل بني الحـارث المـزري بمعشـره
ايـن الـغـزال عـليـه الـدر مـن ذهـب
بئس الـبـنـون وبئس الـشـيـخ شـيـخـهـم
تـبـاً لـذلـك مـن شـيـخ ، ومـن عـقـب

هذا ليس هجاء بقدر ما هو لوم وتثريب لانسانٍ كـان محـل اعجـاب النبي بعـد ان أسلم ، ومحـل تقـديـر الشاعر . وإذا كان لمثل هذا الهجاء من قيمـة فلأنـه جاء وثيقة اتهام يسجل فيها واقعة سرقـة الغزال مِن قِبَـل فُتّاكِ قـريش ، وعلى رأسهـم أبـو لهـب ، صـاحب فـكـرة السرقة ، وهذا الحارث الـذي نفذ الفكـرة . وحين تصاغ

(1) حار : ترخيم حارث . وهو الحارث بن عامر الذي كـان يجالس النبي . قبل ان يرتـد . فقالت قـريش : (عندمـا ارتـد) قـد صبأ . فقتـل يـوم بدر . وكان حسان قد هجاه متهماً إياه بالاشتراك في سرقـة غزال الكعبة الذهبي مع ابي جهل بعد سكرة عرمرمية . .

الأحـداث الكبرى ، أو الصغـرى ، شعراً ، تكتسي ثـوباً مستعاراً هي بغنى عنه . امـا الثوب الـذي هو الشعـر (أو بالأصح النظم) ، فلن يكون أكثر حظاً من الحـدث . لا سيمـا حين لا يرتفـع الشاعـر بالحـدث الى مستوى رفيـع عبر لعبة فنية معقدة . . حين لا يجعـل فيه من الايحـاء ، والاثارة ، أكثر مما فيه من التأريخ . .

هجائية أخرى أشد وطأة :

قـال حسـان يهجـو حـارثـاً آخـر ، هــو الحـارث بن هشام بن المغيرة[1] ويعيره بفراره يوم بدر :

يـا حـار، إن كـنـت امـرءاً مـتـوسـطاً
فـافـد الألـى ينصفـن آلَ جَنـاب[2]
اخـوات امـك ، قـد علمتَ مكـانهـا
والـحـق يـفـهـمـه ذوو الألـبـاب

---

(١) هـو الحارث بن هشـام بن المغيرة القـرشي المخـزومي شقيق ابي جهـل عمـرو بن هشام ، شَهـد بدراً كـافراً مـع أخيه أبي جهـل ، وفـر حينئـذ وقتـل أخـوه . وعُيِّـر الحـارث بفـراره ذاك . . وكـان يعتـذر ، بعـد ان اسلم ، عن هذا الفرار ، ويندم عليه . كمـا روى له الأصمعي ابيـاتاً في هذا المعنى .

(٢) هو جناب بن عبد الله بن هبل الكلبي . الديوان .

إن القرافصة بن الأحوص عنده
شجن لأمك من بنات عُقاب[1]
اجمعتَ انك انت ألأم من مشى
في فحش مومسةٍ ، وزوك غراب[2]
وكذاك ورثك الأوائل انهم
ذهبوا ، وصرتَ بخزيةٍ وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخنا
واللؤمَ ، عند تقايس الأحْساب[3]

لا يزال الهجاء قذفاً وشتائم وفضح أعراض وأنساب . فهل ندرسه على انه جزء من التراث ، ام نلفظه ؟ ومتى كان تراثنا مجموعةً من الشتائم . الا انها الضرورة الموضوعية تلزمنا ، حين ندرس شاعراً قديماً ان نعيش معه في كل مطرح من مطارح فكره وشعره . . وان تسجل عليه كل سقطاته ، او ما اجبر عليه حين اسف وانحدر . وان نسجل له كل روائعه ، اذا كان له من روائع . هنا ، نبدو مؤرخين أكثر منا ناقدين

(١) اي انها كانت خادمة للقرافصة بن الأحوص الكلبي

(٢) الزوك : مشي الغراب . وهو الخطو المتقارب في تحرك جسد الانسان الماشي . وزاك في مشيته يزوك حرك منكبيه وإليتيه وفرج بين رجليه .

(٣) اي عند تسابق الأحساب .

محللين . وهـذا ما لا نـرضاه لأنفسنـا . . دعنـا ، إذن ، من معاني هذه الهجائية السبابية المكـرورة . ولنر مـا فيها من « الشعر » :

موضوع القصيدة :

بطل قريش مخـزومي يفر من المعـركة . هـذا الفرار دليـل على انـه يحمـل من صفـات امـه الأَمَـة عنــد بن الأحـوص ، اكثر ممـا يحمـل من صفـات ابيـه هشـام ، وجده المغيرة . . فهل وفق حسان في توضيح ذلك ؟ .

حين رمـز وغمز وبـالاشـارة البعيـدة كـان أقـرب الى « الشعـر » منـه الى النثـر الـذي يعتمـد التصـريـح دون التلميـح : شَجَنٌ لامـك ، اخـوات امـك قـد علمت مكانها . . والحق يفهمه ذوو الألباب . . وكلها تلميحات ورمـوز تشير الى الحقيقـة دون البـوح بهـا . . وهي اشـد تأثيراً في نفسية الابن من التصريح . . لأن التلميح يتـرك للسـامع مجـالاً واسعاً للتـأويـل ولتـوقـع وجـود اكثـر من حقيقـة ، في تلك الأم واكثر من نقيصـة . . كما وفق في تصوير مشية الحارث ، بعـد ان اخزاه ، بمشيـة المومس الفاحشة ، والغراب المتهافت الذي يزوك زوكانا . .

لقد اخزاه مـرتين : مرة حين لـم يتحـدث الا عن أمه

وماضيها. . . ومرة حين الحق عارَ الأم بالزوج ، الأب فشمل العار الجميع . . ويرز الحارث انساناً مطعوناً في نسبه يحمل خيانة اجداده الذين مضوا وتركوا له هذا العبء الثقيل من الاوزار . .

فانت ترى ان كمية « الشعر » في هذه الهجائية لا بأس بمقدارها، إن من حيث التعبيرية الفنية السهلة، أو من حيث تصوير الخسة والخسيس في مظهرهما ومخبرهما . .

هجائية مُرة كئيبة :

قالها ، هذه المرة ، دفاعاً عن نفسه ، ورجولته العاجزة . . قالوا : إن حسان مرّ يوماً بمجلس مُـزَيْنَةَ بعد ان كف بصره ، فضحك به بعضهم . فانتفض قائلاً :

أبوك ، أبوك ، وأنت ابنه
فبئس البُنَي ، وبئس الأبُ
وامك سوداء نوبيةٍ
كأن أناملها الحنظبُ[1]

---

(١) وقيل : بدل نوبية مودونة : وهي القصيرة العنق والألواح واليدين ، او الناقصة الخلق ، الضيقة المنكبين . الحنظب : ضرب من الخنافس فيه طول .

يـبـيـت أبـوك بـهـا مـعـرساً
كـمـا سـاور الـهـوةَ الـثـعـلبُ
فمـا منـك اعجبُ يـا ابنَ استـهـا
ولـكـنـنـي مـن ألـى اعـجـب
إذا سـمـعـوا الـغـي آووا لـه
تـيـوس تـنـب اذا تـضـرب[1]
تـرى التيس عـنـدهـم كـالـجـواد
بـل الـتـيـس وسـطهـم أنـجـب
فـلا تـدعـهـم لـقـراع الـكـمـاة
ونـادِ الـى سـوءةٍ يـركـبـوا

هجائية اتخـذت ، كما يبـدو ، خطة الهجـوم بقصد الـدفاع ، بحيث يتستـر العاجـز وراء لسانـه الذي يـأخـذ بالقذف والشتم وتهش الاعراض اخفاء لعجز الشاعـر عن المقـاومة باليد أو السيف . خاصـة حسان الـذي لم يكن يملك ، منـذ كـان ، سـوى سـلاح وحيـد هـو اللسـان ، واللسـان السليط الطويـل الأسود الـذي أظهـره مـرة أمـام النبي حتى ضرب به أرنبة أنفه . . وطالما انتصر به وحـلّ جميعُ عقده وعِلَلِه ، في ميـادين الفخر والهجـاء . . فلا

---

(١) يقال نب التيس نبأ إذا صاح عند النزو او الغراب تضرب: تنزو.

عجب ، وهـو الآن أعمى ، ينقض على من ضحك منـه انقضـاضاً سـريعاً وحـاسماً ، وبـالضربـة القاضيـة ، كيلا يعـود الى مثلها . ويبـدو ان حسان قـد عرفـه وعرف امـه وأبـاه . . وإلا لما وصف أمـه بـأنهـا نـوبيـة (اي زنجيـة سـوداء) ، او انها « مـودونة » قصيـرة العنق والاطـراف ، وان اصابعها طـويلة بشعة كـالخنافس ، وانهـا أمة حقيـرة وهو ابن استها! . . ولا يكتفي حسـان بالتشنيـع على الأم والأب ، بل يصل هذين بجدود حقـراء « تنب كالتيـوس » عنـد الضراب ، عـادتهم النزو . . والتعـدي ، وارتكـاب الفواحش . . ومن كان هـذا دأبه لا يمكن ان يكـون بطلاً كميـاً ، يقارع الكمـاة ، في ميدان الفـروسية والشـرف ، بل هو بطل في ميدان السـوءات والقبائـح ، يسارع اليهـا ويعيش معها . . صورة بارعة بـل صور تـراكمت من بيت الى بيت حتى بلغت حـد الكمـال في تجسيـد « جمـال القبح » فمن الأنامل الحنظبيـة ، الى إعراس الأب ، إلى هـوة الثعلب ، الى ابن استها ، ومـا في ذلـك من فحش الـدلالة ! الى تيـوس تنب اذا تضرب . . ثم ذلـك التيس الـذي اصبح كـالجواد الأصيـل في نظر اصحـابـه الـذين يسـارعون في الفحشـاء ، ويحجمون عن المكـرمات . . ممـا اضفى « جماليـة » تصـويـريـة على هـذه الهجـائيـة

ونجحت في أن تواري خلفها نفساً كثيبة غطاها الشاعر بروح السخرية وتشويه الآخرين الذين ليسوا في « عماهم » الأخلاقي بأفضل منه في عماه المادي . .

وهكذا نهض « الشعر » في هذه الهجائية وكاد «النظم» أن يتوارى. ولكن. .

لقد جاءت الصياغة البارعة وروح السخرية عاملين هامين في توجيه هذه الهجائية الاجتماعية نحو مستوى اعلى لم تبلغه هجائيات حسان الأخرى . لقد شع من كل بيت فيها روح ساخرة ، رغم هجومها ولوعاتها المكبوتة من انسان سخيف لا يرى في الشاعر الكبير سوى عماه ، وعجز شيخوخته . نفس لا تزال تضح بسخرية ضاحكة ، على مرارتها ، من ذلك الحقير وامه وأبيه وأجداده ، تجسدها صور بارعة وفق اليها الشاعر ، وتشبيهات دقيقة وملائمة للأم واصابعها وبشاعة منظرها وحقارة منبتها . اما صورة الأب الذي ، حين يُغْرس بها ، فكأنه ثعلبٌ يساور هوة عميقة . . . واجداده البلداء الذين هم ، عندما يتنادون الى الغي والضلال ، كتيوس تصيح عند الضِراب . . .

لقد ضغط الشاعر المهجوَّ ضغطاً شديداً حين جمعه

بكل أصله وفصله وصفاتـه في سبعة أبيـات ، ثم رمى به شلواً بين الأشلاء ، ولا شيء بين الأشياء . .

ولـولا المنحى الاجتمـاعي الـذي نحـاه حسـان في هجائه ، وتلهيـه بهتك الأعـراض والسباب لـطلع لنا منـه ساحر فنان أقرب بكثيـر إلينا والصق ، حين نجـده ، وقد استخـرج لنا المـأساة من صميم الملهاة ، وتعـامل مـع البشـاعة الخُلُقيـة والخَلْقيـة بـدقـة وعمق ؛ كمـا سيفعـل الجـاحظ وابن الرومي والمتنبي وأبـو العلاء والتـوحيـدي وبديع الزمان الذين اطلعوا لنـا لوحـات خالـدة لما يسمى اليـوم : جمال القبـح . . فنحن لا نـزال ، مـع هؤلاء ، نضحـك من مهجـويهم حين نـرثي لهم ، أو نـرثي لهم حين نضحـك منهم ، ثم نـضحـك ونـرثـي لأنفسنـا وللانسـانيـة جمعـاء حين نجـدهـا تعـج بـأمثـالهم من التافهين ، والادعياء ، والمشوهين والبخلاء المتسترين أو المتفلسفين الذين يفلسفون بخلهم اقتصـاداً وتوفيـراً وهم احقر من ان نستمع اليهم ، او نسمع لهم . .

مـرة اخـرى تقـول إن جـو حسـان وطبيعة عصـره لم يكـونا ليسمحـا له بـأن يكتشف في نفسه ذلـك النوع من الهجاء التصويري الساخر ، او ان يتمادى فيـه ، وان كان

يحمل ، في ذاته ، بذوره . . وطبيعي ألا يبرزَ الساخرون « اطباء الانسانية » كما يسميهم موليير الا في عصور متطورة فكرياً واجتماعياً ، الى جانب المزاج والاستعداد الشخصي . فالشاعر الساخر انسان متحضر ومثقف وعالم نفسي خبير بنفوس المنحرفين وما تنطوي عليه من عاهات ، وما تلجأ إليه من وسائل دفاعية وادعائية مضحكة . . وحسان لا يزال أقرب الى البداوة منه الى الحضارة ، والى التقليد الموروث في الهجاء ، وغير الهجاء ، منه الى التجديد والابداع . .

يفخر بقومه ويهجو المشركين: قال يعرض بأسياد قريش الذين قتلوا في وقعة بدر الكبرى :

لقد علمت قريش، يوم بدر،
غداة الأسر ، والقتل الشديد
بأنا حين تشتجر العوالي
حماةُ الروع يوم أبي الوليد[1]
قتلنا ابني ربيعة ، يوم ساروا
الينا في مضاعفة الحديد[2]

(١) هو أبو الوليد عتبة بن ربيعة ، وكان من سادات قريش ، قتل يوم بدر .
(٢) وهما عتبة وشيبة ابناء ربيعة بن عبد شمس .

وفـرّ بـهـا حـكـيـم يـوم جـالـت
بـنـو الـنـجـار تـخـطر كـالأسـود[1]
وولـت عـنـد ذاك جـمـوع فـهـر
واسـلمهـا الـحـويـرث من بـعيـد[2]
لـقـد لاقـيـتـم خـزيـاً وذلاً
جـهـيـزاً بـاقـيـاً تـحـت الـوريـد
وكـان الـقـوم قـد ولـوا جـمـيـعـاً
ولـم يـلووا عـلى الـحـسـب الـتـليـد

وكالعادة نجـده ينطق بلسـان قومـه بني النجار الـذين دافعـوا عن النبي يوم بـدر ، واسهمـوا في تحقيق النصـر للمسلمين وتغشـاه حالـة من الـزهـو ينسى معهـا انـه هـو

---

(١) هـو حكيم بن حزام بن خـويلد بن أسد بن عبـد العزى بن قصي . وهـو ابن أخي خديجة بنت خـويلد زوج رسول الله. انهـزم يوم بـدر ثم اسلم يـوم الفتح . كـان من سـادات قـريش في الجـاهليـة والاسـلام . جـاء الاسلام وبيده الندوة فباعهـا من معاويـة بمائـة ألف درهم . فقال لـه ابن الـزبيـر : بعت مكـرمـة قـريش . فقـال لـه حكيم : ذهبت المكـارم الا التقوى . وحج في الاسلام ، ومعه مـائة نـاقة بـدنـة ، قد جللهـا الحبرة وكفها عن اعجازها ، واهداها ، ووقف بمائـة وصيف بعرفـة في اعناقهم اطواق الفضة فنوش فيها : عُتَقـاء الله عن حكيم بن حزام . واهـدى ألف شاة . شرح الديوان للبرقوقي . الناشر: دار الأندلس ـ بيروت .

(٢) الحـويرث : يـريد بـه الحارث بن هشـام بن المغيرة . انهـزم في بدر ثم اسلم . تقدم ذكره .

شخصياً ، لم يساهم في شيء من ذلك ، ولكنه يشعر في اعماقه انه في صميم المعركة يشارك وجدانياً فيها وايمانياً . بنو النجار اقربائه واخوال النبي ،. فهم حين يستبسلون فكأنما هو المستبسل ، وحين يفدون النبي بأرواحهم ، فإنما هو الذي يفديه أيضاً . . ما دام السيف واللسان في اتجاه واحد ، ومن اجل غاية واحدة ، ويصدران عن ايمان واحد ، وان اختلفت السواعد . وبمفاعيل متساوية . . وبنو النجار كفوه مؤونة ، قتل ابي الوليد ، وابنَيْ ربيعة، وانهزام ابن حزام ، وهم من عتاة قريش وصناديد المشركين . . فحق له ان يفخر بهؤلاء الآباء والأجداد ، وان يهجو اعداءهم واعداء النبي من المشركين الذين منهم من قتل ، وأسر، أو وَلّى الأدبار، وقد لحق بهم العار المركب: عار الهزيمة ، وعار الشرك ، وعار قتال النبي ، وهو عار ابدي . .

اين الملحمة ؟
والبطولات الخارقة تسجل كلَّ يوم؟!

افلا يحق لنا ان نتساءل : لماذا لم يرتق الشاعر بأمثال واقعة بدر الصغرى ، وبدر الكبرى ، واحد ، ومؤتة والأحزاب واليرموك ، الى مستوى الملحمة ! رغم توفر النَفَس والشاعرية ، والاعجاب الشديد برموز الملحمة ، وادواتها ، من ابطال ، وعلى رأسهم النبي وعلي ، ومن معارك رهيبة مصيرية ، ومن مشاركات وجدانية ، ومساهمة السماء بتحقيق النصر للمسلمين[1] ومعجزات حقيقية تتم على يد النبي ودهائه العسكري ، وخططه في اختيار المواقع الاستراتيجية ونصب الكمائن وادارة لعبة الحرب ، واشتراك النساء مشركات ومسلمات فيها . وهذا هو النابغة زميل شاعرنا ومعاصره يصف

---

(١) بدليل الآيات: ﴿وأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها﴾ سورة التوبة الآية ٤٠.
﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ سورة الصف الآية ١٤ .
﴿ هو اللذي أيدك بنصر وبالمؤمنين ﴾ سورة الأنفال الآية ٦٨ .
(قيل : وكانوا في بدر خمسة آلاف جندي . . والله أعلم . .

زحف جيوش الغساسنة ، وصفاً ملحمياً رائعاً ، رغم ايجازه ، حيث يقول :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب

مع ان حسان سمع بمثل هذا النمط من وصف المعارك والملوك الذي قيل بأقربائه الغساسنة ، وهم دون بطولة النبي وبأس المسلمين ، والنابغة دون حسان اعجاباً بالغساسنة وتأثرا بهم ، وايمان حسان بالدعوة وصاحب الدعوة ايمان راسخ لا شائبة فيه ولا ضعف . . والمعلقات ؟ ألم تأتِ مليئة بالأنفاس الملحمية، رغم غنايتها ؟ ولم تكن رموزها ولا ادواتها ، ولا مضامينها ؛ ولا شعراؤها بأقوى ولا أروع ولا أبدع من هذا الجو الاسلامي الرائع المريع ، المليء بالانجازات ، والبطولات على كل صعيد ؟ .

جو أقل ما يقال فيه أنه مثير وملهم . فلماذا وكيف ؟ .

الجواب مع الأسف يكمن في الشاعر ، غير المؤهل لمثل هذا ، لا نفسياً ولا جسدياً ، ولا شاعرياً . . فهو قد انتهى أيام الرسول الى ان يصبح

شـاعراً متقـاعـداً ، يجلس في اطمـه طـوال النهـار يجتـر ايامه وماضيه ، ثم يمثل بين يدي النبي في المـدينة حين يستدعيه لسماع بعض قصائـده ، او انتدابـه لهجاء بعض شعـراء المشـركين ، كـابن الـزبعـري ، وبعض رجـالهم كـأبي سفيـان وابي جهـل وسـواهمـا .. ثم يعـود الى اطمه ، شيخاً هـرماً مضعـوفاً لا غنى فيـه ولا غناء ، وفي شعره ، مع ان شعـره من السلاسـة والسهولـة بحيث كان يُغَنّ في الجاهلية .

جـل ما كـان يحـرك شـاعـريتـه الخـابيـة الأحـداث الاسلامية المثيـرة وشمائـل النبي ، وبطولات صحـابته ، فيـروح يمدحهـا ويتغنى بها ويبـاهـل بهـا شعـراء قـريش وابطالها .

ويبـدو ان تلك الاثـارة وذلـك التحـريـك لم يكـونـا بـالمقـدار الكـافي ليـرتقي بهـا ، شعـريـاً ، الى ذلـك المستوى الرفيع الذي يقارب الخارقة او الملحمة . .

ثم ان الاحداث الاسلامية وشخصية الـرسول كـانت هي بحـد ذاتهـا مـلاحم وخـوارق ، لم يـألف مثلهـا العـرب ، ولا شاعـر العرب حسـان ، فظلوا ينهلون منهـا على مهـل كفيض إلآهي ، ارتـووا منـه ، وذادوا عنهـا

ذودهم عن الحياة ، واستشهدوا في سبيلها . لكن شعراءهم لم يكونوا على مستوى ابطالهم ، كما تقدم القول ، فلم يخرجوا من مستنقع التقليد والاجترار ، وفي لا وعيهم ان هذا التقليد قدس الاقداس ، وفي استعدادهم ، انهم لا يستطيعون اكثر من تقليده والوقوف عنده . . ولم يكن حسان إلا كسواه من الشعراء ، زمن النبي وخلفائه ؛ مع انه كان ، بما توفر له من التفرغ ، وطول مراسه بالشعر ، والحظوة الكبرى لدى الرسول ، قادراً على ان يعطي افضل ، ويصلنا به اكثر ، اسلاءبأ على الأقل . ان صلتنا به هي صلة واهية جداً ، بل هي صلة سلبية ، تضعنا في مركز اللوم دائماً ، والنقد والتجريح ، بل والاستخفاف . . فنحن لسنا بحاجة الى وثائقه وسجلاته ، وتأريخ الأحداث الاسلامية الكبرى من خلاله . . ولا إلى هجائياته وادعاءاته وغزله البارد . . نحن بحاجة الى شاعر الرسول ، ذاك الذي يتغنى ، ويجيد الغناء ، بالحدث الضخم وصاحبه ، غناء ملحمياً مثيراً ،. بحاجة الى فكتورهوغو عربي امام بونابارت العرب الأكبر بل امام اعظم شخصية دينية وزمنية في التاريخ القديم والحديث هو النبي محمد . . فإذا بملحمة الدهور المحمدية الاسلامية تسبق « ملحمة

الدهور » الفرنسية بثلاثة عشر قرناً ــ لكن شيئاً من هذا ، أو بعض هذا ، لم يحدث ولم يبصر النور ، لا عند حسان ، ولا عند غيره ، علماً بأن البوصيري وأحمد شوقي وبولس سلامة قد حاولوا في سلاحمهم الشعرية سد ذلك الفراغ الكبير ، لكن نجاحهم كان متواضعاً . . وسبحان مقسم المواهب والأرزاق ! ثم لو ان الشعراء العرب خرجوا من ذوأتهم وغنائياتهم ، لالتقوا مع الآخر ، واستوحوا منه ومثلوا وتمثلوا ، بدل البقاء مع تلك « الأنا » المكروهة المغرقة في التمحور والانغلاق على ذاتها كالشرنقة . .

هذا الآخر من : الحدث (البطل ، المدى ، الزمن) كفيل بجذب الشاعر إلى حقل مغناطيسيته ، وصهره بأتونه ، والتمرغ برماده ، والتجذر معه ، ثم انبثاق طائر « الفينيق » من هذا الرماد الخلاق . . وطائر الفينيق هو الشعر الذي يحيي ، وهو الشعر الذي يغير العالم . .

عفواً حسان ، فأنا لا أعنيك بكل هذا ، كما لا أعفيك من بعضه . .

حسبك انك غنيت بعض مواقف النبي وبعض

شمائله ودافعت عن الاسلام ، وسجلت بأمانة الخبير احداثه الكبرى ، ووصمت بالعار كل متخلف مشرك .
حسبك هذا . وحسبنا الله ونعم الوكيل !

مذهب حسان :

كان حسان « عثماني » الهوى ، يؤمن بأن الخليفة الثالث قد قتل ظلماً وعدواناً. وميله هذا عاطفي أحثر منه عقلانياً . ولعله أراد أن يكفر ، برثائه لعثمان عن انسبائه بني النجار الذين تورطوا في الثورة على الخليفة ، فتسوروا دار الخلافة واسهموا في قتله . وفي رواية اخرى ان المتسورين دخلوا دار الخلافة من على احد اسوار بني النجار الملاصقة للدار وبعلمهم . .

قال يرثي الخليفة منوهاً بذلك :

اوفت بنو عمر بن عوف نذرها
وتلوثت غدراً بنو النجار
وتخاذلت يوم الحفيظة انهم
ليسوا هنا لكُمُ من الأخيارِ
ونسوا وصاة محمد في صهره
وتبدلوا بالعز دارَ بوار[1]

(1) قوله : ونسوا وصاة محمد في صهره ، فقد روي عن عائشة ان =

اتـركـتـمـوه مـفـرداً بـمـضـيـعةٍ
تـنـتـابـه الـغـوغـاء فـي الأمـصـار
لـهـفـان يـدعـو غـائـبـاً انـصـاره
يـا ويـحـكـم يـا مـعـشـر الأنـصـار
جـيـرانـه الأدنـون حـول بـيـوتـه
غـدروا ورب الـبـيـت ذي الأسـتـار
إن لـم تـروا مـدداً لـه وكـتـيـبـةً
تـهـدي اوائـلُ جـحـفـلٍ جـرار
فـعـدمـتُ مـا ولـد ابـن عـمـرو مـنـذرٌ
حتى يـنـيـخ جـمـوعُـهـم بـصـرار[1]
لا يـحـسـبـنَّ الـمـرجـفـون بـأنـهـم
لن يُطلبوا بـدمـاء أهـل الـدار الـخ . . .

وثيقـة اخرى من وثـائق حسان ، في الـرثاء كمـا في الهجاء او المدح ، يتم فيها تسجيل الحادثة وجـزئياتهـا ، ويشغـل المكـان والـزمـان والأشخـاص حيـزاً كبيـراً من

= النبي ﷺ قـال : يا عثمـان انه لعـل الله يقمصـك قميصـاً ، فـاذا ارادوك على خلعـه ، فلا تخلعـه لهم . والمراد بـالقميص الخلافـة التي طـالبـه المحاصرون بالتنازل عنها ، فلم يقبل .

(1) يقـول : ان لم تروا لـه جيشاً جراراً يأخـذ بثاره ، وينيـخ بصرار (جبـل قرب المدينة فعدمتُ اهلي . وعمرو ومنذر جدا حسان .

شعـره . يتخلل كـل ذلـك عـاطفـة معينـة ، وانفعـالات خاصة يبثها في تضاعيف ذلك الحيز . فكـأنه يؤرخ حين ينفعل ، أو ينفعل حين يؤرخ . وحتى الجغـرافيا لهـا في شعـره مكان واهتمـام ، لـدرجـة ان بعض شعـره اصبـح دليلاً « ستراتيجياً » موثوقاً به لدى المتحاربين[1] .

هـا هـو ينـذر بني النجـار والـذين قتلوا عثمـان بـأن جيـوشاً جـرارة سوف « تنيـخ » في سفح جبـل « صـرار » قـربَ المدينـة لتأخـذ ثـأرهـا من قـاتلي الخليفـة : ذلـك الشيـخ الأشمط المؤمن المتعبد في ليله ونهـاره ، جامـع القرآن وصهر الرسول ، وهو القائل فيه أيضاً :

ضـحـوا بـاشمط عـنـوان السـجـود لـه
يـقـطـع الليـل تـسـبيـحـاً وقـرآنـا
لـتـسـمـعـنَّ وشـيـكـاً فـي ديـارهـمُ
الله أكـبـر ، يـا ثـارات عـثـمـانـا

وتجيش عاطفته ، فيـدفعه هـذا الجَيَشان إلى التـنبؤ بـوقوع حـروب ثأريـة ، وتصـح النبـوءة ، وتكـون واقعتـا الجمل وصفين اللتان اتخـذتا منحى سيـاسياً خـطيراً حين

(١) يـروى ان النبي حين آخى بين المهـاجـرين والأنصـار آخى بين حسـان وعثمان .

استغلهما معاوية استغلالاً دفع بالمسلمين الى التناحر والاقتتال من جديد .

وواضح ذلك الصدق في رثاء الشاعر للخليفة المقتول في هاتين المقطوعتين وفي غيرهما . وتلك العاطفة المتدفقة التي سالت دموعاً عبر الصور والتشابيه ، فانسابت رقراقة ساخنة . كما انسابت الصور والتشابيه صافية واضحة سهلة . والصدق يستتبع ، دائماً ، الوضوح في الموقف ، والتعبير والافصاح . . هذا ، ولا غرو ، فإن حسان حين رثى عثمان لم يكن يرى أمامه خليفة بقدر ما كان يرثي أخاً له وقريناً[1] ومن هنا صدق الرثاء ، أي رثاء ، ورقته . ثم ان حسان قريب قريبه، ونسيب نسيبه، ولهذا جاءت رثائياته في عثمان تعبيراً عن عاطفة وود خالصين ، لا تسجيلاً لموقف ورأي سياسيين[2] . . ولست الآن ، على أي حال ، مهتماً بمناقشة حسان موقفه ، ورأيه في

---

(١) عثمان قريب النبي ومن كبار صحابته وذو النورين . وحسان قريب النبي عبر بني النجار . وعديله بعد ان وهبه النبي سيرين اخت مارية القبطية زوج النبي وام ولده ابراهيم . فأولدها عبد الرحمن بن حسان .

(٢) ذلك لأن الذين تنادوا للأخذ بثأر عثمان لم يؤلفوا بعد ما سمي « بالعثمانية » .

مقتل عثمان ، فأنا لا أؤرخ للأحداث الاسلامية في هذه الدراسة ، بقدر ما يهمني ، فنياً ، هذا اللون الصافي والواضح من الرثاء الذي قلما وجدناه عند الشاعر إلا حين يرثي كبار الأحبة كالنبي وأبي بكر[1] وعثمان وبعض شهداء المسلمين، فتراه ترق ديباجته، ويسمو بيانه رقة عاطفته والتياع كيانه. وما عدا ذلك فهو غريب الشوارد ، معقد الديباجة ، احياناً كثيرة ، وسهل الأسلوب الى درجة السطحية والابتذال والمباشرة ، احياناً اخرى ، على عكس رأي شارح الديوان في أسلوب الشاعر . قال : « والذي أراه ان شعر حسان في الاسلام لا يقل في جزالته عن شعره في الجاهلية . . اما الأصمعي فيرى ، مثلنا ، ان في شعر حسان المسلم ليناً وضعفاً . ونحن نزيد ان فيه قصر نظر وضعف خيال ، وفهماً سطحياً لحقائق الأحداث المستجدة . وقد بينا ذلك قبل قليل .

---

(١) لحسان في رثاء أبي بكر هذه المقطوعة الرقيقة :

اذا تذكرت شجوا من اخي ثقة ... فاذكر اخاك ابا بكر بما فعلا
التالي الثاني المحمود سيرته ... وأول الناس منهم صدّق الرسلا
وثاني اثنين في الغار النيف وقد ... طاف العدو به اذ صعّد الجبلا
وكان جبُّ رسول الله قد علموا ... خير البرية لم يعدل به رجلا

ولن نقف عنــد آراء الاقــدمين فيــه ، فهي ، كمــا تعـرف ، اعتبـاطيـة ، ارتجـاليـة ، لا قيمـة لهـا اليـوم . وربما اعتمدت البيت الواحد ، او المكـانة الاجتمـاعية ، لتفـضيـل شاعـر على شاعـر . كرأي الحـطيئة الـذي قال يـوماً : ابلغـوا الانصار ان شـاعرهم اشعـر العـرب حيث يقول :

يُغْشَــون حـتـى مـا تـهـر كـلابـهـم
لا يـســألــون عن الــســواد الـمـقـبــل

وعفا الله ، بهذا البيت، عن جميع السقطات !

ويقول الأصمعي : « الشعر نكد ، يقوى في الشر ، ويسهـل ، فـإذا دخـل الخيـر ضعف ولان . هـذا حسـان فحـل من فحـول الجـاهليـة فلمـا جـاء الاســلام سقط شعـره » . هـذا ايضـا ليس صحيحـاً . السـر ، دائمـاً ، يكمن في المــوهبــة والاسـتعــداد والــرفض او تـقبــل الحدث . والارتفاع الى مستواه والتفاعُل معه . .

ولعـل كلمة « نكـد » التي اطلقهـا الأصمعي تقـابـل عندنا كلمة « معانـاة » وان لم يقصد الأصمعي ذلـك . إذ أن الشعر نكد فعلاً ومعاناة ، وقدرة فـائقة على تحـويلهما الى تجـربة والتجـربة الى « شعـر » . . اما المـرور مرور

الكرام بالأشياء والمعاني ، اما المباشرة والعفوية و «تناول الشعر من الكم» كما قال يوماً أبو العتاهية . . فهذا ليس من الشعر في شيء . ولعل حسان لم يسمع بما قاله معاصره الحطيئة في تعريف الشعر ، او لعله سمعه ولم يعمل به » قال الحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه
يريد ان يعربه ، فيعجمه

الخمرتان :

والحق ، اننا لا نجد حسان الشاعر ، في الاسلام ، كما نجده في الجاهلية . لقد ضاع في الاسلام ، وتبدد تحت وهج الحدث ، ولم يستطع ان يصمد . . قال شعراً كثيراً ، في النبي ودعوته ودعاته ، ويا ليته لم يقل . . حين فقد صفة « الشاعر » واكتسب صفة المؤرخ والناظم دون رصد دقيق . .

في الجاهلية ، كما رأينا ، ظل شاعراً موصول الكيان بالزمان والمكان والأشخاص ، لصيقاً ببيئته وأشيائها ، ذائباً في صميمها ، وإن لم يرفضها ؛

يتحـدث إليهـا وتتحـدث إليـه في منـاجـاة ، وحب ومشاركة . لم تشخ شاعـريته ، بعـد ، ولم يذو شبـابه . تقبل الحياة الحضرية ، بلا شروط ، وتذوق لذائـذها بـلا قيـود . وشرب الخمـرة مع كبـار شاربيهـا بلا تحـريم . . احب ، وفتـك ، وعربـد ، ثم صاغ كـل هـذه التجـارب شعراً . . ولئن كان لم يحسن الصياغة كالأعشى والنابغـة وطرفة والحطيئة ، الا انه ، مثلهم ، ظل شاعراً . .

وجاء الإسلام فاستبدل خمـرة بخمرة : خمـرة ماديـة بخمرة روحية . . غيـر أن هذه الخمـرة الروحيـة لم تفعل فعلهـا فيـه ، بعـد ان نضب عـوده ، او كـاد ، وجف حـلقـه ، وتبـلد ذهنـه ، وتلهّى بسـفـاسف الـهجـاء الاخلاقي ، ولم يَرْقَ الى مـديح نبـوي محقول . ووصف للأحداث الاسلامية الكبرى مقبول . .

لم يعـد ، في الاسلام ، يـرى الأشياء بـوضـوح . . شح بصره، ثم غـار . . وجمدت بصيـرتـه ثم بـارت . . كان له ، في الجـاهلية ، شيـطان مريـد هو الشيصبـان ، يوحي اليه ويستوحي منه رموز الشر والفتـك ، والخمرة ، والهجـاء . امـا في الاسـلام فقـد بـطلت اسـطورة الجن التي توحي ، واستبدل وحي بـوحي . وحي السماء هـذه المرة الذي ينزل الآيات تنزيلاً على النبي وحفـظة الوحي

وسدنة القرآن . وحل محل الشيصبان جبريل والملائكة الذين يسبحون الله بكرة وأصيلاً ، وقد يتجسدون بأمر ربهم ، فيشتركون في القتال على الأرض ، مع جيش النبي . . امام هذا الجو الروحاني المدهش والمثير ، لم يستطع حسان ، كشاعر ، ان يرقى اليه ، ويستوحي مع المستوحين ويستلهم مع المستلهمين .

قال حسان وكانت السعلاة[1] لقيته في بعض ازقة المدينة ، فصرعته . . وقعدت على صدره ، وقالت له : انت الذي يأمل قومك ان تكون شاعرَهم ؟ فقال : نعم . قالت : والله لا ينجيك مني إلا أن تقول ثلاثة أبيات على روي واحد . فقال حسان :

إذا ما ترعرع فينا الغلام
فما إنْ يُقالُ له مَن هوه[2]

فقالت : ثَنّهِ ، فقال :

إذا لم يسد قبل شد الإزار
فذلك فينا الذي لا هوه[3]

(١) السعلاة : انثى الجن . وقيل هي ساحرة الجن ، وهي الغول . ويقال : استسعلت المرأة صارت كالسعلاة خبثاً او قوة تأثير ، وسحر . .

(٢) يعني بـ « من هوه » انه صار معروفاً بالنجدة والفضل . او : اشهر من أن يُعرَف .

(٣) الذي لا هوه اي الذي ليس منا بل دخيل فينا .

قالت : ثَلِّثه . فقال :

ولـي صـاحـب مـن بـنـي الـشـيـصـبـان
فـطوراً أقـول ، وطـوراً هـوه[1]

فمـا معنى هـذه الحـواريـة الشيـطانيـة بين الشـاعـر والشيصبان؟ .

معنـاها ان خيـال الجـاهلي على مستـوى من الـرقي الميثـولـوجي ، إذا صـح التعبيـر ، إلى درجـة التخيـل ، والتخييـل ، وتمثل عـالم مسحـور سـاحـر ، متجسـد في مجتمـع وادي عبقر ، حيث يعيش الجن من كـل نوع . . ويتـوزعـون على كـل شـاعـر « عبقـري » او يتلبسـونـه ، ومنهم حسان . .

فـإذا مـا قـالـوا شعـراً راقيـاً نسبـوه إلى هـذا العـالَم السحـري ، لا سيما في الغـزل ، والخمـرة ، والفخـر .

---

(١) الأخ أو الصاحب من الجن هو شيطان الشاعر الجاهلي الذي يوحي اليه الشعر . وكان يسمى تابعاً ورئياً . وكان للفرزدق شيطانان هما . الهوجل والهوبر . وشيطان الأعشى : مسحل والشيصبـان : قبيلة من الجن ، ومنها شيطان حسان . وشيطان بشار : سنقناق . يصف حسان شيطانه بأنه عالم خبير حين يوشي كلامه أحسن الوشي :

واخي مـن الـجـن الـبـصـيـر اذا حـال الـكـلامَ بـأحـسـنِ الحِبْـر
(الوشي)

وكلما كان الشاعر قادراً على الاستيحاء مِن هذا العالَم كان « مجنوناً » قد داخله الجن ، وأصبح مسكوناً به . . لا يملك معه إلا أن يكون شاعراً . .

ولعمري ما كان ذلك ، في الحقيقة ، إلا بفعل نشوة ، أو صبوة ، أو عزة في الاثم تملاها الشاعر الجاهلي وسما بها او سمت به ، فخيل اليه أن « شيئاً ما » « روحاً ما » تملكه ، هناك ، وانتشله ، هنيهات ، من عالمه الأرضي الضيق الكئيب . . ثم أوحى له بما يريد وبما يشتهي . . وتمت له غيبوبة ونشوة ، في عالم سماه ، بعد صحوه : جناً !

هاتها لم تقتل ! : من خمريات حسان في الجاهلية :

قال بعد أن فرغ في مدح الغساسنة :

ولقد شربتُ الخمر من حانوتها
صهباء صافيةً كطعم الفلفلِ
يسعى علي بكأسها متنطف
فيعلني منها ، ولو لم انهلِ
ان التي ناولتني فرددتها
قتلتْ ، قُتلتَ ، فهاتها لم تقتل . .

كلتـاهمـا حلبُ العصيـر فعـاطنـي
بـزجـاجـة ارخـاهـمـا للمِفْـصَـلِ
بـزجـاجـة رقـصت بـمـا في قـعـرهـا
رقص القلوصِ بـراكـب مستـعـجـل

ثم ختمها بالفخر قائلاً :

نـسبـي أصيلٌ فـي الـكـرام ومـذودي
تكـوي مـواسمـه جُنـوب المصـطلي
ولـقـد تـقـلدنـا الـعـشـيـرةُ امـرهـا
ونـسـود يـوم الـنـائـبـات ونـعـتـلي
ويـسـود سـيـدنـا جـنحـاجـحَ سـادةً
ويـصيب قـائلنـا سـواءَ الـمَـفْـصِـلِ
ونـحـاول الأمـر الـمـهـم خِـطابُـه
فـيهـم ونـفـصـل كـلَّ أمـر مُـعـضـل
وتـزور أبـواب الـمـلوك ركـابـنـا
ومتى نـحـكـم فـي الـبـريـة نَـعـدِلِ

انـه يراوح بـاعتـزاز ، بين نشـوات ثـلاث : نشـوتـه بالانتساب الى تلك العصابة في جلق .. ونشـوته بخمـرة حرفٍ ينهلها من يد غلاميـة نطف أو غـلام .. بعد أن رد تلك الخمـرة المقتـولـة بـالمـاء واستبـدلهـا بخمـرة غيـر

مقتولة ! ونشوته بسيادة قومه بني النجار على قبائل الازد والاوس والخزرج ومن يليهم من عرب الجزيرة .. الى درجة انهم يحكمون في رقاب الناس فيعدلون ولا يجورون ..

يعظ سكراناً :

وممسكٍ بصداع الرأسِ مِن سُكُرٍ
نادیتُه وهو مغلوبٌ فغداني
لما صحا وتراخى العيش ، قلتُ له
إن الحياة ، وإن الموت مثلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه
واعلم بأنْ كلُّ عيشٍ صالح فان

ولكنها موعظة تغري بالخمرة ، ولا تنهى عنها ، يتقبلها المخمور بالشكر رغم الصداع الذي تسببه : . وما دامت الحياة والموت سيان وكلاهما في الحقيقة موت ، فلا بأس من أقتناص الفرصة بين موت وموت .. مذهب حسان جاهلي سيصبح بعد قرن من الزمان مذهباً نواسياً ، ثم خَيّامياً .. وكان من قبل مدارَ فلسفةِ يونان ورومان .. وسراً من أسرار عقائدهم الميثولوجية وأساطيرهم : فللخمرة عندهم آلهة وملائكة

سقـاة ، وطقـوس ومـراسيم . . تحيي وتميت وتـنصـر الأبطال في الحروب . . .

يعيش مع الخمرة شرباً وشعراً :

دخل يوماً بيت خمار بالشام ومعه الأعشى . فاشتـريا خمـراً وشربـا . فنام حسـان . ثم انتبه ، فسمـع الأعشى يقول للخمار : كـره الشيخ الغُـرْمَ . . فتركـه حسان حتى نـام . ثم اشترى خمـرَ الخمـار كلهـا ، ثم سكبهـا في البيت حتى سـالت تحت الأعشى . . فعلم انـه سـمـع كلامه ، فاعتذر إليه .

فانشأ حسان يفتخر ويهجو :

ولـسنـا بِـشَـرْبٍ فـوقـهـم ظـل بُـرْدةٍ
يعـدون للحـانـوت تيسـاً مُفَصـدا[1]
ولـكـنـنـا شـرب كـرام ، إذا انـتـشـوا
اهانوا الصريح ، والسديفَ المسرهدا[2]

---

(1) من الفصد: شق العرق ليخرج منه دم فيشرب . . وكانت العرب تفعل ذلك ، ايام الشدة : يفصدون البعير ، فاذا خرج الدم سخنوه وأكلوه ويقول حسان : لسنا بشرب صعاليك ، يفصدون التيس ويأكلون دمه . .

(2) السديف : السنام . المسرهد : المُقَطع

وتحسبهم ماتوا زمين حليمةٍ
وإن تأتهم تحمدْ نِدامَتَهم غدا
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم
من المسك والجادي ، فتيتاً مبددا[1]
ترى فوق أثناء الزرابيِّ ساقطاً
نِعالاً وَقَسُّوباً ، وريطاً معضدا[2]
وذا نطف يسعى مُلَصِّقَ خدهِ
بديباجة تكفافها قد تقددا[3]

أنشودة للشباب المنصرم ، والذكريات :

إن شرخَ الشباب ، والشَّعَرَ الأ
سودَ ما لم يعاصَ كان جنوناً[4]
ما التصابي على المشيب ، وقد قَلْـ
ـبتُ من ذاك أظهراً وبطونا

---

(١) الجادي : الزعفران . وقيل له الجادي نسبة الى قرية بالشام ينبت فيها .
(٢) الزرابي : الطنافي . الريط : المنديل . قسوبا : خفاف ، لا واحد له.
(٣) ذونطف : الغلام المقرط . النطف : القرط . الديباجة : الثياب المتخذة من الابريسم . مقددة : مقطعة .
(٤) ما لم يعاص : ما لم يرتكب المعاصي .

إن يـكـن غَـثٌ مـن رُقـاشَ حـديـثٌ
فبمـا نـأكـل الحـديث سميناً . [1]
وانـتـصـبـنـا نـواصـيَ اللهـو يـومـاً
وبـعـثـنـا جنـاتَـنـا يـجـتـنـونـا
فـجـنـونـاً جَـنًـى شـهـيـاً حَـلِيـاً
وقـضـوا جـوعـهـم ومـا يـأكـلونـا
وامـيـنٍ حـدثـتـهُ سِـرٌ نـفـسـي
فـرعـاه حـفظَ الأمـيـن الأمـيـنـا

جغرافية الحبيب :

قال يمدح صديقه الأثير الأعز جَبَلَة بنَ الأبهم ، مبتدأ بوصف ديار الغساسنة أنسبائه وأحبائه . داراً داراً وموقعاً موقعاً :

لـمـن الـدار أوحـشـتْ بـمَـعَـانِ
بـيـن أعـلى الـيـرمـوك فـالـخـمـانِ
فـالـقـريّـات مِـن بِـلاش فـدارَ
يّـا ، فَسَكـاء ، فـالقصـور الـدواني

---

(1) رقاشَ : اسم المغنية . يقول : اذا كان حديث رقاش قد غث وفد ، وهي أحلى من في الحانوت ، فأي حديث بعد سمين ممتع . لعله يقصد : انه لا غناء في التصابي بعد المشيب . .

فَقِفا جاسم ، فأودية الصُّفَّر

مغنى قبائلٍ وهِجان[1]

تلك دار العزيز بعد أنيس

وحلولٍ عظيمة الأركانِ

ثكلت أمهم ، وقد ثكلتهم

يوم حلوا بحارثِ الجولان[2]

قد دنا الفصح فالولائد ينظمنَ

سِراعاً أكلةَ المرجانِ[3]

يجتنين الجادِيَّ في نُقَبِ الربط

عليها مجاسد الكتانِ

لم يُعَلِّلْن بالمغافر وَٱلصَّمغ ،

ولا نَقْفِ حنظل الشَّريان[4]

---

(١) كل هذه مواضع بأكناف دمشق كانت مقر مُلْك آل جفنة الغساسنة ؛ والمغنى : المنزل الذي غني به اهله ، اي أقاموا ، ثم ظعنوا عنه . والقبائل ، هنا ، الرؤساء من قولهم : فلان قبيل القوم أي عريفهم . وقوم هجان ، ورجل هجان ، ابيض كريم النسب نقية . والهجاف من كل شيء الخالص .

(٢) هو الحارث بن أبي شمر الغساني .

(٣) الفصح عند النصارى عيد ذكرى قيامة السيد المسيح . الأكُلَه : جمع اكليل .

(٤) المغافر : صمغ يسيل من الحنظل . ونقفه : كسره ' ستخراج ما فيه . يقول : ان ولائدهم شأنهن ان ينظمن الحلى واكلة المرجان ويصطبغن بالزعفران كأنه على ثيابهن الأزهار قد اجتنينها، ولسن ممن يجتنين صمغ المغافير وينقفن الحنظل كالبدويات .

ذاك مـغـنـى مـن آلِ جـفـنـة فـي
الـدهـر ، وحـقٌ تـعـاقـبُ الأزمـانِ
قـد أرانـي هـنـاك حـقٌ مـكـيـنٍ
عـنـد ذي التـاج مـجلسي ومكـانـي

ذكـريـات اليمـة تـعـاوده كلمـا تـاق الى حيـاة الجاهلية . . حياة لم تكن ، في الواقع ، حياة عـادية . . كانت له ، عند الغساسنة مهرجاناً ربيعياً ، عاشـه حلماً ؛ ولم يعشـه واقعاً بليـداً تنقضي لـذا ذاتـه إذا مـا مضى وانقضى ، وتتقطع في حواسه ، اسبابه . .

كل شيء ما زال ماثلاً في حس البـاصرة والبصيـرة : الـدار ، وقـد أوحشت ، في مكـان ، هنـاك في أعلى اليـرموك ، فـالقـريّـات من بـلاس ∴ ووديـان الصُّفَّـر ، فـداريا ، فسكـاء . فالقصـور الدواني . . هـا هي أعيـاد الفصـح تُقبل بكـل أفراحهـا وطقوسهـا : صبـايـا القصـر يسـرعن في جمع أكـاليل المـرجان ! وجني الـزعفـران ، يصيـطبغن به كـأنه على أثـوار من أزهار وورود . . صبـايا متحضـرات نـاعمـات ، لا تلطخ أيـديهن « ضـافـر » وصمـوغ ، ولا نقف حنـظل ، شيمـة البـدويـات في الصحـراء الـجـديب . . كـيف لا ! وهـن في مـغـاني الغسـاسنة وريـاضهم عنـد جلِّق ويصـرى والجـولان

والجابية .. آه !.. هناك كان مجلسي ومكاني .. بين يدي احبتي ولداتِ صباي .. لكنها الأيام ، وتعاقب الأزمان ..

غزلـه :

لم يكن حسان ، في شبابه ، زيرَ نساء ، كامرىء القيس مثلاً ؛ ولا كان « حصوراً » كابن المعطل . وكان على قدر من جمال الطلعة ملفت لفتيات المدينة حيث ترعرع ، وجلق ، حيث عاش أكثر أيام شبابه . وصفه الرواة بأنه كان ذا لحيَة سوداء ، وناصية (او غرة) قد سدلها بين عينيه ، وعثنون مخضب بالحناء ؛ لكي يبدو ، كما قال لابنه: « كأنه أسد والغ في دم .. » اميل الى الطول ، منه الى القصر .. وقد مرّ معنا ذلك . هذا من حيث الشكل والهندام .. اما من حيث الموضوع ، او الصفات والشمائل: فقد كان كريم العنصر ، طيب الأرومة ، نبيل النفس ، وفياً ، حاضر النكتة ، يتميز بجرأة أدبية ملحوظة ، كما رأينا ، فكيف به مع النساء ! ناهيك بقريحته الفياضة ، وشاعريته الموروثة عن آبائه وأجداده الذين كانوا كلهم شعراء .. وحتى اخته وابنه وابنته[1] ..

---

(١) يؤكد ذلك المبرد في قوله : « واعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان ، فانهم يُعْتَدّون ستةً في نسق كلهم شاعر » .

إذن : شباب ريان ، وشاعرية ، ومكانة ، وغنى . . فماذا ينقصه كيلا يفتك ، ويشبب ، ويلهو ؟ لا شيء سوى أن يكون فظاً غليظاً مع الفتيات ، لا يحسن الحديث إليهن ، أو التغزل بهن ، أو أن لا يكون قد أحب فعلاً . . نرجح أن لا . . ولا نؤكد . . وعذرنا أن آثار حسان الجاهلي من غزل وخمر ومجون شحيحة جداً . . ربما طمسها الرواة كيلا تنسب لشاعرٍ أصبح ، في الاسلام ، شاعر الرسول الأول ، والناطق باسم الدين الجديد ، أمامَ المشركين وربما كان ذلك عن عمد . فنحن نقلب أخباره في الأغاني فلا نجد له شيئاً من هذا القبيل ؛ وكذلك في المراجع القديمة الأخرى. وهذا ديوانه ، وشرح ديوانه ليس فيهما ما يُغْني . . إذ لا يعقل أن يكون شاعر كحسان توفرت له ، في الجاهلية ، كل أسباب الفتك والمجون والعربدة ، ولا يفتك أو يعربد أو يحب ثم يصف كل ذلك شعراً . . .

حادثة واحدة ، يذكرها الاغاني ، وهي مبيته مع الأعشى في خمارة[1] . وها نحن نثبت ما جاء في ديوانه أو شرح ديوانه من الغزليات ، وهو قليل جداً .

---

(١) ورد ذكرها في هذه الدراسة

ولا نقف، طبعاً، على ما جاء في مطالع مدحياته أو فخرياته من غزل تقليدي ولو ورد فيه اسم صاحبته شعثاء . .

قال يصف همومه الليلية بعد هجر شعثاء له :

تطاول بالخمّان ليلي، فلم تكن
تهم هوادي نجمه ان تصوّبا[1]

ابيتُ ازاعيها كأني موكل
بها، لا أريد النومَ حتى تُغَيبا

إذا غار منها كوكب بعد كوكب
تراقب عيني آخر الليل كوكبا

غوائر تترى في نجوم تخالها
مع الصبح تتلوها زواحف لُغبا

أخاف مفاجاة الفراق ببغتةٍ
وصرفَ النوى مِن أن تشت وتشعبا

وأيقنت لما قوض الحي خَيمَهم
بروعاتِ بينٍ يترك الرِأس أشيبا

(١) الجمان : موضع بالقرب من دمشق (شرح الديوان) .

واسمعك الداعي الفصيح بفرقة
وقد جنحت شمس النهار لِتَغْرُبا
وَبَيَّن في صوت الغرابِ اغترابَهم
عشية أو في غصن بانٍ فطرّبا
وكدت غداة البين يغلبني الهوى
اعالج نفسي ان اقوم فأركبا
وكيف ولا ينسى التصابيَ بعدما
تجاوز رأس الأربعين وجربا
وقد بان ما يأتي من الأمر واكتست
مفارقه لوناً من الشيب مُغْرَبا[١]
اتجمعُ شوقاً ان تراخت بها النوى
وصداً إذا ما اسقبت وتجنُّبا[٢]
إذا انبتَّ اسبابُ الهوى وتصدعت
عصا إلبين ، لم تَسْطِعْ لشعثاء مطلبا
وكيف تصدي المرء ذي اللب للصبا
وليس بمعذور إذا ما تطربا

---

(١) المُغْرَب : الأبيض.

(٢) اسقبت : بالسين أو بالصاد : من السقب : الدنو.المصاقبة : المقاربة .

اطيـلُ اجتنـابـا عنـهمُ غـيـرَ بُـغْـضـة
ولـكـن بُـقَيّـا رهـبـةٍ وتـصـحـبـا[1]

وهي كما ترى غـزلية عـادية لشـاعر هجـرته حبيستـه بعد أن بلغ الأربعين ، فلم يبق له سـوى التصابي والتـأوه وذرف الدموع . ولا أرى فيها شيئاً من خصوصية الشـاعر ولا من لـوعتـه الحقيقيـة وإذا مـا كـان قـد أحب شعثـاء فعلاً ، أم لا . . كما أنهـا يمكن أن تنسب إلى أي شاعـر جاهلي مخضرم ، أو اسلامي ، غير حسان . .

مـرّ الشـاعـر بنسـوة ذات يـوم فيهن عمـرة[2] وكـان خطبها سراً ، فاعرضت عنه . . وقـالت لامرأة منهن : إذا حاذاكِ هذا الرجل فسليه من هو ، وانسبي أخوالَه . فلمـا حـاذاها سـألتـه من هـو ، فـانتسب وسـألتـه عن أخـوالـه فأخبرها فاعـرضت عنه فحـدد لها حسـان النظر ، وعجب من فعلها بامـرأته وهي تضحـك فعرفهـا ، وعلم ان الأمر من قِبَلِها . فقال :

---

(١) البقيا : الابقاء . والتصحب : التمتع من الصحبة .

(٢) هي عمرة نبت الصامت بن خالد بن عطية تزوجها حسان ثم طلقها ثم اتبعها نفسه . وهي ليست عمرة بنت رواحة اخت عبد الله بن رواحة (من شعراء الرسول) والتي شبب بها الشاعر قيس بن الخطيم .

قـالـت لـه يـومـاً تـخـاطـبـه
نـفـجُ الـحـقـيـبـة غـادةُ الـصـلـب[1]

امـا الـوَسَـامـة والـمـروءة أو
رأي الـرجـال ، فقـد بـدا ــ حسـبي

فـوددتُ انـكَ لـو تـخـبـرنـا
مَـن والـداك ، ومـنـصـب الـشـعـب[2]

فـضـحـكـت ثـم رفـعـت مـنـصـلاً
صـوتـي أوانَ المـنـطق الـشـغـب[3]:

جـدي أبـو لـيـلى ووالـده
عـمـرو ، واخـوالـي بـنـو كـعـب

وانـا مـن الـقـوم الـذيـن اذا
ازم الـشـتـاء مـحـالـفَ الـجـدب

---

(١) نفجُ الحقيبة : عظيمة العجز . الصلب : عظم في مقدم أعلى الظهر .

(٢) المنصب : الأصل ومثله النصابي . والشعب : أبو القبائل فهو اكبر من القبيلة . ويأتي التسلسل هكذا حسب ترتيب الزبير بن بكار : الشعب ــ القبيلة ــ العمارة ــ البطن ــ الفخذ ــ الفصيلة . وهي على ترتيب خلق الانسان .. فالشعب اعظمها مشتق من شعب الرأس . ثم القبيلة من قبيلة الرأي لاجتماعها ، ثم العمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العضلية وهي الساق ..

(٣) الشغب (بسكون الغين) تهيج الشر والعامة تفتحه .

اعـطى ذوو الأمـوال مـعـسـرهـم
والـضـاربـيـن بـمـوطـنِ الـرعـب

حـوارية لا بـأس بها ، فيهـا من الخصوصيـة والرقـة والـذوق الشيء الكثيـر ، كمـا أن فيهـا غلو الشبـاب وغلواؤه ، سيمـا ذلـك الشبـاب المعتـز ، أمـام عمـرة ، بأرومته المتجذرة في أعماق العز والرفعة والكرم ، ابتـداء من جـده أبي لـيلى : الـنجـار أو تـيـم الله، ووالـده عمـرو بن عامـر ، وانتهاء بـاخوالـه بني كعب بن الخزرج بن ساعدة . وتعجبني تلك الضحكـة الانكازيـة من فتى مشـاغب عز عليـه أن تزري بـه عمرة امـام صـويحبـاتهـا فـانتفض رافعاً صـوته منتخيـاً بنسبه ، معـدداً مآثـر قـومـه الـذين إذا شتوا بـذلوا أمـوالهم للمعسرين ، وإذا خـاضوا الحـروب ضـربـوا في مـواطن الـرعب ، أي في صميم قلوب الاعداء . . وهي كنايـة رائعة وفق اليهـا الشاعـر ، تذكرني بكناية مثلها لأبي عبادة البحتـري في صراعـه مع الذئب ، حيث يقول : فاتبعتُها أخرى ، فاضللتُ نَصْلَهـا بحيث يكـون اللب والـرعب والحقـد[1] وتنتهي المبـارزة والمبـاهلة بسكـوت عمـرة وانتصـار حسـان الفتى المـدل

---

(1) انظر كتابنا: البحتري بين البركـة والايوان. ص ١٢٦ النـاشر: دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ١٩٨٢.

المشـاغب . كما ينتصـر الفن والشعر عنـد حسـان ، ربما ، لأول مرة في غزله ، ذلـك لأن سائـره وقوف على الاطـلال ، ومطالـع غـزليـة مصـطنعـة لا رصيـد لهـا من صدق أو فن . .

ومن فخرية لـه هذا المـطلع الغزلي الـدقيق الوصف لمفـاتن « النضيـرة » بنت القصـورِ وكـأنـه يعـرفهـا من ملاصقة ومعـايشة ، غـزله هـذا لا يثير بقـدر ما يعجب . لقـد نحت للنضيـرة تمثـالاً دقيق التفـاصيـل ، ولكنـه من مـرمر ليس فيـه حياة ، كمـا صور لنـا نفسه ذلـك البدوي الضـارب في الصحراء على هـدى الخبير سعيـاً الى قصر الحبيب النضير :

حـي الـنـضـيـرة ربـة الـحـذر
اسـرت إلـيـك ، ولـم تـكـن تـسـري
فـوقـفـت بـالـبـيـداء أسـألـهـا
إنـي اهـتـديـتِ لـمـنـزلِ السَّـفْـر
والـعـيشُ قـد رفـضـت ازمـتـهـا
مـمـا يـرون بـهـا مـن الـفـتـرِ
وعـلـت مـسـاويـهـا مـحـاسـنـهـا
مـمـا اضـربـهـا مـن الـضـمـر

كنا اذا ركد النهار لنا
نغتاله بنجائب صعر
عوج . نواج يعتلين بنا
يمضين دون النص والزجر
مستقبلات كل هاجرة
ينفحن في حلق من الصفر

إلى أن يقول :

فإذا الحوادث لا تضعفني
ولا يضيق بحاجتي صدري
يعيي سقاطي من يوازينني
إني لعمرك لست بالهذر
إني أكارم من يكارمني
وعلى المكاشح ينتحي ظفري
لا أسرق الشعراء ما نطقوا
بل لا يوافق شعرهم شعري
إني أبى لي ذلكم حسبي
ومقالة كمقاطع الصخر
وأخي من الجن البصير إذا
حال الكلام بأحسن الحبر

أنضيـــــر مـا بينـــــي وبينكـــــــم
صـــــرم ، ومـا أحـدثت مـن هجـر
جـودي فـإن الـجـود مـكـرمـة
واجـزي النحسـام ببعض مـا يـفـري
وحـلفـت لا أنـسـاكـم أبـداً
مـا رد طـرف الـعـيـن ذو شـفـر
وحـلفـت مـا أنـسـى حـديـثـك مـا
ذكـر الـغـوي لـذاذةَ الـخـمـر
ولأنـت أحـســن مـا بـرزت لـنـا
يـوم الـخـروج بـسـاحـة الـقـصـر
مـن درة أعـلى الـمـلوك بـهـا
مـمـا تَـرَبَّـبَ حـائـرُ الـبـحـر
مـمكـورة الـسـاقيـن شبـهـهـمـا
بـرديـتـا مـتـحـيـر غـمـر
تـنـمـي كـمـا تـنـمـي أرومـتـهـا
بـمـحـل أهـل الـمـجـد والفخر
يـعـتـادنـي شـوق فـاذكـرهـا
مـن غـيـر مـا نـسـب ولا صـهـر
كـتـذكـر الـصـادي ولـيـس لـه
مـاء بـقـنـة شـاهـق وعـر

ولـقـد تـجـالـسـنـي فـيـمـنـعـنـي
ضـيـق الـذراع وعـلة الـخـفـر
لـو كـنـت لا تـهـويـن لـم تـردي
او كـنـت مـا تـلويـنّ فـي وكـر
لأتـيـتـه لا بـد ، طـالـبـه
فـاقـنـي حـيـاءك واقـبـلـي عـذري
قـل لـلـنـضـيـرة ان عـرضـتَ لـهـا
لـيس الـجـواد بـصـاحـب الـنـزر
قـومـي بـنـو الـنـجـار رفـدهـم
حَسَن ، وهـم لي حـاضـرو الـنـصـر
جـرثـومـة عـز مـعـاقـلـهـا
كـانـت لـنـا فـي سـالـف الـدهـر

الحكمة عند حسان :

لم تكن « الحكمة » عند حسان « عملاً شعرياً مراعياً مستقلاً عن عمل الحدس واللاوعي وانبثاق العاطفة كما فعل المتنبي ، مثلاً ، في تجربته العقلية » او « تجربته الشعورية المعقلنة» إذا صح التعبير بمعنى ان حسان لم يكن يختزن في أعماقه ثقافة أو معرفة مميزة ترفده ، حين يمدح ، أو يتغزل أو يرثي أو

يهجو ، بقيم جاهزة يبثها في تضاعيف هذه الموضوعات ، فإذا بها حكمة أو رأي أو موقف . . كانت روافده ، في الجاهلية « معلومات » أكثر منها ، ثقافة ، اقتبسها من عادات وقيم الغساسنة وفي الاسلام رافداه، الأوحدان : القرآن وشخصية النبي .

الحكمة فلسفة ملموسة تختصر فهم الشاعر للمجتمع على نحو ما ، والكون على نمط تفكير خاص أو عام . . فإذا كان الشاعر منسجماً مع قيم المجتمع وسنن الطبيعة ، جاءت حكمته أو فلسفته تقليدية مكرورة ليس لها سوى إطارها الفني الذي يتميز به الشاعر المبدع . أما إذا كان الشاعر في موقف الرافض أو المصطدم بهذه القيم فتأتي حكمته نتيجة تفاعل شديد معها . . وهذا يعني مرور الشاعر بتجربة فكرية وشعورية مرة مرارة المعاناة والألم .

على أن من آفات الحكمة التي هي وليدة « العمل الفكري » في الشعر ، انها تحد من عفوية التفجر الشعوري ، مما يعيق تدفق التجربة ويثقلها ببعض الفلسفة ومماحكات المنطق . ويربط عملية الايحاء والاستيحاء بقيود التفكير والتجريد الذهني البطيء .

لا بأس أن تأتي الحكمة ، كما عند المتنبي ، نتيجة انفعال الشاعر بالمعاني انفعالاً شديداً ، ثم يتلقاها العقل المثقف ، في عملية تسلم وتسليم فيصوغها حكمة ، على أن نشعر نحن بذلك وليس الشاعر . . وان تنساب الحكمة انسياباً خفياً ، ثم تطفو على السطح ، هكذا ، وبدون أن يشعر المتلقي بأن من يرسلها إليه لا يتعمدها تعمداً . .

وأسوأ الحِكَم ، هي التي يتعمد الشاعر أن يختم بها قصيدته . . وكأنه خطيب واعظ يريد ، قبل أن يغادر المنبر ، ان يثير تصفيق الجمهور ، بعد أن أثاره قرفاً وانزعاجاً . .

فمن أي صنف كان حسان الحكيم ؟ .

من الانصاف للشاعر أن نقول أنه كان يمر في حالات توتر كئيب واستفزاز من بعض الموتورين ، فينبري لرد التهم الباطلة عن نفسه ، وليس من الضروري أن يكون بعضها تهمة الجبن[1] ينبري وهو في حال من التأثر والهيجان ونبرة الاستعلاء بحيث يأتي

---

(١) كما أكدنا بطلانها في فصل سابق .

دفاعه عن نفسه وكرامته متوجاً بالحكمة ، أو مصطبغاً بها . فهو حين قال :

وان امرءاً يمسي ويصبح سالماً
من الناس ، إلَّا ما جنى ، لَسَعيدُ

كان يعبر عن ألم دفين عاناه، من أولئك الظالمين الذين شنعوا عليه في كثير من صفاته ومواقفه . انها صرخة المظلوم ، في كل زمان ومكان ، وآهة البريء المجنى عليه ، في كل أوان . . هذه الحكمة هي من الحرارة والصدق والشمول بحيث لم نعد نشعر أنها تعبير عن حالة خاصة لشاعر معين ، بل هي لسان حالنا ، نحن ، في زمنٍ : السلامة من الناس ، وألسنة الناس ، ربح عظيم . . والبعد عنهم فردوس مقيم . .

وحين تلهى الابن والحفيد بهذه الحكمة فرَّخت لهما حكمة مماثلة ، ولكنها جاءت باردة ، ببرودة صاحبها . يقال إن عبد الرحمن بن حسان ، وكان شاعراً ، أراد أن يباري أباه في حكمته ، فنسخها ، إن لم نقل مسخها . . فأصبحت ، على لسانه ، هكذا :

وإنَ امرءاً نال الغنى ثم لم ينل
صديقاً ، ولا ذا حاجةٍ لزهيدُ

(الزهيد : اللئيم)

ثم جاء الحفيد وهو سعيد بن عبد الرحمان فصاغها كما يلي :

وإن امرءا لاحى الرجال على الغنى
ولم يسأل اللّه الغنى ، لحسودُ

اما ابنة حسان ، وكانت أيضاً شاعرة ، فلم تتدخل في هذه اللعبة . . ربما حدث ذلك بعد وفاتها . . من يدري . .

وفي الاسلام انقلبت حكمته رأياً تقريرياً ، أو عظة مأخوذة من القرآن والحديث . لا قيمة لها في ميزان الشعر ، كقوله :

هداهم به بعد الضلالة ربهم
وارشدهم ، من يتبع الحقَّ يَرشَدِ
وهل يستوي ضلالُ قوم تسفهوا
عمىً ، وهُداةٌ يهتدون بمهتدي

وقوله :

أرى كثرة المعروف يورثُ أهله
وسوَّد عصر السوء غيرَ المُسَوَّدِ
إذا المرء لم يفضلِ ، ولم يلق نجدة
مع القوم ، فليقعد بِصُغْر ، وَيَبْعدِ

وإنـي لأغنـى النـاسِ عـن متـكـلف
يـرى النـاسَ ضـلالاً وليس بمهتـدي

وينسخ قول لبيد وغير لبيد فيقول :

فـمـا الـمـال والاخـلاق إلا مـعـارة
فمـا اسـطعـت في معـروفهـا فتـزود

ولبيد يقول :

ومـا الـمـال والأهـلون إلا ودائـع
ولا بـد يـومـاً أن تـرد الـودائـع

وفي قـول لبيد رمـز بعيد لمـا افصح عنه حسـان في الشـطر الثاني من بيتـه . . ويبلغ من التقـريـريـة النثريـة مداها حين يقول :

مـتى مـا اتـيـت الأمـرَ مـن غـيـر بـابـه
ضللتَ،وان تـدخـل من البـاب تهتـدي

انـه ينـظم القـول المـأثـور : ادخلوا البيـوت من أبـوابها . . ولا يـزيـد شيئـاً . . لا نعـرفـه . . ومتى كـان الشعر تفسيراً وإرشاداً أخلاقيـاً ؟ من المفروض أن يكـون الشـاعـر أرقى من معـاصـريـه تفكيـراً وخيـالاً واستيحـاء ورؤ يـا ، حتى إذا عبر عن هـذه ، فاجـأ معاصـريـه ، أو

صدمهم ، أو هزمهم ، أو اغناهم . اما إذا تحدث إليهم بما يعرفونه وبما يسمونه « تحصيل حاصل » فلن يحرك فيهم شيئاً ، ولن يطيل من أعمارهم لحظة واحدة . . . بل قد يهدر منها لحظات !

وحسان لم يرق في شعره عامة ، وفي حكمته خاصة ، إلى أرفع من مستوى معاصريه ، بل حدثهم بما يعرفون وبما يألفون ، وصاغ كل ذلك شعراً ، لا سيما في الشطر الإسلامي من حياته . وتغنى لهم بمآثر النبي وبطولات حوارييه . وهاجم بخبرة ولباقة وشدة أعداءَ الإسلام ، فارضى المسلمين ولكنه لم يُرْضِ الشعر . . كما يجب . .

اعلان مبادىء فروسية :

طالما كان حسان يهذي بشمائل البطل ، ويحيا في لا وعيه قيما فروسية جاهلية كرسها الاسلام ونادى بها لأنها تتلاءم مع القيم الاسلامية الجديدة : كعفة اللسان ، وزباطة الجأش ، والقول الفصل ، والجود مع قلة المال ، والعفة والحياء ، واحتمال أذى الدهر ، والصبر على الجوع ، والبشاشة ، والنجدة الخ. . . ها هو ينقلها من لا وعيه إلى وعيه ، إلى شعره ، يغني بها

كأنها حقائق ثابتة عاشت فيه وعاش لها وبها ، خصوصا أمام شعثاء :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا
علي لساني، في الخطوب، ولا يدي[1]
لساني وسيفي صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي[2]
وإن أك ذا مال قليلٍ أجد به
وإن يُهتَصر عودي على الجهد يُحمَدِ
فلا المال ينسيني حيائي وعفتي
ولا واقعات الدهر يظللن مبرِدي
أكثِّرُ أهلي من عيال سواهم
وأطوي على الماء القراح المبرد
وإني لمعط ما وجدت ، وقائلٌ
لموقد ناري ليلة الريح أوقدِ

---

(١) لم يجرؤ على القول : في الحروب بدل الخطوب . . انسجاماً مع واقعه . فهو قد يكون بطلاً في الخُطوب لا في الحروب . . وفارساً معلماً من فرسان الشعر والإباء والكرم والعفة والجاه وسوى ذلك . . ما عدا فروسية الحرب وسفك الدماء . .

(٢) المذود : اللسان . وحقاً ما قال حسان . لسانه قد بلغ من الاعداء ما لا يبلغه السيف فيهم . . وهكذا عوض بلسانه عما فقده في ذراعه وسيفه .

وإنـي لقـوال لـدى البـث مـرحـبـاً

وأهـلاً إذا مـا جـاء من غير مَـرْصَـدِ

وإني ليـدعـونـي النـدى فـأجيبـه

وأضـرب بيض العـارضِ المتـوقـدِ[1]

وانـي لـحـلوٌ تـعـتـريـنـي مـرارة

وانـي لَـتَـرَّاكٌ لِـمـا لـم اعـوِّدِ

واني لمـزجـاء الـمـطيّ عـلى الـوجى

وانـي لتـراكُ الـفـراش الـمـمهـد

وماذا يملك الشاعر امام الحبيبة سوى أن يغني هـذه النخـوة اليعربيـة والشمائـل البدويـة التي بلورها الاسـلام وأبقى عليهـا ؟ مـاذا عليـه ان حـازهـا كلها وعـاشهـا وجسدها ، ما عدا واحـدة منها . . فليكن اللسـان والبيان والجنان بديـلاً عنها وأقـوى منها . . ويستـوي فيه البـطل والفـارس والشاعـر على حد سـواء . . وليذهب الاعـداء ببـطولـة السيف وحـدهـا . كمـا ذهب ذاك الحصـور صفوان . . .

رأيه في الشعر :

الشعـر ، في نـظر حسـان غنـاء وتـطريب . على

(١) بيض العارض : تدفق المطر .

الشاعر أن يجيد تأليفه وإيقاعه ، ليجيد الملحن تلحينه والمنشد غناءَه . قال معلناً رأيه :

تغن بالشعر إما كُنت قائله
ان الغناء لهذا الشعر مضمار

والشعر صدق في القول ، وفي التعبير عن الشعور ، لا كذب ولا تفيش ، وهو « لب المرء » أي عقله وجوهر تفكيره :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إنْ كَيْساً ، وإنْ حُمُقا . .
وإن أشعَرَ بيتٍ أنتَ قائلُه
بيت يقال إذا أنشدتَه صدقا

انه رأي متقدم نسبياً حين يقول شاعر كحسان بموسيقية الشعر وإيقاعيته وحسن وقعه على الاسماع ، وانه نتاج عقل الانسان وتفكيره . فإن كان هذا العقل غنياً جاء الشعر غنياً ، وإن كان مفلساً فارغاً أحمق جاء الشعر كذلك . . أما مسألة الصدق الذي يْعنيه حسان وهو الصدق الاخلاقي فنظرية عفى عليها الزمن . إذ ليس الشعر ، كما نفهمه اليوم ، تعبيراً عن الحقائق المادية الملموسة والقيم الأخلاقية المعروفة بقدر ما هو

تصـور لها واستيحـاء منها ، أو تصـادم معهـا ورفض لهـا وارتفـاع بها إلى حقـائق أخرى يـراها الشـاعر ولا نـراهـا نحن . والشاعر بهـذا المفهوم يتخـطى الحقائق والعـرف والمتداول ، والواقـع الى واقع اسمى وارقى يـريده لهـذا الانسـان الحائـر المتخبط في خضم واقعه وجبـرية حيـاته ونكد عيشه . . وهنا يتجلى صدق آخر هو الصـدق الفني الذي لا قيمة لأي صدق غيره في الشعر .

الشـاعر رسـول إنقلابي ثائر، بـامكـانـه تغييـر العـالم وتحرير الانسان . .

عفـواً حسان أنـا لا أطلب منـك فهمـاً للشعـر أكثـر مما فهمت . وأشهد أن ما فهمته كان شيئاً رائعاً . .

فهرس

الأعشى

«يُبْصِرُ ليلاً!»

الموسوعة الأدبية الميسرة

٩



الأعشى

«يبصر ليلاً!»

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين

دار ومكتبة الهلال

بيروت - لبنان

طبعة جديدة منقحة
١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ٥٠٠٢/١٥ برقياً مكتبهلال

استهلال :

ابـوك قتيل الجـوع قيسُ بن جنـدلٍ
وخـالك عبـدٌ مِن خُماعَـةَ راضـعٌ[1]

قَتَـلَ الجـوعُ أبـاه ، وازرت العبـودية بخـالـه ، وانتصرت عليه اريستوقراطية الوثن ، وصنميـة السيادة

(١) خماعة : بطن من العرب سموا باسم خُماعة بنت جشم بن ربيعة بن زيد مناة . والراضع : اللئيم .
اما لماذا لقب ابوه بقتيل الجوع فالروايات تقول : ان اباه قيس دخل يوما مغارة يستظل فيها من الحر فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم المغارة ، فمات فيها قيس جوعا . فسمي قتيل الجوع . والبيت : ابوك قتيل الجوع .. هو لخصمه ومنافسه جهنام واسمه عمرو وهو من بكر يعيره فيه بأبيه وخاله .
انظر : ابن قتيبة والاغاني وطبقات الشعراء وسواها..

الفوقية، أو هكذا خيل اليهما.. فتحداهما بجوعٍ آخر.. هو الجوع إلى الشهرة، ونباهة الذكر، ومجد الشعر.. بديلاً أروعَ وأخلد.. غطى على جوع الأب وفقره، وعبودية الخال وهوانه..

وحمل الاعشى هَمَّ الجوعين، وذلَّ الابوين.. لكنه سَدَّ الجوعَ الاول بالمحلق، ومن هم فوق المحلق وتحته.. وسد الثاني: بالشاعرية المبدعة، وتحقيق سيادة مضادة، هي سيادة الشعراء الجياع بوجه سيادة المتخمين من عتاة قريش.. مؤيدة بصداقة الأحبار، وسدنة الكعبة في نجران، وعُبَّاد الحيرة، وامراء لخم وغسان، ورفاق الصبا في اليمامة..

ويغيب الشاعر، بعد هذا، في نشوة الخمر والنصر والشعر، ولا يستفيق منها إلا على نداءِ شيخ في اعماقه يهيب به ان يتطهر بالاسلام.. لكن ابا سفيان كان له بالمرصاد فرده عن قصده بالمال والدهاء فعاد.. وما لبث ان سقط ومات ولم يتطهر!

وعاد لِداتُ العمر يَسْكرون على قبره، كما اوصى، ثم يغادرون وقد اهرقوا ثمالات كؤوسهم على ترابه، عله بهذا يروي، كما شاء، عطشه، ويحيا من

جديد متحدياً ، بـالشعر ، والسكـر عفـونـة المكان ، وقسوة الزمان ، وسخرية الموت . .

ورغم عشـا بصـره ، رأت بصيـرتـه ، وتفتحت سريرته ، فأبصر ليلاً ، سوادَ صحرائِهِ ، ونفذ بشاعريته الى ابعد ما يراه المبصرون . . نهاراً . .

ولعله لم يتـاجرْ بشعـره إلا ليجعل لهـذا الشعـر « ثمنـاً » مفـروضـاً على مَن لا يُقَـدر الشعـرَ من التـافهين . . وليحقق ، بهـذا الثمن ، نـوعَ حيـاتـه وسيادته ، ويحتفظ بحريته وشاعريته . .

وهكذا كان الشعر في مفهوم الأعشى زاداً يومياً ، كما كان وسيلة اكثر منه غـاية . عليـه طابـع البريـد اليومي . به يتبلَّغ ويبلِّغ ، يراسل ويـوعز بـالجواب ، يحاور ويداور ، ويدافع عن القبيل والعشير ، ويتخلص من المآزق . .

أما لماذا كان يغني كل ذلك غناءً صاخباً ، وعلى الصنـج بالـذات ؟ فلكي يوقظ النيـام ، في نظري ، ويجمهر حوله الناس ، ويؤكد في حدسه الصافي حقيقةً في الشعر القديم بارزةً ، هي أن الايقاع وحده لا يكفي ،

وأن تلاوة الشعر، كما في النثر، لا تحرك وحدها القلوب والجيوب..

فلا بد من غنائه غناء مجهورا ، ليدخل متجاوزاً الآذان الى الوجدان .. يقول الشاعر الانكليزي وردز ورث : ان الشاعر حين يغني اغنية ، ينضم اليه فيها كل بني البشر ، انما يكون بحضرة الحقيقة .

ولعل صناجة العرب كان بغنائه هذا يرضي حاجتين في نفسه لا حاجة واحدة : يهدهد آلامه ، ويملأ فراغ شبابه ، من جهة ، ويجعل سلاطين المال والجاه تخضع لسلطان الشعر ، ودولة الشعر ، من جهة ثانية .. حتى انقلب الشعر الجاهلي على يد ابي بصير موكباً او مهرجانا ، ثم سوقاً للمزاد العلني ، الدَلّال فيه الشاعر ، والبضاعة الكاسدة مادة المزاد ، واجرة الدلالة : ضيافة وخمرة وشواء ، وهدايا ثياب حريرية . ونياق جزورية .. ثم انصراف الى الهدوء في اليوم التالي ، استعدادا لمزاد آخر على بضاعة اخرى .. وهكذا .. وقدَ يكتفي من كل هذه « الهمروجة » بثمن سكرة في ليلة واحدة .. ولكن مع الرفاق دائماً .. وعلى حسابه .. بلا حساب .

هويته :

هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل . . بن بكر بن وائل بن أسد بن ربيعة بن نزار . يكنى أبا بصير [١] وشهرته : اعشى قيس ، واعشى ربيعة ، واعشى بكر ، والأعشى الاكبر ، لأنه اول « العشو » [٢] واستاذهم . نعت ابوه قيس بقتيل الجوع . اما امه فلا نعرف عنها شيئاً نظرا لأن حياة شاعرنا الخاصة ولا سيما

(١) هي عادة عند العرب قديما : يلقبون او يكنون فلانا الاعمى بابي بصير ، تيمنا او تلطفا او تعويضا . والاطرش بسمعان ، والاسود بأبي البيضاء . والملدوغ بالسليم . كما كانوا ، في الجاهلية ، يسمون بعض ولدانهم بأفعى ، وثعلب ، وكلب ، وصخر ، وذئب . او يلصقونه بأحد الأصنام فيجعلونه عبد اله ، كعبد اللات (استبدل في الاسلام بعبد الله) وعبد مناف (مناف اسم لأحد اصنامهم) كل ذلك تسليما بالعبودية ، او تيمنا او تعوذاً وابعادا لشر هذه الرموز بالانتساب اليها ، والتسمية باسمها .

(٢) تذكر كتب الأدب شعراء كثيرين ممن سموا « بالاعشى » ذكر المستشرق Geyer اثنين وعشرين شاعرا منهم . اما الاغاني فيذكر من هؤلاء « العشو » ثلاثة فقط هم . شاعرنا الاعشى الأكبر . واعشى همدان الذي عاش في الاسلام ايام الامويين واسمه عبد الرحمان ويكنى بأبي المصبح (اغاني ج ٦ ص ٣٣) واعشى بني تغلب واسمه ربيعة (وقيل النعمان) بن نجوان يحيى بن معاوية . كان نصرانيا يتردد بين البداوة والحضارة ما بين الموصل وديار ربيعة ودمشق (بروكلمن : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٢٣٨) .

نشأته الاولى قد طمست اخبارها .

صفته :

أتصوره في شبابه الأول فتى سويا ، على قدر من الجمال مقبول ، نشيطا ، معتدا بنفسه ، وشاعريته ، يجوب اطراف الجزيرة على جَمَل شديد ، ما بين حَضْرَمَوت والحيرة تارة .. وقريته منفوحة باتجاه كعبة نجران (او كنيستها) تارة اخرى ...

لا يهدأ له بال ، او يستقر الا عند هؤلاء الكهنة والسدنة حيث الصحبة الحميمة والخمور المعتقة .. او في الحانوت مع الرفاق ، وبين « شلا شيله » وتابعيه باحسان ، الى ان يفسدوا عليه نشوته وحريته ، فيستبدل بهم آخرين ... ويبقى وحده « الشلشل » الوحيد يجاور الكاس والطاس والقينة والساقية..

كما اتصوره وقد عشي بصره من كثرة ما زنى وشرب وطاف ، اشعثَ اغبرَ مهزولا على غير قوة .. وكأن عمر بنِ ابي ربيعة كان يرسم صورة الاعشى ، لا صورته أمام نُعْم ، حيث قال :

رأت رجلا ، إما اذا الشمس عارضتْ

فيضحى ، وإما في العَشي ، فيحسرُ

اخــا سَفَـرٍ جـوابَ ارضٍ تقـاذفتْ

بـه فـلواتٌ ، فهــو أشـعثُ أغبــرُ

اشعثُ ، اغبــرُ ، صحيــح .. ولكن في غيــر الحـروب . بـل وصـولا الى حيث يهـوى وينتشي ، ويسترزق . .

لهذا هو اعشى ، بل أعمى ، لا لأنه ذكر كلمة اعشى في شعره ، كما ظن البعض . ومنهم المستشرق هفز [1] . يقول الاعشى :

ألَن رأت رجــلاً اعــشى اضــربــه

ريبُ المنــون ، ودهـر مفنــد خَبِلُ

ومن كان هذا دأبه ، طوال حياته ، حري بأن يعشا ويعمى ويُشل !

ولَم يكن الأعشى يعرف الوسط في حياته اللاهية ، او يلزم حالة واحدة راضيابها . . بل هو تارة مكساب متـلاف ، وتارة معـدم فاقـع الاعدام ، يستعيض عن

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية ج ١ ص ٤٨١ .

الخمرة الثمينة ، بالفضيخ والدردي [1] ويستعيض باللبن عن اللحم الغريض . يحفى حينا وينتعل حينا ، راضيا بالحالتين معبراً بحب وقناعة ؛ عنهما :

إمـا تـرينـا حفــاة لا نِعـال لنـا
إنـا كـذلـك ، مـا نحفى وننتعـلُ

ومترجحاً دائماً بين جِد وعَبَث وهـو الى العبث اميـل ، يـراوح بين كفـر وايمـان ، واثبـات ونفي ، ومجوسية ونصرانية ، يـذكر الله ويلهـج بالتـوحيد . . ولكن بشفاه مخمورة على الدوام !

قبيلته :

عرفنا من سلسلة آبائه واجـداده ، انه من قبيلة بكر بن وائل المتعـددة البطون والافخـاذ ، والشعب ، تضرب من وادي الفرات ، الى اليمامة . ومن اهم هذه الفـروع شيبـان ، ويشكـر ، وجشم ، وعجـل ، ثم حنيفة ، وقيس بن ثعلبة ، وكانتا تضربان في اليمامة .

(١) الفضيخ والدردي : نوعان رديئان من الخمور (لسان العرب مـادة فضخ) .

ومن قيس تنشعب بنو عبدان ، وبنو كعب ، وربيعة ، وسعد بن ضبيعة ، ومنهم الاعشى .

شاركت قبيلته في حرب البسوس التي يُقال إنها دامت اربعين سنة ، وفي يوم الكُلاب [1] كما شاركت في حروب المناذرة ضد الغساسنة . وكان لهذه القبيلة من المنعة والقوة ما جعلها قادرة على حماية النعمان بن المنذر في وجه كسرى ابرويز . فقد روي ان هذا الأخير ، لما غضب على النعمان لجأ هو واسرته الى بني شيبان إحدى قبائل بكر ، واستودع عند رئيسهم هانىء بن قبيصة الشيباني اولادَه ودروعه الألف . لكن كسرى استطاع استدراجه الى حاضرته بالمدائن ، وزجه في السجن ، ثم قتله . ويقال إنه رمى به تحت ارجل الفيلة فمزقته إربا [2] . وكان آخر عهد المناذرة في

---

(١) هو يوم غزافيه الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي بكر بن وائل ملوك الحيرة اللخميين ، فانتزع ما في ايديهم من ديار بكر ، وكر على الغساسنة ، فردهم الى اقاصي اعمالهم .. ثم طُعن في نبضه فنزف ومات ودفن في عاقل ، وهو واد بنجد . وتجمعت القبائل العربية الحليفة ، بعد اغتياله عند ماء يسمى الكُلاب . وهناك يوم آخر يُسمى الكُلاب الثاني (للتفصيل انظر العقد الفريد ج ٥ ص ٢٢٢) .

(٢) يبدو ان النعمان هذا (وهو النعمان الثالث ابن المنذر الرابع ، المكنى بابي قابوس) كان يستحق مثل هذهالميتة ، لكثرة ما ارتكب من جرائم . =

الحيرة ، اذ ولىَّ الفرسُ عليها اياس بن قبيصة الطائي ، فثارت حمية قبيلة بكر التي آوت النعمان ، على إياس والفرس معاً ، واشعلوها حرباً شعـواء، انتهت بهزيمة منكرة للفرس ، في معركة شهيرة هي معركة ذي قار . انتصر فيها العرب ، لأول مرة ، على الفـرس ، بعد استخدام واذلالٍ داما طـويلا . وبقيت الحيـرة ، بعد ذلك ، في اضطراب وتجاذب ، حتى استولى عليهـا القائد المسلم خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ ميلادية .

مكانة الحيرة(١) :

اصبحت الحيرة ايام المناذرة اللخميين موئل الادباء والشعراء ، لا سيما ايـام المنذر الاول ، ثم المنـذر الثالث بن ماء السماء رغم كثرة المحن والحروب في

= فهو الذي قتل عدي بن زيد العبادي الشاعر المشهور . مع انه كان قد زوجه ابنته هند ، بعد علاقة حب بينها وبين الشاعر . . لكن سرعان ما انقلب النعمان على صهره حسدا وغيرة . . لأن عدي نال حظوة كبيرة لدى كسرى (خسرو) ابرويز . فما زال به حتى حبسه وقتله . غير ان زيدا بن عدي ما لبث انِ احتل مكانة ابيه عند خسرو فأوعز صدر الملك عليه ، فاستدرجه من الحيرة الى المدائن ، وقتله شر قتلة، كما تقدم . (انظر : تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١١٢) .

(١) الحيرة : او حيرتا السريانيةومعناها الخيمة .

عـهـده. وكثرة جرائمه بسبب وبدون سبب .يـروى انه قد كان له يومان في السنة : يوم سعد ، ويوم نحس . فمن جاءه في يوم سعد كرمه واعطاه . ومن جاءه في يوم نحسه قتله [١] .. ومن سخرية الاقدار ان يكون اول ضحية لهذا الطاغية، الشاعر الجاهلي المعروف عبيد بن الابرص الذي صادف أن جاءه في يوم نحسه فقتله ، على ما تقول الرواية [٢] .

ومهما يكن، فقد عرفت الحيرة ، في ايامه ، ازدهارا عمرانيا وفكريا وزراعيا ودينياً ملحوظا . نشـطت فيها الصابئة والمجوس عبدة النجوم فاز دهر على ايديهم علم الفلك والنجوم ، كما نشـطت المذاهب الـدينية

(١) جاء في الاغاني خبر هذين اليومين مفصلاً . وقد لخصه حتي في تاريخ المطول (ج ١ ص ١١١) فقال : وفي كتاب الاغاني قصة ممتعة جاء فيها ان المنذر بن ماء السماء (امه مارية او ماوية) نادمه رجلان فأغضباه في بعض مسائل المنطق . فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظاهر الحيرة ، ثم يجعلا في تابوتين ، ويدفنا في الحضرتين . فلما اصبح سأل عنهما ، فاخبر بهلاكهما ، فندم على ما فعل ، وامـر ببناء الغـريين عليهما . وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى احدهما يوم نعيمه ، والآخر يوم بؤسه . فاول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل . واول من يطلع عليه يو بؤسه يأمر به فيذبح ويرش بدمه الغريان .. الخ .

(٢) تاريخ المطول ج ١ ص ١١٠ .

القديمة كالزراد شتية والمانوية ، والمزدكية ، وتغلغلت في معظم طبقاتها الديانة المسيحية . يقال إن المنذر هذا هو الذي أسر احد ابناء الحارث بن جَبَلَة المسيحي ثم قدمه ذبيحة للعزى ، كما قدم اربعمائه راهبة نصرانية ذبيحة لتلك الإلّهة نفسها (١) . لكنه ما لبث ان لاقى جزاء ما فعلت يداه فقتل في يوم حليمة . .

واستمر ازدهار الحيرة على تصاعد ، في عهد ابنه عمرو بن هند (٢) :

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٢

(٢) كانت هند ام عمرو اميرة نصرانية غسانية . وهي بنت الحارث ابن عمرو ابن حجر آكل المرار الكندي . بَنَت في الحيرة ديرا يعرف بدير هند . بقي الى القرن الثاني الهجري (طبري ج ٢ ص ١٨٨٢) ذكر ياقوت نص العبارة المحفورة على ناصية الدير وهو : بَنَت هذه البيعة هند أمَةَ المسيح وام عبده (عمرو) وبِنْتَ عبيده . وهند هذه هي بطلة قصة الاستخدام الشهيرة التي ذهب ضحيتها ابنها الملك عمرو بن هند . ملخص القصة : كان عمرو بن هند فخوراً كأمه عاتيا . جعل من الحيرة موئلا للادباء والشعراء العرب كالشاعر طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، قال يوما لجلسائه : اتعرفون ، في العرب ، من تأنف امه من خدمة أمي ؟ فقالوا : ليلى بنت المهلهل ام عمرو بن كلثوم . فاحتال حتى استقدم عمرو وأمه وحاشيتها الى قصره . وفيما هم يتسامرون اذ سمع عمرو استغاثة امه وهي تصيح : واتغلباه ، واذلاه ! وفي لحظات كان رأس عمرو بن هند يطيح به سيف ابن كلثوم ! وتكون المعلقة :

ففي .الزراعة : اخترقت ارضَ الحيرة السواقي والترع ، فاز دانت سهولها بحقول الحبوب والفواكه والأعناب والنخيل . وطاب هواؤها وعذب ماؤها .

وفي العمران: بعد ان كانت الحيرة خيما ، (كما يدل اسمها) اصبحت بين ليلة وضحاها عامرةً بالقصور والدور والاديار والبيع . ومن اشهر قصورها : الخورنق [1] والسدير [2] ودير هند .

= ابا هند فلا تعجل علينا .وانظرنا نخبرك اليقينا الخ .

اما سبب الاستغاثة فهي ان هند ، وقد نوت إذلال ليلى قالت لها بعد الطعام : ناوليني هذا الطست . فتجاهلت ليلى الطلب ، فكررت هند ثلاثا ، فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . لكن هند ألحت في طلبها ولجت . فما كان من ليلى الا ان صرخت لتسمع ابنها . وكان ما كان . . .

(١) بنى النعمان قصر الخورنق في ظاهر الحيرة . ومعنى الخورنق في الفارسية : القصر المنيع : استقدم لهندسته أمهر مهندسي الفرس (او الروم ؟) سنمار الذي ذهب بدوره ضحية هذا الطاغية بأن هوى به من على القصر . ويقال ان السبب هو اعتقادهم بأن الأثر الفني الرائع لا يمكن ان يبني مثله احد غير بانيه (حتي . تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١٠٩) .

(٢) وبنى السدير ايضا في وسط البرية التي بين الحيرة وبين الشام (المصدر نفسه ص ١١٠) .

سكانها :

كان سكان الحيرة من بقايا الأكاديين والآراميين ، وهم الذين ازدهرت الزراعة على ايديهم . اما الجالية الفارسية فكانت تمتهن بعض الحرف والصناعات اليدوية . ويعتقد انه كان في الحيرةيهود ، بدليل وجود حركة تجارية ناشطة فيها ، جعلت منها نقطة تواصل تجاري هام ، ما بين فارس والمدائن منْ جهة، وسوريا والجزيرة ، وامارة كندة واليمن من جهة اخرى . كما كان فيها اخلاط من القبائل العربية والنبط .

وسارت من الحيرة الى الجزيرة مؤثرات الحضارة فدخلت النصرانية الى نجران عبر سائحيها ومبشريها . ويؤكد ابن رسته في كتابه « الاعلاق النفيسة » ، « ان قريشاً انما اخذت الكتابة من الحيرة ، كما اخذت الزندقة »[1] .

وها هو الأعشى يأتي على رأس الشعراء الذين وفدوا وتأثروا ، وظهر في شعرهم ولا سيما الخمري والديني كلمات فارسية وصور دينية كثيرة . فاذا بشعر

---

(١) الزندقة : من زيديك في الفارسية ومعناها : مجوسي عابد نار .

الاعشى على الخصوص ، يصبح وثيقة تاريخية وحضارية هامة ، مع احتفاظ الشاعر فيها ، بنفس شعري مميز ،وعذوبة اسلوب واضحة ، على حد تعبير عبد الملك بن مروان حين قال لمؤدب اولاده : « ادبهم برواية شعر الأعشى فان لكلامه عذوبة » . وقال : « اذا اردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزرق من بني قيس بن ثعلبة (وهم رهط الأعشى) .

مذهبه :

اذا كان للاعشى من مذهب ثابت ، وهو ما لا نراه منسجماً مع نفسيته وحبه للتنقل والتغيير ، فهو القَدَرية التي اخذها عن العباديين [1] يقول الاغاني : ان الاعشى كان قَدَريا ، وكان لبيد مثبتاً . وقدريته تظهر في قوله :

استأثر الله بالوفاء وبالـ
عدلِ ، وولى الملامةَ الرجلا ..

(١) سماهم العرب بذلك لانهم عباد المسيح . (انظر : حتي تاريخ العرب المطول ج ١ ص ١٠٧) .
كان الاعشى يأتي هؤلاء ليشتري منهم الخمرةالحمراء (او النبيذ) فلقنوه مذهب القَدَرية .

وعندي ان الأعشى لم يكن يهمه ان يكون قدريا ، او مثبتاً ، بقدر ما كان يهمه ان يعانقَ باستمرار حريته وشعره ، ورضى ممدوحه ، من اجل غاية واحدة لا يحيد عنها : الخمرة ! يحاور كل هؤلاء من اجلها ، ويداورهم ، ويحيا معهم ، ويناقشها ، ويدافع عنها شأن المثقفين في ايامه من اصحاب الفرق والمذاهب والفلسفات الذين كانت الحيرة تعج بهم . كان الاعشى مستمعا هناك ، لا اكثر ولا أقل . ولسرعة بديهته وميله الى تلك الحياة الحضرية والحضارية ، كان يقتبس بعض كلماتهم ، واصطلاحاتهم ، ويحاول ان يطبق ، في الخمرة مثلاً ، عندما يعود ، كيفية تناولها في مجالس خاصة وحالات خاصة . وكان يصف كل ذلك وصفاً دقيقاً بارعاً . ولا شك ان الجو المسيحي المسيطر في الحيرة ، والوثني ، وتلك الحرية المتاحة في اوساط المدينة الراقية قد أثرت في نفسية الشاعر ، ورققت من ديباجته الجاهلية ، فحفل شعره بكل ذلك ، كما سنرى .

رواة شعره :

يقال إنهم كانوا ثلاثة : احدهم وهو عُبَيد كان

يصحب الأعشى في ترحاله . وقد ذكره في شعره . قال يصف ناقته :

لم تُعَـطف على حُـوار ، ولم يقـ
طَـعْ عُبَيـدٌ عـروقَهـا مِن خُمـال

ومنهم يحيى بن متى النصراني . واحيانا يرد اسم يونس بن متى بدل يحيى .. فاعْتُبِروا ثلاثةً خطأ .. والواقع انهم واحد ، كما يؤكد ذلك احد المحققين المعاصرين [١] ويحيى بن متى هذا ـ هو الذي ادخل على بعض قصائد الأعشى ابياتاً ليست له الغاية منها اظهار مسيحية الشاعر أو تأثره بها . مما جعل الأب لويس شيخو يدخله في عداد شعراء النصرانية في الجاهلية [٢] كما وافقه على ذلك بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح اساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية في الحيرة ، ويمثل قوله :

ربـي كـريـم لا يـكـدر نـعـمـة
واذا ينـاشـد بـالمـهـارق انشـدا

(١) انظر : مصادر الشعرالجاهلي وقيمتها التاريخية د . ناصر الدين الأسد ص ٢٤٠ ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .
(٢) انظر : شعراءالنصرانية ص ٣٧٥ .

والمهارق الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصراني ترتل لربه الاناشيد الدينية الكنسية . غير ان هذا ليس حتماً ، كما يقول الدكتور شوقي ضيف [1] « فقدتكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض ادعيتهم . وقد يكون البيت دخيلا على القصيدة ، ادخلهراوية ديوانه المسيحي ، كما ادخل في قصيدة اخرى قسَمَه بالمسيح في قوله :

وانـي وربِّ الساجـديـن عشيـةً
وما صَكَّ ناقوسَ النصارى ابيلها [2]

الى ان يقول : لقد كان الاعشى وثنياً غاليا في وثنيته .. الخ » .

شيطان الاعشى :

سحل ابن أثاثة [3] وهو مصدر وحيه . كماكان

---

(١) أنظر : العصر الجاهلي ص ٣٣٨ د. شوقي ضيف . دار المعارف بمصر .

(٢) ابيلها : كاهنها . صك : دق .

(٣) ويروي شاعرنا عن جنيه مسحل الخبر التالي قال : خرجتُ أريد قيسَ بنَ معد يكرب بحضرموت ، فضللت في أوائل أرض اليمن ، لأني لم أكن سلكت ذلك قبل ، فأصابني مطر ، فرميت ببصري أطلب =

مكاناً الجأ إليه ، فوقعت عيني على خباء من شَعر ، فقصدتُ نحوَه ، وإذا بشيخ على باب الخباء ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، وادخلَ ناقتي خباءً آخر كان بجانب البيت ، فحططت رحلي وجلست ، فقال : مَن أنت ؟ وأين تقصد ؟ قلت : أنا الأعشى ، أقصد قيسَ بنَ معد يكرب . فقال : حياك الله ، أظنك امتدحته بشعر ؟ قلت : نعم . قال : فأنشدنيه ، فابتدأت مطلعَ القصيدة :

رحلت سمية غدوةً أجمالها　　غضباً عليك ، فما تقول بدا لها

فلما أنشدته هذا المطلع ، قال : حسبك ، أهذه القصيدة لك . قلت : نعم . قال : من سمية التي نسبتَ بها ؟ قلت : لا أعرفها ، وإنما هو اسم ألقي في روعي . فنادى : يا سمية أخرجي . وإذا بجارية خماسية قد خرجت ، وقالت : ماذا يا أبت ؟ قال : أنشدي عمك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب ، ونسبتك في أولها ، فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها ، لم تخرم منها حرفاً ! .. وفعل الشيخ مع شاعرنا نفس الشيء مع قصيدته .. المعلقة : ودع هريرة .. حتى اسقط في يد الاعشى . فلما رأى ما به . قال : ليفرخ روعك أبا بصير . أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي ألقي على لسانك الشعر . فسكن روع الشاعر وهدأت نفسه ... الخ .. كل هذه الروايات عن تدخل « الجن » وتجسدهم وتحدثهم دليل آخر على سذاجة شعراء الجاهلية وبعض شعراء الاسلام . وانهم لم يكونوا من « الوعي الفني » ، ان صح التعبير ، بحيث يكتشفون ويؤمنون بأن مواهبهم وعبقريتهم هي وحدها دون سواها التي تلهمهم الشعر ، وليس « جن » وادي عبقر ، أو سواها ..

حتى إذا تقدم الشاعر العربي في دروب الحضارة اكتشف وآمن بأنه هو =

بالشعر الذي هو من « رقى السحر » على حد تعبير ابي نواس . . ومنهم من كان يسكنه شيطانان : واحد ينطقه بالخير . والثاني بالشر ، كما عند الفرزدق ، مثلاً ، في «هو جله وهو بره» . . .

كان الأعشى قد مدح قيس بن معدي كرب الكندي بقصيدة دالية . فقال له قيس : انك تسرق الشعر .

فقال له الأعشى : قيدني في بيت حتى اقول لك شعرا . فحبسه وقيده . فقال :

أأزمعتَ مِن آل ليلى ابتكارا
وشطت على ذي هوى أن تزارا

وفيها يقول :

وقيدني الشعر في بيته
كما قيد الآسراتُ الحمارا

صاحب معلقتين؟ اذا كانت المعلقات سبعاً ، فهو

= وحده صانع شعره . . ولم يعد « الجن » او الشيطان ، في نظره ، سوى خرافة أو اسطورة أو رمز ، قد يلجأ إليه ، أحياناً ، ويستخدمه في صنيعه الشعري الحديث كأداة تخييل وترميز ، ليضفي على قصائده هالة مثيرة من التجميل الفني وحالةً من الصوفية الفكرية والتجربة العميقة ذات الأسلوبية الغامضة المكثفة الظلال والتهاويل . . المؤلف

صاحب الثامنة ، وإن ثماني فهو صاحب التاسعة ، وإن تسعا فهو صاحب العاشرة . المهم انه احد اصحاب المعلقات ايا كانوا وأيا تكن! ولئن ميزه بعض القدامى، من غيرةٍ عليه، وجعلوه ثالثاً بعد النابغة وطرفة أو بعد امرىء القيس وطرفة ، كما فعل ابن جني ، فان منهم من منحه استاذية الشعراء في الجاهلية، ولجرير استاذيتهم في الآسلام . كما جعله الشعبي اغزل الناس في قوله :

غراء فرعاء ، مصقول عوارضها
تمشي الهوينا ، كما يمشي الوجى الوجِلُ

واخنثهم في قوله :

قالت هريرة لما جئت زائرَها
ويلي عليك ، وويلي منك يارجلُ

واشجعهم في قوله :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا
او تنزلون فإنا معشر نُزُلُ

كل هذه الأحكام السريعة لا تقدم الأعشى ولا تؤخره في ميدان الابداع الشعري . المطلوب اليوم ان

نحاكمه نحن ، ان نضعه نحن تحت مجهر النقد الحديث غير متأثرين بما قاله هؤلاء وسواهم من نَقَدَةِ البيت الواحد او القصيدة الواحدة ، ومن حكام العاطفة والهوى المحكومين بالآراء الجاهزة والنظريات المسبقة من دينية او سياسية ، او لغوية . .

المطلوب ان نسبر غور الأعشى ونقيس مقدار المسافة التي قطعها ليصل الينا او لا يصل . . ان نتحسس مدى حضوره بيننا ، لغة وفكرا وشعرا . . وهل دار حولنا أو لم . . وهل سقط في مستنقع موروثه ونزوته ومحدودية صوره وضيق أفقه ، ام تراه اخترق حدود الزمان والمكان والموت ، وكيف ؟. هذا ما سنحاول الكشف عنه عندما نقف امام آثاره متذوقين سابرين .

اما معلقتاه، فالاولى مطلعها:

ودع هريرة ان الركبَ مرتحل
وهل تطيق وداعا ايها الرجل

قالها ليزيد بن مسهر ابن ثابت الشيباني.
والثانية مطلعها:

مـا بكـاء الكـبيـر بـالأطـلالِ
وسؤالي ، فـهـل تـرد سؤالـي

دِمْنـةٌ قفـرة تـعـاورهـا الصـيـ
فُ بـريـحين مِن صَبـاً وشَمـالِ

قـالهـا في مـدحالأسـود بنِ المنـذر اللخمي . وسنعرض لهاتين المطولتين بالتحليل ما امكن . فنحن لا نؤرخ للأعشى وغير الأعشى في هذه الدراسات [1] بقدر ما نخضع شعر الشاعر لذائقتنا الخاصة ومقياسنا الحديث في نقد الشعر ، حتى اذا ارضانا بعض هذا الشعر ، وارضى الميزان انتفعنا به ، وبرهنا على ان في تراثنا الادبي قيما لا تبلى ، وأبعاداً انسانيةتطاول القرون وتتحدى الزمن ، وانه لم يكن عبثاً كله ، كما لم يكن نظما عـروضياً فـارغا ، او تعبيـرا عن امور واهـداف ومشاعر لا شأن لنا بها . .

---

(١) وهذا ما فعلناه دائماً حين درسنا أبا العلاء وابنَ رشد وابن خلدون وابن الرومي والمتنبي وأبا نواس والبحتري والفرزدق وحسان والأعشى وأبا العتاهية وأبا فراس وسواهم ـ المؤلف.

قصته مع علقمة [1] :

جاء في الاغاني (ج ٩ ص ١٢٠) : أتى الاعشى الاسودَ العنسي ، وقد امتدحه ، فاستبطأ جائزته . فقال الأسود : ليس عندنا عين ، ولكن نعطيات عَرَضا ، فأعطاه خمسمائة مثقال دهنا .. وبخمسمائة حللاً وعنبرا .. فلما مر ببلاد بني عامر خافهم على ما معه ، فأتى علقمة بنَ علاثة . فقال له : أجِرْني . فقال : أجرتك . قال : من الجن والانس ؟ قال : نعم. قال : ومن الموت ؟ قال : لا . فاتى عامرَ بنَ الطفيل [2]

---

(١) علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كُلاب . أسلم في عهد النبي ﷺ ثم ارتد بعد فتح الطائف ، وخرج حتى لحق بالشام ، ثم عاد وأسلم أيام أبي بكر . وهو غير علقمة الفحل طبعاً ، علقمة ابن عبدة من تميم معاصر امرىء القيس الشاعر ، ومنافسه في صفة الخيل ، ومنتزع زوجته أم جندب منه .. بعد أن احتكما إليها في قصيدتيهما اللتين وصفا فيها فرسهما بناء على طلبها . فحكمت لعلقمة . لكن بروكلمن ينفي صحة هذه الرواية . للتفصيل انظر : ديوان الشاعرين.، أو تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ١ ، ص ١٢٨ الناشر دار ومكتبة الحياة ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

(٢) يكاد يكون الوحيد الذي ساد قومه : في الجاهلية ، سيادة غير موروثة تعتمد على مزايا شخصية أهمها : الشجاعة والكرم وهو القائل منوهاً بذلك :

وما سودتني عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أبِ

ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها ، وأرمي مَن رماها بمنكبي

فقـال : اجرني . قـال : اجرتـك . قال : من الجن والانس ؟ قـال : نعم . قال : ومن المـوت ؟ قال : نعم . قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : ان مُت وانت في جواري ، بعثت الى اهلك الدية . فقال : الآن علمت انك قد أجَرْتَني من الموتَ . فمدحَ عامرا وهجا علقمة . فقال علقمة : لو علمت الذي اراد كنتُ اعطيته اياه . قال الكلبي : ولم يُهْجَ علقمة بشيء اسَدَّ عليه من قول الأعشى :

تبيتـون في المشتى مـلاءً بـطونكم
وجـاراتكم غـرثي تبين خمـائصـا

فرفع علقمة يديه ، وقال : لعنه الله أن كان كاذبا ! أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟!

وبدأت بين الأعشى وعلقمة حرب هجاءٍ طـاحنة ثبت فيها شاعرنا ، وتأخر علقمة .

وهكذا انتصر ذكاء عامر وانهزم غباء علقمة ، اذا

متحدياً بذلك السيادة الارستقراطية الموروثة والتي طالما تباهى بها عتاة قريش . وابناء الملوك امثال امرىء القيس القائل :
وكنـا اناسـاً قبل غـزوة حـرمـل ورثنا الغنى والمجد أكبرَ أكبرا . .

صحت هذه القصة الحوارية ، كما انتصر الاعشى في الحالين . .

مسافر زاده الخيال :

مثلما بنى العرب حضارتهم « ركضا على ظهور الجياد » على حد تعبير توفيق الحكيم . . بنى الأعشى مجده الشعري ركضا على متن ناقته واصلاً بها اطراف الجزيرة شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً. فمن اليمامة الى اليمن ، الى عدن ، الى كعبة نجران. يقول مخاطبا ناقته :

وكعبة نجران حتم عليـ
كِ الى ان تناخي بابوابها

مادحا اربابها من آل عبد المدان :

نزورُ يزيدا وعبد المسيح
وقيساً ، هم خير اربابها

وسواهم من اسياد اليمن كسلافة ذي فانش والاسود العنسي ، وقيس بن معد يكرب . ثم ينحدر الى حَضْرَمَوت،ويرتقي الى الحجاز فيدخل سوق عكاظ كل سنة

مشاركا في بعض المنافرات والمباهلات ، ومن هناك اعلن على رؤوس الأشهاد قصيدته في مدح المحلق الفقير المئناث فتهافت اسياد القوم على الزواج من بنات المحلق الثماني . . ونفدت البضاعة ! كما سنرى.

ويتابع الأعشى سيره شمالاً فينزل الأبلق حصن السموأل[1]، ثم يجتاز ديار كلب الى العراق، فيهبط الحيرة مادحاً الاسود بن المنذر والنعمان ، مختلطا بالعباديين، اخذا عنهم بعض افكارهم الدينية وعاداتهم ، كما استفاد من صفة الخمرة التي شربها عندهم . وادخالها في قصائد الخمرية .

وتراه سرعان ما يعود قاطعا القرى الواقعة على شاطىء الخليج العربي ماراً بعُمان ، وقد يعرج ، في بعض اسفاره ، على اورشليم وحمص في الشمال

---

(١) وهو حصن بواحة تيماء (او تدماء : هذه ماء) بناه عادياً والد السموأل (أو صموئيل) الشاعر العربي المعروف . وقد تغنى السموأل بهذا الحصن مفتخراً به على سائر العرب فقال :
بنى لي عادياً حصناً منيعاً وبئراً ، كلما شئت استقيتُ . .
وليشرب العطاش من بدو الصحراء ماء البحر ! وقد سمي هذا الحصن بالأبلق لأنه كان مبنياً من حجارة بيضاء وأخرى سوداء . وهو من طبقتين .

الغربي ، وتقوده‌راحلته ، احيانا ، الى بلاد فارس فيمدح ملوكها [1] ولا يكتفي بالملوك فنجده يخالط بعض العرب من بني حمير النازلين على حدود فارس وينقل عنهم الكلمات الفارسية التي يرصع بها أشعاره ، كمايطعمها بالافكار النصرانية يأخذها عن اهالي الحيرة ، وكذلك افكار الزندقة .. وفجأة نجده حاطاً رحاله في بلاط النجاشي في الحبشة :

اتيتُ النجاشي في ارضه
وارضَ النبيطِ وارضَ العجم !

كل ذلك « للمال » كما يقول :

وقد طفت للمال آفاقه
عُمانَ ، فحمصَ فاورى شَلِم [2]

(1) من الأكاسرة . يروي ابن قتيبة وصاحب الأغاني قصة عن لقاء الأعشى بكسرى ، لا تخلو من فكاهة ، قالا : سمع كسرى الأعشى ينشد ، في هذا البيت :

ارقتُ،وما هذا السهادُ المؤرِّقَ وما بي من سقم،وما بي مَعْشَقُ!

فقال كسرى : فسروا لنا ما قال . فقالوا : ذكر الشاعر أنه سهر وارق من غير سقم ولا عشق . فقال كسرى : فهو ، إذن ، لص !

(2) أورى سَليم أو أورى سَليم على رواية ثعلب ومعناها بالعبرية : أرض السلام . أو مدينة السلام . وهي القدس عند المسلمين والمسيحيين وقد لفظها الشاعر : أورى شلِم لتستقيم القافية .

وقد يرضى بالقليل منه ، اذا كان من صديق محب ، كقيس بن معد يكرب ، الذي يكتفي منه احياناً « بجموم » او نجيب اي بفرس او جمل :

كل عام يمدني بِجَموم
عند وضع العنان ، او بنجيب..

مثبتاً كل ذلك في قصائده . كما رأيناه في هذه القصيدة الميميَّة الحميمة تحاوره ابنته في بعض مقاطعها ، شاكية كثرة اسفاره ، وهي من مطولاته الرائعة نظمها في مدح قيس بن معد يكرب الكندي . قال :

تقول ابنتي ، حين جَدَّ الرحيلُ
ارانا سواءً ومَن قد يَتِمْ
فيا ابتا ، لا تَرِمْ عندنا
فانا بخير ، اذا لم تَرِم
ويا ابتا ، لا تزلْ عندنا
فإنا نخاف بأن تُخْتَرَم
ارانا اذا اضمرتك البلادُ
نُجْفى ، وتُقطع منا الرَّحِم

انه يتصور ابنة له ، ولعل له ابنة ، تحاوره وتضرع

اليه ، مسكة بخطام ناقته ، ألاّ يتركهم وحدهم ، في منفوحة ، كـالأيتام . فهم بخيـر ، تقول لـه ، ما دام بينهم . وهم حاضرون بحضوره ، غائبون في غيابه ، لا يزورهم أحد . . وسرعان ما ينتفض من تذكيره بموت يخترمه في سفره كما يخترمه في حَضرَه . . ويمضي ، بعد هذا الحوار الوجداني ، في غايته ، فان له دائماً ابنـة اخرى . . عـروساً أخـرى . . هي المسـافـات ـ النهايات . والآخرون ،والمال والشهرة والخمرة . . إن لـه حـواراً آخـر هنـاك . . على الاطـراف . . حيث اصحــاب الحضـارات والاديـان والمـذاهب والعيش الرخي . . وزاده معه اليهم دائماً : قصائـد عامـرات يرشها عليهم مدائح مدائح ! ويستبدل ، عائداً ، طيبا بطيب ، وشعراً بخمرة . . ومالاً وشهرة . . ويترطب جو الشعر العربي بالغضارة والحضـارة واشياء المـدن . . ونودع معه : قفا نبك ، بقفوا نضحك ونشرب ونحكي ! كما نودع معه : دعست على غطش وبطش وصحبتي سعار وازرير ووجر وافكل !بـ :

وقـد غـدوت الى الحــانـوت يتبعني
شاو مِشَلٌ ، شَلُولٌ ، شُلْشُـلٌ شَوِل !

وتبقى شلا شـيله، ونكهة الشواء تملأ خياشيمنا ، وكياناتنا يبقى الأعشى كله بيننا ،ويتوارى الشنفرى !

كان الشعر قبل الأعشى يتثاءب ، يتمطى على رمال الصحـراء كالافعى او كـالحربـاء او كـالسلحفـاة . . . وكاليرابيع والمناجذ، يتنفس من تحت الرمال بلا عيون او بعيون اطفأها البكاء على الاطـلال . . حتى اذا جاء الاعشى على رأس رواد جدد متحركين كالنابغة وطرفة وحسان جرى في عروق. الشعر الجـاهلي ماء الحيـاة والحركة والتطور وبعض التحضر وكانت نقلة . . لها ما بعدها . .

قيل لشاعرنا : الى كم هذه النجعة والاغتراب ، ما ترضى بالخفض والدعة ؟ فقال :

لو دامت الشمس عليكم لمللتموها . .

جواب، كما ترى، شعري استعاري رائع!.

ولـو جاء بقـالب نثري! فـالشعراء عنـدما ينشـرون يشعرون . . هذه الصورة اعجبت ، أبا تمام ، المغرم بالبديع والترميز ، فصاغه شعراً . قال :

وطول مقام المرء في الحي مُخْلِقٌ
لديباجيته ، فاغتربْ تتجددِ
فاني رأيتُ الشمسَ زيدت محبةً
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

كما يثيرنا نحن أيضاً ، بعد قرون وقرون ، لما فيه من شاعرية تتخطى برموزها ورؤاها حدود الكلام العادي نثراً ونظماً ، ويلامس اعماقَ انسانيتنا التي تأبى « القعود » والجمود والتأسن ، فترود الآفاق بحثاً عن الكرامة والشهرة والمجد ، أو على الأصح ، حباً بالتجدد والتطهر . . من وسخ الانغلاق وغربة الذات في الذات والحيِّز!.

لقد كان الأعشى ، في جوابه هذا ، فيلسوفاً صغيراً ، دون أن يدري ! وكان في حياته وتنقلاته ، وابتدار لذاته : ابيقورياً ــ مزدكياً ، دون أن يشعر ، ولم يكن رواقياً رومنسياً على الاطلاق . . كان شاعر الحس المتوفز والحرية الحرة بلا منازع . . في زمن كان الانسان الجاهلي فيه اسيرَ ظرفه وبيئته ، عبدَ صحرائه ، سجينَ قدره ، قتيل وجوده وحدوده . . فجاء الاعشى ، ومن هم في مثل تطلع الاعشى « يخرجون » من كل

هذه القيود المفروضة ، فإن لم يستطيعوا تحطيمها ، فعلى الأقل ، إعلان رفضها والابتعاد عنها ، والتشهير بها ، ثم غناء هذا « الخروج » شعراً ، ينسون أو يتناسون معه قسوتها وجبريتها بالخمر والشعر والمرأة ! ثالوث أقدس ، في حسهم وفلسفتهم ، ولعله في طوية الكثيرين منا ودخيلائهم : لكننا لا نجرؤ على البوح به أو له ، أو هو فوق طاقتنا وحريتنا ، ذلك لأننا لا نملك صراحة الأعشى وعفويته وقدرته على البوح والحركة . . .

جاء في العقد (ج ٦ ص ٢٢٠) : قيل للأعشى : ما السرور؟ قال : « صهباء صافية تمزجها ساقية من صوب غادية » . ويتم ثالوثه بالشعر الذي يصفي الخمرة كالراووق ، وبالساقية التي تطهر النفوس والأبدان بمصفاة الجمال ، وتنير صبوات الشباب بمشكاة السحر الحلال . .

النقيضان ! :

والأعشى ، إلى هذا ، يحمل النقيضين . فقد تربى ، كما علمنا ، في حضن النصرانية في الحيرة ،

وكعبة نجران لكثرة تردده عليهما ، وعلى كهانها، فتولدت عنده عاطفة الرفق والرحمة وحب المتدينين ، لا سيما وهو لم يجد لدى أحبار النصرانية وكهنتها تحرجاً في شرب الخمرة ، بل هم يشربونها في اعتدال . يقول واصفاً سيداً متديناً :

ربي كَريم لا يكدر نعمةً
وإذا يناشَدُ بالمهارق انشدا[١]

فسيده (أو ربه)متدين ملتزم، يلبي داعيَ الدين إلى صلة المحروم، واعطاء المحتاج، ويزيد فيلزم نفسه بكتابة ما تعهد به في المهارق. فإذا ما ذكره بهذه العهود المكتوبة، بادر إلى المحافظة عليها والوفاء بها.. ومهما قيل في هذا البيت بأنه مدسوس عليه: دسه راويته المسيحي ، فان الأعشى لم يكن بعيدا عن مثل هذا الجو الذي يوحي بمثل هذا المعنى .. لكن بعض المحققين يحلو له ان ينزع عن الأعشى نهائياً مَيْلَه الى النصرانية او تأثّره بها ، وكأن في الأمر جريمة ، او كأنه

(١) المهارق : كتب العهود والاحلاف ، او كُتب الدين ، وربي هنا بمعنى سيدي .

مسلم ارتد الى النصرانية[1] فالأعشى رغم وثنيته الغالبة، شاعر قبل كل شيء، ومتكسب بشعره، ومتنقل به في البلاد وعلى اطراف الجزيرة ، فاذا تنقل ، في شعره ، من مذهب الى مذهب ، او من دين الى دين ، فلا يلام ولا يحاكم على هذا الاساس . دعوه ، ايها المحققون ، لربه يحاكمه ، وحاكموه بمقاييس الذوق والفن والنقد الحديث ، وحدها . دعوه يخرج من بداوته وجلافته وغريب صوره ، ما دام هو قد اصر على ذلك وشاء ان تسري في ثنايا شعره رقة الحضارة وخفة الروح . . دعوه يعطينا صورة صادقة عما بلغه الشعر العربي قبيل الاسلام من بعض الرقي والتحضر والشفافية ، فبرهن اصحابه بأنهم قادرون على التكيف والتطور ، ثم على الوصول الينا . . ولعل هذا ما حدا بالمازني في كتابه قبض الريح الى ان ينسب للأعشى بعضاً من فضيلة ، رغم تهتكه وفجوره ، حين قال : « ان الأعشى لم يكن ناضبَ الفضيلة . . بمعنى انه لم يكن شريرا ، ولا قاسيا فاحشاً في هجائه ، وكان ودوداً وفيا لاصدقائه . كما كان طيب القلب يرق للمعوزين

(١) انظر كتاب : العصر الجاهلي ط ٣ ص ٣٣٨ د. شوقي ضيف دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

واصحاب الحاجات حين يلجأون اليه ليساعدهم على قضائها ، كما فعل مع المحلق . وتلك المرأة المئناث ، في الموضوع نفسه . . وكما فعل مع امرأته حين طلقها ، ومع ابنته، حين ساوى بينه وبين المهجو ، كما سنرى . اليس كل هذا فضيلة او بعضا من فضيلة ؟!

ابو كلاب وبناته! جاء في الاغاني : كان الاعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان المُحَلِّق [1] الكلابي مئناثا مملقا . فقالت له امرأته : « يا ابا كلاب ، ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت احدا اقتطعه الى نفسه إلا أكسبه خيرا » . قال : ويحك ! ما عندي إلا ناقتي ، وعليها الحمل . قالت : « الله يُخْلفها عليك » . قال : فهل له بد في الشراب والمسوح ؟ قالت : « ان عندي ذخيرة لي ، ولعلي ان اجمعها». فتلقاه قبل أن يسبق اليه أحد، وابنه يقوده . فأخذ الخطام . فقال الأعشى : من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ قال : المحلق . قال : شريف

(١) المُحَلِّق أو المحلِّق : سميَ المحلق لأن فرسه عضته في وجهه : فتركت به أثراً على شكل الحلقة . وكان للمحلق ابٌ شريفٌ . لكنه مات واتلف ماله . واسم المحلق هو : عبد العزى بن حنتم بن شداد بن ربيعة . . . بن عامر بن صعصعة . وكنيته أبو كلاب !.

كريم . ثم سلمه اليه ، فأناخه ، فنحر له ناقته ، وكشط له عن سنامها وكبدها . ثم سقاه . واحاطت بناته به يغمزنه ويمسسنه. فقال: ما هذه الجواري حولي؟ قال: بنات اخيك وهن ثمان شريدتهن قليلة. وخرج من عنده، ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى سوق عكاظ، اذا هو بسرحةٍ له قد اجتمع عليها، واذا الأعشى ينشدهم:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرةٌ
الى ضوء نار باليفاع تَحرق
تشب لمقرورَين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبانِ ثدي أمٍ تحالفا
باكم داجٍ : عوضُ لا نتغرق[1] .

فسلم عليه المحلق . فقال : مرحباً ، يا سيدي ، بسيد قومه . ونادى : يا معشر العرب ، هل فيكم مذكار يزوج ابنه الى هذا الشريف الكريم ؟ (قال) : فما قام

---

(١) عوض + وعوضُ وعوض : ظرف لاستغراق المستقبل ، أي : ابداً ، وهو مختص بالنفي. أما ما قاله ابن الكلبي من ان «عوض» هو صنم وان الأعشى أقسم به في هذا البيت فقول مردود.

من مقعده وفيهن مخطوبة الا وقد زوجها . .

وكأن هذه الحادثة أثرت في القوم ، وجعلت للأعشى فضيلة خاصّة في العمل على تزويج البنات . وترويج البضاعة الكاسدة . ذكر الاصمعي ان امرأة جاءت اليه بعد حادثة المحلق. فقالت: إن لي بناتٍ قد كسدن علي فشبب بواحدة منهن لعلها تنفق[1] . . فما زال يشبب بواحدة تلو الأخرى حتى زوجن جميعا . وكانت العجوز تبعث اليه بجزور في كل عرس . . ما هذا يا ابا ليلى ! لقد جعلت شعَرك رخيصا جدا . . ولكن لا بأس ! كرمى لهؤلاء العوانس المسكينات اللواتي جبرت خواطرهن وزوجتهن . فلا يبقين عجائز عند ام عجوز ! فهذا في نظرك ونظرنا . . لا يجوز ! خاصة وانه لم يكن احد سواك يتواضع فيتبرع بمثل هذه المهمة ! وهكذا ، حين يتدخل الشعر ، عند الأعشى ، في كل كبيرة وصغيرة ، وكأنه لغته اليومية ، واداته الوحيدة للاتصال بالناس ومحاورتهم في كل مكان : في معصرة العنب ، في تسجيل العقود والعهود ، في كتابة « عريضة » وتوجيه نداء من أسير ، في تدوين وصية

(١) اغاني ج ٨ ص ٨٢.

للرفاق ، ليسكروا على قبره ، في اعلان مطلب خاص وحاجة شخصية (وهذا ما سيفعله زميلاه إبن الرومي وابو العتاهية) في تزويج وطلاق ومداعبة قينة وساقية .. حين يفعل الشاعر كل هذا ، فلن نعجب اذا أصبح الشعر عنده عملا روتينياً ، ومباشرة يومية ، وكانت التقريرية والمباشرة والعفوية لحمته وسداه . وبديهي ان تنعدم فيه التجربة او تكاد . ما عدا خمريات شاعرنا التي وطأ بها للمدح او الغزل . فقد كان له مع الخمرة تجربة حلوة .. واخرى مُرَّةٌ مع معشوقته هريرة ! اما سائر شعره ، فكما رأيت وترى ،: غناء وتطريب ومباخر ، وقضاء حاجات ودعايات ، وتزويج بنات .. وتجارة ...

متاعب الرحلات : أسْر انتجَ رائعة :

كان عمرو بن ثعلبة القُضاعي راجعا مِن غَزاة ، ومعه اسارى . فلقي الأعشى ، وكان هذا قد هجاه ، وعمرو لا يعرفه ، فأخذه ونسبه ، فانتسب الى غير قومه ، فاوثقه ، ثم سار حتى نزل شريح (او شرحبيل) بن السموأل ، فاكرمه ، وارسل الأعشى

قصيدة الى شريح يستجير به فيها . فقال هذا لضيفه : اني احب ان تهب لي بعضَ اسرائك هؤلاء . فقال : خذ ايهم شئت . قال : اعطني هذا الاعمى . فقال : ما تصنع بهذا الزَّمن ؟ لا . بل خذ اسيرا فداؤه مائة من الابل . فأخذ شريح الاعشى واطلقه . فما لبث ان هجا عمرو وقومَه فشكا هذا الى شريح فعلَ مَن اطلقه . فأخذ شريح ميثاقاً من الأعشى الا يعود الى هجاء عمرو .

اما القصيدة ـ النداء فهي من ابرع القصص الشعري الذي لم يصل الينا مثله من الشعر الذي قيل قبيل الاسلام ، على الاطلاق . بدأها الشاعر بالاشارة الى حادثة السموأل المشهورة حين اصر على الوفاء بعهده لامرىء القيس الشاعر ، فلم يسلم دروعه المائة وابنته هند التي طلبها الحارث ابن ابي شمر الغساني ، فوجه اليه جيشاً على رأسه الأبرص او الحارث ابن ظالم [1] فأبى السموأل تسليمها ، واغلق ابواب حصنه الأبلق في وجهه . فأصاب القائد ابناً للسموأل (عاديا ؟) كان خارج الحصن يصطاد ، فأسره ، وأرسل الى ابيه :

---

(١) الروائع رقم ٣١ ص ٣٦.

« إما دفعتَ إلي الأدرع ، وإما قتلتَ ابنـك » . ففكر السموأل مدة ، ثم اشرف على عدوه ، فقال : ليس الى دفع ذمتي اليك سبيل ، فشأنك » . فذبح ابنه . ثم سلم السموأل الوديعة الى ورثة امرىء القيس، فضرب فيه المثل بالوفـاء حتى التضحية . فقيـل : اوفى من السموألِ » او « وفاء كوفاء السموأل » .

وإليكها :

شـريحُ ، لا تتـركني ، بعدمـا علقتْ
حبالكَ اليومَ ، بعد القِدِّ ، اظفاري [1]

قـد طفت ما بين بـانِقْيـا الى عَـدَن
وطالَ في العجم ترحالي وتسياري [2]

فـكـان اوفـاهم عـهـداً وأمنـعـهـم
جـاراً ، ابـوك ، بعرفٍ غيـر انكـار

كـالغيث مـا استمـطروه جـاد وابله
وعنـد ذمتـه المستـأسـد الضـاري

كن كـالسموأل ، اذ طـاف الهمام به
في جَحْفَـل كهـزيـع الليـل جـرار [3]

(١) القد : السير يقيد به الأسير .

(٢) بانقيا : ناحية بين العراقين .

(٣) روى ثعلب : كسواد الليل . الهمام : السيد الشجاع .

جـار ابن حيـا ، لمن نــالتّـه ذمتُــه
اوفى ، وامنع من جار ابنِ عمـار
بــالأبلق الفــرد من تيمــاءَ منــزلــه
حُصن حصين ، وجــار غيـر غــدار
اذ سامه خطتي خسف . فقال لـه :
قـل ما تشـاء ، فاني سـامع حـار[2]
فقــال : ثكـــل وغــدر انت بينهمــا
فـاخترْ ، ومـا فيهمـا حظ لمختـــــار
فشـك غيرَ طويـل ، ثم قـال لـه :
اقتـلْ أسيرَك ، اني مـانـع جـاري[3]
إن لــه خَــلَفــاً إن كنــتَ قــاتِـلَه
وإن قتلتَ كــريـمــا غيــرُ عُــوَّارِ[4]

---

(۱) حيا : من آباء السموأل .

(۲) سامه الشيء : كلفه إياه . الخسف : الذل والقهر . قل ما تشاء : هي الرواية المشهورة . وروى ثعلب : مهما تقله « حار : منادي مرخم أصله : حارث ، أراد به الحارث بن ظالم قائد الجيش ، أو الحارث بن أبي شمر ملك غسان .

(۳) شك : فكر حائراً . غير طويل : هي الرواية المشهورة وروى ثعلب : غير قليل . اقتل أسيرك : هي الرواية المشهورة اما ثعلب فروى : إذبح هديّك . الروائع ۳۱ ص ۳۸ ـ بيروت ۱۹٦۸ .

(٤) عُوّار : الضعيف الجبان .

مالاً كثيرا ، وعِرْضاً غيرَ ذي دنس
وإخوة مثله ليسوا بأشرار

جروا على ادبٍ مني ، بلا نزقٍ
ولا اذا شُمرت حربٌ ، بأغمار

وسوف يُعْقَبنيهِ، إن ظفرتَ به
رب كريم ، وبيض ذاتُ أطهار

لاسرهن لدينا ضائعٌ مذق
وكاتماتٌ ، اذا استودعنَ ، اسراري [1]

فقال : تقدمةً - اذ قام يقتله -
أَشْرِفْ ، سموأل ، فانظر للدم الجاري

أأقتل ابنكَ صبرا ، او تجيء بها
طوعا ؟ فانكرَ هذا ايَّ إنكار

فشك أوداجه، والصدر في مضض
عليه منطويا كالذرع بالنار [2]

---

(١) مذق : غير خالص . من مَذَق اللبن : مزجه بالماء . وفي بعض الروايات : لدينا ذاهب هَدَراً (المصدر نفسه) .

(٢) شك : الضمير عائد للقائد . الأوداج جمع الودِ وهو عرق العنق . والمصدر . الضمير للسموأل . الذرع بالنار : المقصود أن صدره ضيق حتى كأنه ذُرِع بالنار ، خُنِق .

واختـارَ ادراعَـه ان لا يُسَبَّ بهـا
ولم يكن عهـده فيهـا بـختـار [1]
وقـال : لا اشتـري عـاراً بمكـرمـة
فـاختـار مكـرمـة الـدنيا على العـار
والصبـر منـه قـديمـا شيمـةٌ خُلُقٌ
وزنـده في الوفـاء الثاقب الـواري [2]

اذا صحت نسبـة هـذه القصيـدة الحـواريـة الى الاعشى ، وهي صحيحـة ، فان الشـاعر يـرهص بها للشعر العربي التمثيلي ، الذي كانيمكن له ان يرى النور ، بعد الاسلام ، وفي العصور الاموية والعباسية خـاصة ، لـولا معوقـات وموانـع مصطنعـة اكثر منهـا طبيعيـة ، لا مجال لسـردها هنـا ومناقشتهـا ، يعرفهـا الباحثون في خصائص الأمم ، ومنطلقات ودوافع الشعر التمثيلي العالمي .

هـذه القصيـدة ـ النـداء نـابعـة من صميم وجـدان شاعر أسير ، اعشى ، واقعٍ بين يدي آسر جـلاد . اطلقها في لحظة من لحظات فاصلة بـين موت وحيـاة . .

---

(١) الختار : الغادر .

(٢) الواري : مِن وَرى الزندُ : خرجت ناره .

بدأها الشاعر اللبق بلا مقدمات لتصل سراً وبسرعة فائقة مدتها سواد الليل ، الى شريح : منقذه المنتظر اللذ [1] سرعان ما بادر الى انقاذ شاعر بارع عرف كيف يدخل ، بالشعر والذكاء ، الى قلب المنقذ . . والى قلوبنا ايضا . .

هذا الشاعر الغنائي عرف ، كذلك ، كيف يحاور ، وكيف يصبح « غيريا » في قصيدته هذه ، حين خرج من دائرة « الأنا » المغلقة ، وراح يطلق الحوار على لسان الحارث والسموأل ، كما استطاع ان يتوارى خلف شخوصه الحية تماما . لكن نزعته الغنائية والفردية ، في الشعر وفي الحياة ، شيمة كل عربي ، جعلته يختصر الموقف التمثيلي الحواري البارع في واحد وعشرين بيتا فقط . . ويا ليته، اتم، بعد الافراج عنه، ما كان بدأه من هذه الحوارية ، فصور لنا ، وهو القادر فنيا ، الموقف البطولي والمأساوي للسموأل ، وعظمة الوفاء ، وجبروت الحارث وبطشه وغدره ، وتلك النفسية

(١) طال استعمالنا لاسم الموصول : الذي ، فلماذا لا نستعمل بدلاً منه اللذ ، مثلاً؟ وهذا المتنبي قبلنا بألف عام ويزيد ، استعمل اللذ بدل الذي . لضرورة الشعر ، ربما ، ونحن لضرورة التغيير ! لِمَ لا ؟

الظلامية السادية التي يتمتع بها . . .

ولكنها الغنائية العربية ، وهذه الأنـا الطاغيـة في النفسية العربية ، والتي ابرزهـا الشعر العـربي قديمـا وحتى حديثا[1] . . هي التي حالت دون قيام الشعر العربي المسرحي والملحمي عند العرب . وهكذا انقذ الشعر صاحبنا الاعشى مرتين : مرة حين تخلص من اسره . . ومرة حين تخلص من قيود الزمـان والمكان وجبرية الحياة وتفاهتها ولعنة المـوت ، فسار ، ككـل شاعر مبدع ، في الأجيال . . الى ان وصل الينا . . وسنمضي نحن ويبقى هـو والخالـدون سـائـرين في الأجيال ! في حين يطوي الزمن كل من ليس بشاعر او مفكر او فيلسوف او فنان ، ايا كان !

وليس المهم ، مقدار الوصول الينا وعمق تـأثيره فينا ، فقد يكون هذا التـأثير ضحـلاً ضئيلاً ، كتـأثير الاعشى ، لكن المهم هــو القــدرة عـلى التخطـي والوصول . . والقدرة على الحضور الدائم بيننا والولوج الى وجـداناتنـا. وتحريـك عواطفنـا بتلك العصا السحـرية والمشكاة النورانية الموصلة باسلاكهـا ما بين القلوب

---

(١) باستثناء محاولات حديثة تبشر بالخير .

والعقـول . . وحين خـاطب الله عبـاده في كتبـه ألم يخـاطبهم شعريـاً ؟! الم يأمـرهم بـأن يرتلوا كـلامـه ترتيلا ؟! . . . ألم يتخذ الرمز والقصة والاسطورة ، وهي ادوات الشعر ، سبيلا الى قلوبهم وعقولهم واخيلتهم ؟

قصة اسلامه :

روى صاحب الأغاني قال : اخبرني حبيب بن نصير المهلبي ، واحمد بن العزيز الجوهـري قالا : حـدثنا عمر بن شبة قال : قال هشام بن القاسم الغنوي ، وكان عَلَّامة بأمر الأعشى : انه وَفَدَ الى النبي ﷺ وقد مدحه بقصيدة جاء فيها :

ألـم تغتمِضْ عينـاك ليـلةَ أرمـدا
وعـادَكَ مـا عـاد السليمَ المسهـدا
ومـا ذاك من عشقِ النسـاء وانمـا
تنـاسيتَ قبـل اليـوم خُلَّةَ مَهْدَدا [1]

وفيها يخاطب ناقته :

فـآليتُ لا ارثي لهـا مِن كـلالـة
ولا مِن حفـاً حتى تـزور محمـدا

---

(١) مهدد : معشوقة الأعشى أو هكذا يتخيل اسماً ما لشخص ما .

نبيٌّ يــرى مــا لا تــرون ، وذكــره
اغــار لعمـري في البــلاد وانجــدا
متى ما تناخي عند باب ابنِ هـاشم
تــراحي ، وتلقي من فــواضِلِه يــدا

فبلغ خبره قريشاً فرصدوه على طـريقه. وقـالوا: هـذا صناجة العرب ، ما مدح احداً قط الا رفع في قدره . فلما ورد عليهم قالوا له : اين اردتَ يا ابا بصيـر ؟ قال : اردتُ صاحَبكم هذا لأسلم . فقالوا : انه ينهاك عن خِـلال ، ويحرمهـا عليك ، وكلهـا بـك رافق ، موافق . قال : وما هُن ؟ فقال ابو سفيان بن حرب [1] : الزنى . قال : لقد تركني الزنى وما تركته . ثم ماذا ؟ قالوا : الربا . قال : ما دِنْتُ ومـا ادَّنْتُ . ثم ماذا ؟ قالوا : الخمر . قال : اوه ! ارجع الى صُبابة قد بقيت لي في المِهْراس [2] فأشربها . فقال له ابو سفيان : هل لك في خير ما هممتَ به ؟ قال : ما هو ؟ قال : نحن وهو الآن في هدنة [3] فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع

(١) وروى ثعلب أنه أبو جهل .
(٢) المهراس : حجر محفور مجوف يسع كثيراً من الماء .
(٣) يقصد صلح الحديبية. والحديبية بئر قرب مكة على طريق جدة. وفي معجم البلدان : قرية متوسطة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة=

الى بلدك سنتَك هذه ، وتنظر ما يصير اليه أمرنا . فان ظهرنا عليه كنتَ قد أخـذتَ خَلَفا ، وان ظهـر علينا اتيتَه . فقال : ما اكره ذلك . فقال ابو سفيان : يا معشر قريش . هذا الأعشى ! والله لئن اتى محمـدا واتبعه ليضرمَنَّ عليكمِ نيرانَ العرب بشعره . . فاجمعوا له مائة من الابل . ففعلوا ، فأخذها وانطلق عائدا الى بلده ، فلما كان بقاعِ منفوحة رمى به بعيره فقتله . .

ويتم تلفيق الرواية على هذا الشكل المثير ليؤمن المسلم العادي بأن كل من يغره متاع الدنيا ويخدعه سرابها ، يلاقي ما لاقاه الأعشى ! ترمي به ناقته (او منيته) من على ظهرها فيموت !

لكن الاعشى ، كشاعر ، قادر لا يزال حياً بيننا ، سواء وقع عن ناقته ، او بعيره ، او لم يقع ، اسلم او لم يسلم . تنصر او لم يتنصر ! فلن يضير الاسلام ولا النصرانية ألا يدخل فيهما امثال الأعشى من الزنادقة ! بل ان ما يضيرنا نحن ، ان تلفق مثل هذه الروايات ،

التي بايع النبي تحتها بيعة الرضوان . وفي الحديبية تحت كتابة عهد الصلح بين النبي ومشركي قريش ومدته عشر سنوات . وفي روايـة ثمان . كتبه الامام علي بأمر من النبي .

ويتفنن في تزويقها ، وتضخيم خواتيمها . . ومه اكثرها في تراثنا الادبي ، والديني ، والسياسي ، ممـا جعله ينـوء بـأوزار ثقــال من الكـذب والنحــل والتحيـز ، والاصطناع ، وجعل العربوالمسلمين مشوهي التاريخ ، مُزَوَّرِي القيم ، اكثر القيم ، الأمر الذي شغل نقادهم ومفكريهم في الردوالغربلة ، والتصحيح ، زمنا طويلا ! واهرق من وقتهم ونور عيونهم بما لا يعوض !

وفاته :

بما ان اكثر الرواياتيجمع على ان الأعشى ادرك الاسلام ، فقدتكون السنة ٦٢٩ ميلادية والتي اوردها المستشرق ده برسفال ، والأب لويس شيخو ، تاريخاً مقبولا لوفاة الاعشى ، لأنها توافق السنة السابعة للهجرة التي وقع فيها النبي ميثاق صلح الحديبية .

ومهما يكن ، فقد استقر ، اخيراً ، هـذا الجسد المرهق ، في قريته منفوحة باليمامة [1] بعد طول طواف

(١) وفي رواية أن الأعشى ولد في مزرعة تسمى دُرْنا في اليمامة ، وليس في منفوحة . وكان أكثر سكان اليمامة ، قبيل الاسلام ، من بني حنيفة وكانت النصرانية منتشرة بينهم ، وقد اتصل الأعشى في شبابه بأميرهم هوذة بن علي النصراني ومدحه . أنظر : الروائع رقم ٣١ ص ٦ .

وهتاف . سكنت الحنجرة عن الترديد والغناء . لكن الوجدان لم يسكت ، فقد اوصى صاحبه ان يبقى مشاركا الرفاق افراحهم ولذاذاتهم . . وان يجعلوا من قبره مجلساً خمريا لهم .

روى صاحب الأغاني ان والي اليمامة سليمان النوفلي قال : اتيت اليمامة والياً عليها ، فمررتُ بمنفوحة ، وهي منزل الأعشى التي يقول فيها :

فركت مهراس الى ما ورد
فقاعِ منفوحةَ ذي الحائر

فقلت : اهذه قرية الأعشى ؟ قالوا : نعم . فقلت : اين منزله ؟ قالوا : ذاك واشاروا اليه . فقلت : ما لي اراه رطبا ؟ فقالوا : ان الفتيان (اي رفاقه) ينادمونه ، فيجعلون قبرَه مجلسَ رجلٍ منهم ، فاذا صار اليه القدح ، صَبّوه عليه !

ويأبى الأعشى إلا أن يظل استاذاً للرفاق حتى بعد الموت . . وتأبى روحه ان تعترف بفواصل الزمن وعوامل الفناء!

حياته الخاصة :

لست ادري كيف يمكن لمثل هذا الشاعر الجوال اللامستقر على حال ؛ أن ينشيء أسرة وينجب اولادا ، ويسكن بيتاً ، ما دام بيته ظهر بعيره ، واولاده رفاق خمرته ورحلته ، وزوجاته ما شاء من الإماء ، والمطلقاتوالعواهر !

نفهم منه ، وحده ، من بعض قصائده ، انهتزوج مرة ، لكنه سرعان ما دُفع دفعاً الى الطلاق .. والسبب ، لا كالأسباب ، كي : « يذوق غيرها وتذوق غيرَه » ! كما يقول ..

وذوقي فتى قوم ، فاني ذائقٌ
فتاةَ أُناسٍ ، مثلما انتِ ذائقة !

يذكر بعض شراح ديوانه ، ان امرأته هذه كانت مِن « هزان » وان اهلها هددوه بالضرب ، او يطلقها ، فطلقها . والواقع ان السبب كان غير تهديد اهلها له بالضرب .. بل كان تهديدها هي بضربه على رأسه (بالقبقاب ربما) ! اسمعه يصارحها ويصارحنا :

وبيني فان البين خيرٌ من العصا
وألا تزالَ فوق رأسك بارقة !

والاصح : فوق رأسي بارقة .. كي يستقيم المعنى ، ويبرر الطلاق ، كما يرجح بعض الرواة [1] .

خمرياته :

استاذ الأساتيذ خمراً وشعراً:

وإنك لن تجد شاعراً من بين الشعراءالجاهليين ، يكاد ينقطع للخرمة معايشة ، وشعراً ، انتاجاً وشربا ، طلاباً وغاية . . . كالأعشى. غيره ، من شعراء القرن السادس الميلادي وأوائل ظهور الاسلام، شربها وتباهى بها، وفلسفها . لكن اهتمامه بها لم يزد عن اهتمامه بالحبيب واطلال الحبيب ، او الناقة والفرس والممدوح والمهجو. . لذا فنحن ما نكاد نحيا هنيهات مع هذا الشاعرالمتصعلك حتى نشم رائحة جديدة تفوح من بين اعطاف شعره ، هي رائحة الخمرة التي تنسينا ، ولا شك ، رائحة ثيابه المهملة وجسده المعروقلكثرة تجواله وتسكعه .. وهذه اخبار الرواة عن انه ما هجا وما مدح الا ليكسب مالاً ينفقه على لذته ولهوه وشرابه، تكاد لا تنتهي .

---

(١) الروائع رقم ٣١ ص ٣٩ .

تفرغه:

فلأول مرة نجد شاعراً جاهلياً متفرغاً ، وجدانياً للخمرة وتوابعها ، يلاحق نعوتها واوصافها ، واسماءها الجديدة من فارسية ورومية ملاحقة العاشق للمعشوق ، كما يستغرق في رسم جوها ومجالسها وما يتخلله من رقص وغناء ، وغنج ودلال وحميمية ، ثم .. تأثيرها في شاربيها ، وساقياتها من رفاق ورفيقات .. ولا عجب فهو المتكسب بشعره من اجلها ، والهارب من شظف العيش اليها ، هناك حيث سدنتها المتحضرون ، ومعاقروها من ملوك وامراء وكهنة .. وهو لم يكن شريب خمر وحسب . بل كان منتجاً للخمور .. « كانت له معصرة في اتافت يعصر فيها ما جزل له اهلها من اعنابهم » على حد تعبير الأب لويس شيخو في كتابه : شعراء النصرانية (ص ٣٧٥) ولا عجب ان تصبح داره ، ايام شبابه ، مجمعاً للرفاق يلهون معه ، ويشربون . وحين اشرف على الثمانين عاش على ذكراها ، كأعز ما يملك الشاعر الهرم من ذكريات .. فبديهيٌ أن نجده مبدعاً في التغني بها. له فيها صور فنية طريفة الخيال تضج بالحياة والحركة ، الى جانب

جدتها ورقتها :

تـريك القـذى من فوقهـا وهيِ فوقـه
اذا ذاقـهــا مَن ذاقـهــا ، يـتـمــطق

لاحظ الدقة في تصوير الصفاء والنقاء، وروعـة الحركة في « يتمطق » التي ما نكاد نقرأ البيت ، ونتمثل الحالة حتى نتمطق فعلاً . .

توكأ على هذا البيت الاخطل ، وهو تلميذ بارز من تلامذة الاعشى ، في بعض خمرياته ، فقال :

ولـقــد تبــاكــرني عـلى لــذاتـهــا
ء صهبـاء عاليـة القـذى ، خـرطـوم [1]

ويقول الأعشى :
من خمـر عـانـة قـد اتى لخـتـامهـا
حــول ، تسـل غمــامـة المــزكــوم

فيقول الأخطل :
واذا تــعــاورت الأكـف خــتـامَــهـا
نفحت فنــالَ ريــاحَـهــا المــزكــومُ

---

(١) خرطوم : سريعة الإسكار .

ويقول الأعشى :

وكــأس شــربــت عــلى لــذة
واخرى تداويت منها بها . .

فيقول ابو نواس :

دع عنــك لـومي فــان اللومَ إغـراء
ودواني بــالتـي كــانت هـي الــداء

وينقلب المعنى ، عند النواسي ، تجربة ، والتجربة تضغط في رأي او حكمة . وحين يصبح الشعر وعاء للحكمـة ، وارشيفا تسجـل فيه « المعلومـاتيـة » يبـرز الحكماء والمتفلسفون، امثال المأمون ، فيعلقون على البيت - « أن اوله سقراط ، وآخره بقراط » ! [١] بدل تذوقه وتحسس جوانب الابداع فيـه ، وتلك العفويـة الغامرة التي تنضـح منه ، والصراحة الجريئة التي تتحدى فيـه الـلائمين المغلقين الــذين كـانــوا سبب شذوذه الاجتماعي ، كما كانت الخمرة سبب دائه ودوائه في آن! فالـشعر في نـظرهم ، تاريـخ وجغرافيـا ودين ، وطب ، وإلا فلا . . عذرهم انهم يعيشون في القرن

(١) يروى أن المأمون عندما سمع هذا البيت لأبي نواس قال معلقاً : إن أوله سقراط (أي فلسفة) وآخره بقراط (اي طب) بدل أن يهتف متأثراً .

التاسع الميلادي .. فما عذرنا نحن ، اذا نظرنا الى الشعــر نـظرتهم ، ونحن نعيش في أواخــر القــرن العشرين ؟!

وواضح ان الطريقة القصصية الرديئة والحـوارية المتعددة الاصوات التي طغت على اسلوب ابي نواس الخمري ، كان لهـا جذور عنـد الأعشى ، وبدايـات موفقة ، إضافة الى الجانب النفسي ، والمناخ التحرري الذي كان ابو نواس يحيا فيه ، وينطلق منه في حواره مــع الخمرة : عشيقتهالاولى .

وانك لنتجد كبير فرق بين هذه الحكاية للأعشى ، وايـة حكايـة خمـريـة لأبينـواس ، اللهم إلا فـارق العصر ، والوضع ، والموقف والثقافة . قال الأعشى :

وقــد اقــود الصبــا يــومــا فيتبعني
وقــد يصــاحبني ذو الشــرة الغَــزِلُ

في فتيـة كسيـوف الهنـد قـد علمـوا
ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الْحِيَلُ

نــازعتهم قضب الــريحــان مـتكئـا
وقــهــوةً مــزة راووقــهــا خَــضِــل

لا يستفيقــون منهــا وهي راهنــة
الا بهــاتِ ، وإنْ عُلوا ، وإنْ نهلوا
ومستجيب تخــال الصنــج يسمعــه
اذا تــرجَّــعُ فيـه القينــةُ الـفُضُــلُ
والســاحبـاتِ ذيــول الـرِيط آونـــةً
والـرافـلات على اعجـازهـا العجــل
من كـل ذلـك يـوم قـد لهــوتُ بـه
وفي التجـارب طـولُ اللهـو والغَـزَلُ

انها حكاية حال الأعشى مع الخمرة حين يذهب الى الحانوت [1] قـائداً لشبـابه ، لا مقـودا ، تصحبه عصابة من كرام الرفاق ، نذروا انفسهم ، مثله ، للحب والغزل والخمرة ، ينهبون معه اللذات نهباً ؛ لعلمهم بأن العمر هو الشباب ، وما دون ذلك فضول وخمول . . بل سراب ! وان الموت قَـدَر لا مهربَ منـه ، ولا حيلة معـه . . . ليتلوعِ الهاربـون من الفاجعـة ، وليبكـوا مـا شاؤ وا . . وليقفوا على الاطلال او يقعدوا . . اما هم امـامهـا، فذوو شِرة يتحدونها بتحييدها او نسيانها . . ها هم في الخمـارة يتحلقـون حــول استـاذهم الأعشى

(١) الحانوت : المقصف أو الخمارة بلغة اليوم او (الكاباريه) .

المتكيء على قُضُبِ الريحان يأنسون بحديثه وشرابه وآدابه[1] . . . فينتشون بها نشوة لا يستفيقون منها الا ليطلبوها من جديد . . . اما السقاة فغلمان نظيفو الثياب، خفيفو الحركة . يطوفون على السكارى بين الاغفاءتين! ثم لما تفعل الخمرة فعلها ينطلق الوتر في نغم خافت يجاوبه الصنج ، وصوت القينة الفُضُل (بالماكسي) في ترنيمة مشتركة خافتة تزيد من بهجة المكان وتخفف من ثقل الزمان .

وتمضي ايام الأعشى كهذا اليوم الذي لها به وتحرر من نكد الدنيا وقسوة الواقع .. ولن اتصوره غير هذا ، حتى ولو لم يكنه .. واضح من هذه الخمرية ، ومثيلاتها ، مدى تحضر الأعشى ، وعمق ما تأثر به من طوافه حول اطراف الجزيرة العربية ، حيث الممالك ، والملوك ، والدور والقصور ، وحيث الحضارتان القديمتان الفارسية والرومانية (ووريثة اليونانية) تتركان بصماتهما في ملبس عرب الحواضر ، ومأكلهم ومشربهم وعاداتهم .. فيأخذ الأعشى من كل ذلك

---

(١) لاثبات استاذية الأعشى انظر المقارنة المفصلة بين خمرياته وخمريات الأخطل وأبي نواس التي عقدناها في كتابنا : أبو نواس ص ٩٠ وما بعدها الصادر عن دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٠ .

بقسط ينعكس على خمرياتهواسلوبه فيها . ويكاد ينفرد في توصيل ذلك اليهم . .

فمن خمـريـات الأعشى تتعـرف الى الحـانـة والحانوت ، والخَدَم والسقاة والقيان والقينات . . كما ان زي الغـلامة Ala garçonne كـان معروفـا في تلك القصور والحانات . . فهذا غلام الاعشى يعلق في اذنه قرطاً ، ويخضب كفه ، ويقلص سرباله (١) عندما يباشر عمله في الحانة ليصبح جزءا منها . مع هاتيك الغانيات المغنيات اللواتي يَسْحَبْنَ ذيول الريط (٢) . .

وبديهي ان هذه الرقة ، وهذه الحضارة لم تكونا في البادية ، ولا عرفهما شعراؤها ، إلا مَن تسنى له ، كـالاعشى والنابغة وحسـان وعـدي ان يعيش معهمـا وفيهمـا . . الاعشى لمامـا والنـابغـة وحسـان وعـدي دواما . . بل كانتا في الحـواضر ، وفي مـدن العراق والشام والحيرة واليمن وبعض الواحات كتيمـاء وفدك

---

(١) اصبح عند العامة (شروالاً) والسربال : الدرع ج سرابيل جاء في القرآن (سورة النحل) : ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ .

(٢) الريط : أو الريطة كل ملاءة غير ذات لفقين (أي قطعتين متضامتين) كلها نسيج واحد وقطعة واحدة (محيط المحيط مادة ريط).

وجلق والاديرة . وكان طبيعياً ان ترق ديباجة هؤلاء الشعراءالمتحضرين ، وان يتميزوا عن غيرهم من شعراء البادية ، وبالأخص في خمرياتهم ، لكأن الخمرة قد تسربت الىالحروف والكلمات فانتشت بها بعد ان انتشى الكيان والوجدان . وسرعان ما يبدو الفرق واضحا حين ننتقل الى سائر موضوعاتهم الشعرية حيث يبدأ الجفاف وغريب الكلام وخشن الصور بالتكاثر والتزاحم في تراكمية كثيفة . . . تبعدنا عنهم بقدر ما تقربنا منهم خمرياتهم المتحضرة . . .

تحضر بدوناستقلال :

لم تستطع رحلات الاعشى الى اطراف الجزيرة ومعايشته لأشياء الحضارة في الحيرة واقتباساته منها ان تفصله عن بداوته وجفاف اسلوبه الا بمقدار ضئيل ، لا نحسه إلا في خمرياته ، كما رأينا وحتى هذهالخمريات لم تستقل مع الأعشى في قصيدة ، والموضوعية ، التي هي احدى مفرزات الفكر المتحضر ، لا نجدها في قصائد الأعشى الخمرية ، مع انه عاش للخمرة ، في صباه ، وكاد ينقطع اليها . علما بأنه ما مدح وما تكسب

في مدحه إلا من اجلها . وهذا معناه ان إلأعشى كان قليل الحظ من الحضارة ، وبالتالي ، قليل الحظ في الموضوعية الفنية التي يتميز صاحبها بالتفرغ والانقطاع لموضوع واحد ، كما تتميز القصيدة الراقية ، في اي موضوع كان ، بالاستقلالية التامة ، فلا خلط ولا مزج ولا تنقل ، في القصيدة الواحدة من موضوع الى موضوع . كما لاتعليل ولا تحليل ولا وحدة . .

لذا ظلت خمرياته في اكثرها ابياتا ـ مطالع ـ يوطيء بها الى المدح اوالهجاء او الفخر ، وبالعكس .

وتنحسر موجة « التحضر الفني » عن الأعشى في بقائه حسي الوصف ، مادي الصورة ، شيمة سابقيه ومعاصريه من الشعراء الجاهليين ، فلا تجريد ولا انفعال ولا خيال ، بل لصوق بالمشهد لصوقا شكليا او ظاهريا تحدده الباصرة لا البصيرة ، وتتعامل مع المرئي كشيء محدود لا ابعاد له ولا صلة له بالنفس او الوجدان .

فأين امتياز الاعشى اذن ؟ سنرى ان امتيازه في الخمريات هو انه نقل الخاطرة أو اللمحة الى « الفكرة » ، الى الموضوع . صحيح انه لم يرتفع

بـالخمرة من المـادة الى الروح ، من مـظهرهـا الى جوهرها ، وظل جاهليا ، الا انه « ارتفع افقيا » بها ، اذا صح التعبير ، بمعنى التوسع والاحاطة والشمول ، قبله كان ذكر الخمرة على لسان الفارس ، والرئيس ، والصعلوك ، سبيلا الى التفاخر والتباهي والإدلال على الآخر بأنه ذلك الفتى القادر على شرائها « بالمشـوف المعلم » على حد قول عنترة ، وانه يشربها « بعدما ركد الهـواجر » ، وانـه وان سكر فـانه يبقى وافـر العرض والكرامة . ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد . . فلا تطرق الى الخمرة نفسها ومجلسها ، وصفتها وساقيتها وسائر توابعها ومفاعيلها في الرفاق ، ثم صفة هؤلاء الرفاق قبل السكر واثنـاءه وبعده . . ممـا توسـع به الاعشى توسعاً لم نعهده قبله . ناهيك بما اضافه على الخمرة من نعـوت جـديـدة واسمـاء مجلوبـة من عـواصم المتحضرين الذين زارهم وشرب معهم . .

نماذج محللة : شلاشل بنت الأعشى !

وهذه خمرية مقتطعة من معلقته اللامية التي يودع فيها صاحبته « هريرة » بعد ان تغزل بها مـا شاء لـه

التغزل موطئاً بكل ذلك إلى مدح يزيد بن مسهر ابي ثابت الشيباني، جامعا ، في المعلقة ، كل ما يريده من غزل وخمر ومديحوفخر . قال :

وقد اقود الصبا يوما فيتبعني
وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل
وقد غدوتُ الى الحانوت يتبعني
شاو مشل شلول شُلْشُل شول [1]
في فتية كسيوف الهند قد علموا
ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متكئاً
وقهوةً مزةً راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة
إلا بهات ! وان علوا وان نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف
مقلص اسفلَ السربال معتمل

(١) الشاوي الذي يشوي اللحم . المِشَل : سواق الإبل ، الشلول : خفيف الحركة : روى أبو عبيدة : نشول : الذي ينشل اللحم في القدر ويقلعه للقوم . الشلشل : المتحرك . الشوِل : الذي يحمل الشر . وقالوا : شمِل بمعنى طيب النفس والرائحة . أما الذين انتقدوا هذا البيت فلم يتريثوا ليروا ما وراء هذه الشلشلة . .

ومستجيب تخال الصنج يسمعه
اذا ترجع فيه القينة الفضل
من كل ذلك يوم قد لهوتُ به
وفي التجارب طول اللهو والغزل
والساحبات ذيول الخز آونة
والرافلات على اعجازها العِجَلُ[1]

لا ادري ما الذي قَرَّبَ الاعشى ، في لا وعي الحافظة ، من بدر شاكر السياب ! لعلها شناشيل بنت الجلبي ، لشاعرنا العراقي الرومنسي ، وشلاشيل الاعشى ؟! في تداعٍ حروفي ساقته الشنشنة والشلشلة لحظة التداعي الوجداني الذي انبثق عن صورتين تكادان أن تكونا واحدة .

صورة الصورة

الساحبات ذيولَ الخز آونة
والرافلات على اعجاز العِجَلُ ..
اللواتي يحملن (العِجَلِ) . او جرار الماء (او

(١) العِجَل : جمع عِجَلَة وهي قربة الماء .

الخمرة) متكئات بها على اطراف اردافهن ، يدرن بها ، في الحانة ، على الاعشى ، ورفاقِ شرابه . . وصورة بنت الجلبي الريفية التي تسحب في قريتها الوادعة ذيول فستانها الحب والاعجاب، نظير رعشة الحب والسكر تحدثها الساقية في كيان ووجدان الاعشى المنهمك ، في الحانة ، بِشَوَّائِهِ وشِوائه ، ذاك المشلشل الشوِل (السريع الحركة) !! . . . .

واراني ، أثر هذه الرؤيا واقعا بين تنافر الاضداد وتتابع حركات الجرس الموسيقى ، مستدعياً نشوةً وجدانية سرعان ما تتسرب الى كياني من رؤية بنت الجلبي ، وبنات الاعشى [1] وهن على تلك الصورة الرائعة ، فأكاد اسحب مثلهن فضلَ ردائي . . لكن ، سرعان ما أتعثر باذيال الشناشيل العراقية والشلاشيل الاعشوية ، فاتراجع دون ان ادخل ، وابقى متأملا[2] ! اما التحليل الفنيِ لهذه المقطوعة الخمرية فقد اجريناه قبل قليل .

---

(١) قلنا : بنات الأعشى لمراعاة النظير . وقصدنا : شلاشيله .

(٢) تلك رؤيا نَـدَّت عن أحلام اليقظة ، لا أدري ماذا يقول عنها النقاد وعلماء النفس التجريبيون . أو لعلها شِنشنة عُرفت عني في الاستطراد والشطح ! والله أعلم .

مقطوعة خمريةاخرى :

جاءت هذه المقطوعة كغيرها ، توطئة الى مدح قيس بن معد يكرب ويزيد بن عبد المدان :

أَلَــمْ تَـنْـهَ نَـفْـسَـكَ عــما بِهـا
بَلَى ، عَــادَهــا بعضُ إطْــرابِـهــا !
لِــجَــارَتِــنــا ، إذْ رأتْ لِــمَّــتــي
تقـول : « للك الـويـلُ ، أنى بهـا[1]
فــإن تَـعـهــديني ، ولــي لِمَّــةٌ
فــإن الــحــوادِثَ ألْــوى بــهــا
وكــأسٍ شــربــتُ عــلى لــذةٍ
واخــرى تــواديــتُ مــنــهــا بــهــا
لـكي يعـلمَ الــنــاسُ أني امــرؤٌ
اتيتُ الـمـعـيشـةَ مِــن بــابـهــا
كــمُـيــتٌ يُــرى دونَ قَـعْــرِ الإنــا
كمثـل قــذى العيـنِ يقـذى بـهــا
وشــاهــدنــا الــورد والــيــاسمــيـ
نُ ، والـمـسـمـعـاتُ بـقـصـابـنهـا

(١) تلومه جارته على تصابيه وهو شيخ . قائلة : أنى لك بالتصابي وأنت اشيب أشمط؟!.

ومـزمـرنـا مُـغْـمَـلٌ دائـمٌ
فـأي الـثـلاثـةِ ازرى بـهـا
تـرى الصنـجَ يَبكـي لـه شجـوُهُ
مـخـافـةَ ان سـوف يـدعى بهـا
مضى لي ثمـانـون مـن مـولـدي
كـذلـك تـفـصـيـل حُسَّابهـا
فـاصبحتُ ودعـتُ لهـو الشبـا
بِ ، والـخـنـدريسَ لاصـحـابهـا
احـب أثـافـتَ وقـت الـقـطا
فِ ، ووقـتَ عـصـارةِ عـنـابهـا
وكـعـبـةُ نـجـرانَ حَـتْـمٌ عـلـيـ
كِ حـتى تُـنـاخـي بـأبـوابـهـا
نـزور يـزيـدا ، وعبـدَ المسيـ
حِ ، وقيساً ، همُ خيـرُ اربـابَهـا
اذا الـحـبـراتُ تـلوتْ بـهـم
وَحـبـروا اسـافـلَ هُـدّابـهـا
لـهـم مـشـربـاتٌ لهـا بـهـجَـةٌ
تـروق الـعـيـونَ بـإذهـابـهـا

يبدو أن استغراق الاعشى ، في هذا المطلع ، مع

الخمرةِ والمرأة ، كان طويلا ، ولم يغادرْه الا بعد ان اشبع نفسه ذكريات ، وهَدَّأ روعَه مِما هو آت « بعد الثمانين التي مضت له » .حتى اذا خلا، بعد لأي ، الى ممدوحيه انقلبت الغاية وسيلة ، واصبح يزيد وعبد المسيح وقيس وكعبة نجران هوامش المتن ، واطار الصورة . اما المتن ، او محور الصورة ، فهو ذاته ولذاته ،وخمرته وجارته وصنجه ، وحانته وناقته يحاور الجميع ، مبتدئاً بجارتهوَلِمَّتِه .. وتنتصر اللمة التي ازرت بها حادثات الدهر وطول العمر بأنتصار صاحبها عليهما .. ها هو ، رغم الثمانين ، يشرب الخمرة ليؤكد للناس انه « اتى المعيشة مِن بابها » وما زال .. ولكي يعلل استمراريته معها ، راح يفلسفها ويخضعها للمنطق الطبي القائل بعدم الامتناع كليا عن تناول شراب أو طعام مهما كان ضاراً[1] او قتل الشيء بمثله.. كالسم بالسم او الميكروب بالميكروب نفسه وهو منطق علمي حديث حَدَس به الشاعر، وفاض عنه فيضا: ،

وكأس شربت على لذة
واخرى تداويت منها بها

ولعله اقتبسه من اولئك الكهنة ـ الاطباء ، في

(١) كالخمرة أو القهوة أو الدخان ، وكل ما هو ضار بالمدمن عليها .

الحيرة واليمن ، فافرغه ، وعيه او لا وعيه ، في حكمة ملموسة واضحة، اعجب بها، كما رأينا، ابو نواس، ولاءمت منه عقلاً ومزاجا ، فعمقها وفلسفهافاصبحت : وداوني بالتي كانت هي الداء . . وطبيعي ان تتمازج الحِكْماتُ حين تتماثل الحالات . . فأبو نواس تلميذ الاعشى ، وتلميذه «الشاطر»! فلا عجب ان يتفوق على استاذه ، حضارة وفكراً دون ان يغايره موقفا وتحديا ، ونفسية .

ويمضي الاعشى ، في ذلك البيت ـ الحكمة ، والذي يليه ، في تحدٍ لبقٍ معلناً انه هو الذي عرف كيف يعيش ، وكيف يدخل الى الحياة ، من بابها الواسع ، وليس كاؤلئك المُغْلَقين الذين يجيئون ـ ثم يذهبون ، خارج السور العظيم ، ثم لا يدري بهم احد ! ففي ظنه ان الخمرة ، وهي شراب الآلهة [1] هي الباب والمآب ، وهي سر الوجود [2] .

---

(١) في ميثولوجيات الأمم الغابرة كاليونان والرومان والفرس.

(٢) وقد أصبحت الخمرة عند أبي نواس مثلاً هي الإله ، ثم اتخذها الصوفية طريقاً إلى الله ، ولو بالترميز ، فضلوا . . ثم انقلب الله هو الخمرة نفسها ، فسكروا به واتحدوا . . فضلوا مرتين ! . .
وكذلك فعل الخيام . للتوسع انظر كتابنا : أبو نواس : مجدد أم شعوبي الصادر عن دار ومكتبة الهلال ١٩٨٠ ــ بيروت . المؤلف.

وخمرة الأعشى كميت حمراء صافية ، وهي لشدة صفائها «تريك القذى من فوقها وهي فوقه» على حد تعبير الأخطل تلميذ الأعشى الأول والمقتبس الحاذق:

ولـقـد تبـاكـرني عـلى لـذاتـهـا
صهبـاءعـاليـة القـذى خـرطـوم

وهي لا تشـرب في البيوت سـرا ، او عـلى الطرقات ، او عند الهاجرة . . بل إن لها حرمةً وجواً ومواقيت، لا بد من توفيرهـا: حانـة راقية، يفـرش فيها الـورد واليـاسمين ،لأمثـالـه من كبـار الشـاربـين المتخصصين ، امام مغنيات جميلات الصوت والأداء ، يوقعن على أعوادهن، بمرافقة المزمار الدائم العزف. . . وها هو الورد ، والمسمعات ، والأعشى ،يشكلون ثالوثاً لذيذاً يليق بالحانة والعيشة . . ولا يزري بالخمرة . . فهووالرفاق اكفاؤهـا ، وليس « سفلة » القوم ، او من « يجهل الادبا » كما سوف يقول ابو نواس . .

ويصبح الصنج ، في هذه الخمرية ، جزءاً حيا من الحانة . . فهو لكثرة ما عزف عليه ، أَلِفَ شجوا حنونا منسجماً مع اللحن . . واذا بجزئيات الحانة وشخوصها تنقلب كـلًا واحداً يضـج بالحيـاة ، فينتشي الجميع ،

ويتحدالجميع . . ولعلنا ، في اعماقنا ، نشاركهم نشوتهم ، وننسى معهم كلٌ ما يجري خارج هذا الركن الدافيء الحميم ، من هموم ومتاعب ، وتفاهات . . ننسى الحياة في جانبها الروتيني ، وفي وجهها الآخر الكالح . . ارأيت كيف ينقلنا الشاعر ، اعشى ام غير اعشى ، في لحظة استشفاف واستشراف ، الى عالمه واحلامه وذكرياته ؟! ولا يكاد شاعرنا يخرج من عالمه الأثيرمعلنا وداع «الخندريس» لاصحابها ، حتى يعود الى ذكرياته في « أثافت » : تلك البلدة الحبيبة الى نفسه ، لا سيما وقت قطاف العنب وعصره في معصرته الخاصة [1] وينظر ، الآن ، حوله ، فلا يرى سوى شيخوخته وناقته فيخاطبها قائلاً :

وكعبة نجران حتم عليك
الى ان تُناخي بابوابها

وما ذاك منه لمجرد الزيارة بل لأنه « يرتاح » هناك

---

(١) كان للأعشى معصرة للخمر في اثافت وهي قرية في اليمن . انظر : شعراء النصرانية ، ص ٣٧٥ للأب لويس شيخو لكن هذه التجارة بالخمور لم تكن مورده الوحيد أو الأهم . تجارته الرابحة كانت كما يقول صاحب ألروائع ما يحصله من الأمراء والملوك لقاء مدح كان يسير بين العرب والعجم فيرفع شأنهم» الخ.

حين يـزور اصـــدقـائه الاوفيـاء الكـرام : يـزيـد بن عبد المدان ، وقيس بن معدي كرب وعبـد المسيح : هؤلاء الكهنـة المتحضـرون كهنـة كعبـة نجـران او كنيستها ، وسدنة حبابُ الخمـرة الدهـرية ، ليتـداوى عنـدهم بالتي كـانت هي الداء ، وينعش شيخـوختـه اليابسة . . فما حط الاعشى رحالهولمناخ راحلته الا عند امثـال هؤلاء الصحـاب الـذين يكـرمـون ويعـطون ويسقون . . صحابٌ متـرفون يجـرون اذيال النعمـة ، ويسكنون الغرف العالية حيث يتبادلون ، مع الأعشى ، كأساً بكأس : منهم الخمرة ، ومنه المديح ، وتتم لكل طرف نشوته !

فن التعبير فيها :

من الـواضح ان « استغـراق » الاعشى في هـذه الخمرية ـ المدحية ناتج عن « حالة » او تصور حالة ، طالما احبشـاعرنـا ان يحياهـا ، ويترجم عنهـا ، او يتصورها فيكيانه ، على الأقل ، ثم في بيانه . . فكيف اذا كان هذا التصور في لحظات اليأس من العودة ، حيث الثمانين تشد على من بلغها شداً عنيفاً ، فاذا به ، هنا ينفجر . . . لكن انفجاره جاء غير مُدَوٍ . . جاء

هادئاً هدوء العمر كله . . فانسابت التجربة ـ الذكرى عبر حوار حميم مع الجارة اللائمة ، في رشاقة حوارية تخييلية تبدو وكأنها عصرية ، وليست لشاعر عاش في القرن السادى الميلادي . . وهذه الكلمات : ورد ، ياسمين ، معيشة ، شجبو ، لهو ، مزمر ، قطاف . اليست كلمات لشاعر اذاعي عصري ينظم ليلحن شعره ويغنى في الاذاعة ؟! واذاعة الاعشى كانت صوته وصنجه . . كل ذلك ساعد على اشاعة جو المرح والمتعة والجمال والموسيقى . جو اندمج فيه الشاعر ، مع انه اطل عليه من مسافة بعيدة ، مسافة الثمانين عداً . . لكنه كان موصولاً به ، مشدودا اليه . . فامحت المسافات ؛ ونسي الشاعر موقعه . . كما نسي القافية الايقاعية هل هي لاتمام المعنى ام هي لكمال اللحن ، فرددها ، تلقائيا ، كما هي . فاذا «بها» تتكرر خمس مرات ، وبصورة متتالية وفي مقطع خمري قصير . . . معنى ذلك . في نظرنا ، ان الشاعر مشغول «جوانياً عن كل ما في هيكلية قصيدته «برانيا» . . او . . لعل حب التطريب في النَغَم الرتيب الذي تفرضه ضربة الصنج (طَطَق ـ طَطَق : حركتان فسكون مكررة رره ـ رره) هو الذي دعا الشاعر الى

تكرار « بها » خمس مرات . فكأنها اللازمة الموسيقية التي جرت عليها بقية القوافي المماثلة ، اذ لم يعد يهم التنويع ، في هذه القافية بقدر ما يهم الترجيع اويبقى ، اخيرا ، بحر القصيدة ـ المغناة ، وهو المتقارب . . لتقارب تفصيلاته وإيقاعها ولقرب القافية من صدرها . مما يصلح للغناء الراقص ، كما يقول البستاني في مقدمة الالياذة المعربة ، ولوصف مجالس الخمرة والطرب حيث تستعمل الآلات الموسيقية الخفيفة ذات النغم المقتضب والسهل : كالطبلة والزمر والصنج والعود . .

كان طبيعياً ان يصدر كل ذلك عن شاعر شبه متحضر ، ذي حس مرهف، ولياقة تعبيرية تعطي لكل حالة لونَ صورها وتشابيهها ، ولكل نَغَم ما يلائمه من الحروف والحركات . .

لكن الاعشى ، رغم كل هذه الرشاقة واللياقة ، ظل مادي الصور حسي الخيال : نظرا الى انه لا يزال لصيق صحرائه وعصره ، مهما ساح وطاف ، وعبد لغته التغلبية ـ القرشية الغريبة الجزلة التي رققت الخمرة والحضارة منها ، بعض الشيء ، لكنها لم ترتفع

بشاعرنا الى مستوى التجريد .. ولا الى الوحدة الموضوعية والتعليل والتحليل من حيث المعنى .. فلا يزال بينه وبين هذا قرنان من الزمان ..

خمرية ثالثة:

وقد بدأها ، كعادته بغزل موجه ، هذه المرة ، الى هند في المطلع ، ثم الى سلمى في الختام .. اي الى لا أحد . قال بعد غزل تخييلي :

وطلاء خسرواني اذا
ذاقه الشيخ نغنى وارجحَنّ
وطنابير حسان صوتها
عند صنج كلما مُسّ أرَن
واذا المسمع افنى صوته
عَزَفَ الصنج فنادى صوتَ وَن ..
واذا ما غُض من صوتيهما
واطاع اللحن ، غنانا مُغَن
اذا الدن شربنا صفوَه
أمروا عمراً فناجوه بدَن
بمتاليف اهانوا مالهم
لغناء وللعب ، وأذَن

فترى إبريقهم مسترعفاً
بشمول صفقت من ماءشن[1]
غدوة حتى يميلوا أُصُلاً
مثل ما ميل باصحاب الوسَن
ثم راحوا مغربَ الشمس الى
قُطَفِ المشي ، قليلات الحَزَن

نسخة طبق الأصل عن سابقاتها : ابيات ايقاعية تغنى بسهولة على آلات العزف البدائية ، كالطنبور والدف والصنج ، وقد يكفي وحده عشوائياً .. تساعد على ايقاف انسياب النغم : قافية مرنانة مشددة ساكنة الحرف الأخير ، متحركة الروي ، على وزن فَعَلْ (حركتان فسكون زره) من المتقارب ايضا . وتراه يحدد سيرّ الايقاع تحديدا مقصودا اذ يربط القافية كلها بالنوتة الموسيقية ، بتعبير اليوم ، وباللازمة ، بتعبيرهم . وهي هنا : صوتَ وَن .. التي لا معنى لها سوى انها ضابط حَرَكي فقط . فاذا كانت القافية العربية ، قبل الأعشى وفي ايامه وبعدها « خبطا عسكريا » كما يقول احد النقادالمعاصرين ، او كلاما مسجعاً بلغ ذروته ،

(١) مسترعفاً بالشمول : مليء بالخمرة المبردة .

كما نقول نحن .. فان قصائد « الأعشى وبالأخص خمرياته ما هي سوى « خبط وَتَري » ان صح التعبير ودوزنة عود ، وايقاع دف ، وضربة صنج بالاصبع ! ضربة منخفضة حتى « يطيع اللحن » ،ويتمكن المغني من الانطلاق ، كما يقول : فاذا ما غُض من صوتيهما ما أطاع اللحنُ غنانا مُغَن. كما يلاحظ أن قافية صدور الابيات : الثاني والثالث والرابع من هذه الخمرية مؤلفة من لفظة : صوتها ، في البيت الثاني ، وصوته ، في الثالث، وصوتيهما في الرابع .. وكأنه قصد الى ذلك قصدا ، ليتم تجاوب موسيقى الداخل مع موسيقى الخارج ، في القصيدة ، الانشودة .. اوَ المعزوفة .. وكعادته ايضا مع الندامى ينطلق الأعشى في بزل الدن ، ليشرب هو والرفاق صفَوه حتى الثمالة .. منادين عمرا بصوت واحد : ان أحسنت ، على ما غنى وما سيغني ، يقولونها « مناجاة » ورفع كؤوس ! انها عادة قديمة معروفة لدىالمعاقرين اقتبسوها عن الفرس والرومان كابرا عن كابر .. وها هو الاعشى يشير اليها بقوله : « فناجوه بدن » هؤلاء الرفاق متحضرون اسخياء : « متاليف اهانوا مالهم » .. لغناء ، وللعب وأذن » لا كأولئك الاغنياء الاشحاء (من عرب

الصحراء ؟) الذين يهينون انفسهم من اجل الحرص والشح ، فلا يستمتعون بدنياهم ، فيبرهنـون على غباء مطلق ، وجلافة بدوية رعناء . .

انها اشارة بعيدة ، رَمَز اليها الشاعرُ بكلمةٍ واحدة : متاليفٌ أهانوا مالهم . . فعرفنا قصده ، وكم في قصده من مغامز !

ويسترسل الشاعر ، بعد هذا الغمز ، في وصف ظـاهري لهؤلاء النـدامى واباريقهم التي لا تُـرى الا مسترعفةً مترعةً بالخمرة المثلجة . . رغم أنهم ينهلون منها بين اللحظة واللحظة ، وهم يباكرونها مصبحين ، ويميلون عليها أُصُلا مغتبقين . . حتى اذا غابت الشمس مشوا الى منازلهم بخطى وئيدةٍ، قليـلات الحَزَن . . على حد اشارته . .

هذا المجلس الخمري يبـدو انه نهـاري ، وكأن هؤلاء لا عمـل لهم، في ليل او نهار، سوى معـاقـرة الخمرة . . الا اذا كانت المعاقرة بحد ذاتها عملاً ، في ظنهم ، كما سيفعل التلميذ « الشاطر » ابو نواس هو وعصـابته اذ كـانـوا لا يُـرون إلا « متنقلين بـأوزارهم وزواملهم » بين الكوفة وبغداد ، او بين بغداد وارباضها

وادبارها » مطبقين باخلاص الدستور النواسي القائل في رأس مواده :

ومـا الغـرم الا ان تـراني صـاحيـا
ومـا الغنم الا أن يتعتعني السكـر !

وتتواتر خمريات الاعشى على نسق واحد ونَفَس قصصي في بدايات لهاته ومطالع حواره ، لكنه يرهص لما يعده من قصص خمري متكامل سيظهر على يد النواسي وفي بعض الموشحات . قال يحاور رفيقا له ابيض :

وابـيض مـخـتـلـط بـالـكـرا
م ، لا يـتـغـطى لانـفـادهـا [1]
اتـاني يـؤامـرنـي فـي الـشَـمـو
لِ ، لـيـلا ، فقـلت لـه غِـادهـا
ارحـنـا بـبـاكـر جـدَّ الـصـبـو
حِ ، قبـلَ النفـوس وحسـادهـا [2]

---

(1) لا يتغطى : أي لا يتساكر ، إذا نفدت الخمرة فيتظاهر بالنوم كي لا يشتري لرفاقه .

(2) أي نشرب غدوة قبل أن يرانا الناس فيحسدوننا .

فقمنا ، ولما يصح ديكنا
الى جونة عند حدادها [1]
تنخلها في بكار القطا
فِ ، أزيرقُ آمن إكسادها [2]
فقلنا له : هذه هاتها
بادماء ، في حبل مقتادها [3]
فقال : تزيدونني تسعةً
وليست بعدل لأندادها
فقلنا المَنصفنا : اعطه
فلما رأى خَضْرَ شُهّادِها
اضاء مظلته بالسّرا
جِ ، والليلُ غامرُ جُدَّادَها [4]
دراهمنا كلها جيد
فلا تَحْبِسَنا بتنقادها

(١) الجونة : الخمرة السوداء إلى حمرة خابية ، حدادها : صاحبها الذي يحد الناس عنها إلا بثمن .

(٢) تنخلها : اختارها . ازيرق : اراد به صاحبها . وصفه بالأبيض ثم بالأزيرق . ولعله يقصد الرجل الرومي الأبيض ذا العينين الزرقاوين . .

(٣) ادماء : بيضاء ، في جبل مقتادها : في حبل سائقها .

(٤) المظلة : الخباء . الجُداد : الهُدُب الذي يبقى في أسفل النسْيج . والمقصود الخِصاص بين شقتي المظلة .

فقام، فصب لنا قهوةً
تسكننا بعد إرعادها
كميتا تكشف عن حمرة
اذا صَرُحت بعد إزبادها[1]
كحوصلة الرألِ في دَنها
اذا صُوبت بعد إقعادها[2]
فجال علينا بابريقه
مُخَضَّبُ كَفٍ بفرصادها[3]
لقوم فكانوا هم المنفدين
نَ شرابهمُ قبل انفادها
فرحنا تنغمنا نشوة
تجورُ بنا بعد قُصادها

اصبح واضحاً، بعد كل هذه المطالع الخمرية، اوالغزلية ـ الخمرية، ان الأعشى يقف في نقطة

(١) كميت : حمراء ضاربة إلى السواد. فإذا روقت بعد الإزباء فانكشفت عنها الرغوة، أو إذا فرجت، بدت حمراء.
(٢) صفير النعام. شبه تجمعها بحوصلة الرأل. اقعادها : طول بقائها في الدن . .
(٣) الفرصاد : ثمر التوت.
اخذت هذه التفاسير عن الروائع رقم ٣١ ص ٥٧ وما بعدها.

وسطى ، بين النمطية التقليدية والتجديد ، بين الابداع والاتباع. ففي مطالعه الغزلية كان، كأي شاعر جاهلي، يوطيء للمدح أو الفخر، بغزل مصطنع لا ظل فيه لذات الشاعر ، ولا تعبير عن حالة حب ، ما خلا قلة قليلة منهم ، عانت من الحب واكتوت بناره ، او جُللت بغاره ، فبثته في اشعارها ، كامرىء القيس وعنترة وامثالهما . فهذا زهير ، على وقاره ، لا يجد مندوحة من التغزل ، في مطلع معلقته ، فيتغزل بزوجته « أم اوفى » والحارث بن حلزة ، الشيخ الأشمط الابرص ، يتغزل بصاحبته « اسماء » !

وهكذا كان لا بد من هذه التعويذة يضعونها على جبين قصائدهم ومعلقاتهم ، وقاية لها ، ربما ، من حسد الحاسدين من الجن والانس ! حتى جاء الأعشى فمزج بين غزليات مصطنعة وخمريات مبتدعة . وحين نقول مبتدعة نعني ما نقول . اذ لا شك في ان الاعشى ، كما عرفنا من سيرة حياته ، على قلة اخبارها ، كان لا يمدح احداً ، كبيرا او صغيرا ، الا من اجل مال ينفقه على الخمرة والرفاق ، حتى اذا وصف ذلك ، ووطأ به واكثر منه ، كان صادقاً ، لأنه يعبر عن حالة يعيشها

يومياً . واذا اتهم بأنه كان يلجأ الى « صنع » خمريته « ليوطىء بها لمدحه ، فيصبح الوصف الخمري ، في نظر التمهم « منهجا ادبياً يكاد يسير عليه دون دافع حاضر او ذكرى مخصوصة[1] . . ففي هذا الاتهام شيء من الانصاف، وشيء من التجني على الشاعر . اما الانصاف فهو انه نهج نهجاً جديدا في التوطئة بالخمرية ، بدل الغزلية ، تخلصاوانتقالاً الى ما يريد من المدح او الفخر او الهجاء . اما التجني ففي قول صاحب الروائع ، ان ذلك النهج كان « للتوسع الشعري دون دافع حاضر او ذكرى مخصوصة » . . كما كان الشعراء (قبله) « يوطئون بالغزل دون ان يشعروا بمفاعيله » . .

والحقيقة الخالصة ، في نظري ، هي ان هذا الشاعر الذي ظل طوال شبابه ، وحتى في شيخوخته ، تقطر الخمرة من اردانه فتغسل ادرانه . . وبلغ من حبه لها ولمجالسها ان اوصى بأن تهرق على ترابه في ضريحه ! وربما قَفَلَ ولم يُسْلم من اجلها . . هذا الشاعر لا يمكن ان يُتهم بأن خمرياته ـ المطالع كانت

(١) انظر : الروائع رقم ٣١ ص ٥٦.

نهجاً ادبياً وحسب ، وانه حين يقول خمرية ، وإنَ في معرض المدح ، لا يقولها عن احساس صادق بمفاعيل الخمرة . . فالخمرة التي تجري في دمه وكيانه لا بد ان تجري في بيانه . . نحن لا نملك تاريخ اللحظة التي قال فيها هاتيك الخمريات لكي نتأكد من انه كان خارجاً لتوه ، من « الحانوت » لكننا نملك شيئاً واحداً هو هذا النَفَس الأعشوي في الخمرية ، وذلك الجو الحميم الذي يشيعه في « المجلس » ، وتلك « الخبرة » بالخمرة ومذاقها واوصافها ومفاعيلها . صحيح انه كرر نَفْسه في اكثر خمرياته ، وكان متشابه الاوصاف والصفات ، ماديَّ التشابيه والصور ، وانه لم يستقل بالخمرية ، فلم يجعل منها فناً قائماً بذاته . . إلا انه كان على الأقل ، هو نفسه ، ولم يكن غيرَه ، في خمرياته . . كان اصيلا فيها ومبدعاً ومتحضرا ، وهذا حَسْبه . . كان كلما وقف على امير او ملك او صعلوك، يقف اولا على الخمرة : اميرته الاولى يستلهم منها ايات المدح وصفات الممدوح ، ويتوقف طويلا ، حتى ليكاد ينسى ما هو بصدده من مديح وممدوحين . فؤلاءهم ممدوحوه : قيس بن معدي كرب ، ويزيد بن عبد المدان وعبد المسيح يصبحون ، في آخر خمريته :

ألم تنه نفسَك عما بها
بلى ، عادها بعض إطرابها

وكأنهم غير معنيين بالمدح لطول ما توقف عند خمرته ونشوته وجارته ولمته ومعصرته وفلسفته.. فهل هذا كله « منهج ادبي » وحسب؟ ام قطع كيان تذوب على وَهج الذكريات فتنبعث المعاناة والمعايشة القديمة حيةً حارة وكأنها بنت ساعتها ؟

وحين نطلع على سيرة شاعرٍ ما ، من شعره ، ونفهم نفسيته من خلاله ، كما هو شأننا مع ابن الرومي مثلا ، يكون هذا الشعر مرآة صادقة تعكس حقيقة الشاعر في شتى حالاته ، ويكون الشاعر مترجما امينا له ولها عبرَه . .

ثم ان هؤلاء الذين وطأ الأعشى بالخمر لمدحهم ، كانوا هم انفسهم معتقي خمرة ، وبائعيها ، وشاربيها وباذلي دنانها- للشعراء والاصدقاء : يعاقرها معهم ، يمدحهم بصفاتها وبمفاعيلها ، او يجعل منهم وسيلة اليها ، والبقاء معها حين يعود ، ومعاقرتها بما يجود به هؤلاء عليه . فالخمرية الاعشوية اذن ، ليست مجرد نهج او مطلع او بديل عن الغزل المصطنع ، او مزيج

منهما معا . . انها ، في الحقيقة ، تعبير عن حالة دائمة كان يعيشها الشاعر حتى في صميم مواقف المدح او الفخر أو الهجاء ، فهي هاجسه ، وهي غايته ، وما الباقي الا وسائل . .

وبعد ما رأيك في هذه الاقصوصة الحوارية التي بين ايدينا الآن : وابيض مختلط بالكرام ؟ هل هي مجرد مطلع ، توطئة لمدح سلامة ذي فائش بن زيد بن مُرَّة الحميري ، ام هي وقفة امام ذكريات لفترة من فترات العمر الزاهية المباهية بكل اشياء المتعة واللذة واللهو ؟ لا إخالك بعد التملي ، الا مثلي ، معجباً بهذا التجلي في الاستذكار واسترجاع حادثة عزيزة على قلب الشاعر، هي حادثة دعوة ذلك الصديق الابيض له الى تناول كأس في حانة ليلية ، وما جرى بينهما وبين صاحب الحانة من حوارومساومة على نوع الخمرة وسعرها ، وكيف انه ، لما اطمأن اليهما :

اضاء مظلته بالسراج
والليل غامر جُدادها

فانكشفت له على ضوء السراج قيمة دراهمها الجيدة . . وتلك الدقة في تصوير تضايق الأعشى

ومضيفه ووصيفه حين حبسهم حداد الخمرة عنه دخول الحانة إلا بعد التأكد من المبلغ المدفوع ، بقوله :

دراهـمـنـا كـلـهـا جـيـد
فـلا تـحـبـسـنـا بـتـنـقـادهـا

ثم يدخلون فيبادر الحداد بصب قهوة دهرية ترعد وتزبد في الكأس لكنها في جـوف معاقـريها مُسَكنـة لهياجهم ولهفتهم وتوتر اعصابهم :

فـقـام وصـب لـنـا قـهـوة
تُـسَـكـنـنـا بـعـد ارعـادهـا . .

ويمضي الأعشى في وصفه المادي الدقيق لتلك القهـوة ـ الكميت التي تتكشف عن حمـرة داكنـة اذا روقت بعد الإزباد ذهبت عنها رغوتها او اوزَبَدُها ، اما اذا مُزجت ظهرت حمراء نبيذية ولعلها النبيذ نفسه ، او تلك الخمرة التي كانت معروفة في الجاهلية والمصنوعة من خلاصه التمر . فهي اذن : كميت كحوصلة صغير النعام (الرأل) ويجب ان نلاحظ الدقة في المقابلة بين اللونين الداكنين ، مع ان الاعشى كان لا يرى جيدا او هو كالاعمى ! لكن الشعراء دائما يرون ببصائرهم لا

بأبصارهم .. وبما يختزنون في ذواكرهم من ملامح الأشياء وسمات الاشخاص . وما رأيك بهذه الصورة المعقدة لبشار الاعمى حيث يصف معركة ليلية :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

واعمى المعرة في وصفه ليلةً ساهرة :

ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جُمان

ناهيك بهو ميروس وإلياذته !

ان الشعراء المبدعين لا يحتاجون الى عيون باصرة ، فكل ناحية من كيانهم تشع منها الف عين وعين .. لذلك هم يرون ما لا نرى ، ويحسون بما لا نحس .. هل نسينا ان في الشاعرجزءاً من الالوهية ؟!

ولا بد ، في نهايةكل مجلس اعشوي ، ان يجول الساقي او الساقية بابريق الخمرة ، بعد الرقص والغناء والمنادمة ، وان يغمز من قناة الاشحاء بمدح الكرماء من ممدوحيه الذين يستنفدون الخمرة قبل ان تستنفد دراهمهم ، وهم القادرون في الحالتين ..

ولا ننسى ايقاعية خمرياته كلها التي نظمها لتغنى بالصنج ، على الأقل ، وبلهوات المغنيات المجيدات على وقع العود والمزمار . وتعجبني ، هنا ، هذه الصورة للأعشى ورفيقيه ، حين انتشوا فاصبحوا هم النَغَم مشيةً وتمايلا :

فرحنا تَنغمنا نشوةً
تجور بنا بعد قُصَادها . .

ولا يفوتنا ، اخيرا ، ان نلاحظ النَفَس القصصي الحواري الذي يسيطر على هذه الخمرية من اولها الى آخرها ، والتي يتنقل خلاله الاعشى برشاقة بين الخبر والانشاء ، بين الغيبة والخطاب ، في « ديالوج » خفيف ومرح يلج به الى اعماق نفسية « الحداد » او صاحب الحانة ، تلك النفسية التجارية التي توسع في تحليلها تلميذ الاعشى ابو نواس في خمرياته الشهيرة . . تلك الخمريات التي تمتد جذورها لتتصل بجذور الاعشى مع اعتبار فارق الزمن والحضارة . . ولكن الملامح والمنهج والمزاج تبقى هي اياها عند الشاعرين . .

وتبقى ، بعد ، مسألة المعاناة والتجربة في الصنيع الشعري ، والصدق الفني والاخلاقي مدار اخذ ورد

حتى الآن، فهل يتحتم على الشاعر، اي شاعر، ان يمر بالتجربة او معاناة الحالة التي يعبر عنها شعرياً ، وما هو معنى المعاناة ونوعية التجربة ؟ هل يمكن للشاعر ان يبدع في وصف حرب تحريرية ، مثلاً ، دون ان يخوضها او يعايشها او يعيشها ؟ام يكفيه ان يتمثلها في الضمير والكيان حتى اذا تأثر ببطولات ابطالها وبانتصاراتها ، او انهزاماتها تفجر بالشعر وجاء بالرائع منه ؟ ام ماذا ؟

الواقع أن التجربة عماد كل ابداع فني ، فالشاعر المبدع هو صاحب التجربة أو المعاناة الخاصة . وبقدر ما يعبر بصدق وفن عن تجربته الذاتية بقدر ما يبدع ويغاير . اما إذا عبر عن مجموعة التجارب المشتركة والمتوارثة ، ولو بمهارة ، فسوف تفقد تجربته هذه حرارتها ، واصالتها وتفردها ، فيسقط في إلتقليد والمشابهة ، وجدلية المنطق العام ، ويبهت ابداعه أو ينعدم .

تجربة الماضي كانت مشتركة ، بمعنى انها تقليدية ، تشابهية ، وحين شذ عنها بعض التجديديين والابداعيين رموا بالغموض واتهموا بالسقوط والضلال .

ولا نزال ، نحن العرب ، الى الآن نقذف بالتهمة نفسها كل صاحب تجربة شخصية ، مغايرة ومبدعة .

اما بالنسبة الى تمثل الحرب الثورية مثلا ، دون الاشتراك شخصياً فيها ،فهي تصور لحالات الآخرين وليست تصويرا لحالة الشاعر ذاته ، وهي التزام بموقف سياسي انساني او قومي اكثر منه تعبيرا عن تجربة ذاتية ،محض ذاتية ، فيأتي التعبير عنها ضمن نطاق الشخصية العامة ، لا الشخص في الشاعر . وبتعبير اوضح . انالتمثلحالة خارجية لنموذج جاهز ، يثير جوانب نفس الشاعر دون اعماقها . .

ثم ان التجربة ، بقدر ما يكون التعنبير عنها بعيدا عن الصحو العقلي والجدلية والتفسير ، بقدر ما تكون عميقة الغور في ذات الشاعر ، حتى لكأنها حالة مَرَضية لا يشفى منها صاحبها الا باكسير « الفن » والإفصاح عنها بالرمز البعيد والظلال والتهاويل العديدة من تشابيه وكنايات ورموز وكلمات موحية ومثيرة تبعث على التأمل والمشاركة . والشاعرالمبدع هوذلك الفنان الذي لا يفسر . . بل يستوحي ، ويؤثر ، ويثير ويحمّل المعاني والحقائق اكثر ممايحملها اياه العقل . وهو الذي يعيد

بنـاء العالم بتجـاوز واقعه العقـلاني الرتيب وصيـاغته صياغة جديدة ، وحمل الانسان على اشتهاء مثل هذه الصياغة بدلا من تقبل العالم ومشاهدته كما هو . وذلك لا يكون من الشاعر الا بالانفعال العميق بالعالمواشيائه واثارته من ركوده ونسقيته ورتـابته الى درجـةالاستفزاز والتحدي والانقلابية !

اراني بعدتُ عن الأعشى وعن عصر الأعشى . . فهو شاعر جاهلي نمطي ، صاحب تجربة عامة اكثر منها خاصة . وتجربته هذه لم تكن معاناة بقدر مـا كانت مباراةومباهاة بشرب الخمرة والتغني باوصافها ومجالسها في شعـره ، بحيث يقف معهـا ، اكثـــر من غيـره ، ويستغرق فيها مدة اطول ، ثم يغادرها الى غيرها من فنون الشعر وموضوعاته واشخاصه. واذا كان قد تخطى الحالة العامة معها فلأنه اتخذها غاية لا وسيلة . فاذا ما غـادرها في مـطالـع مـدائحـه فلكي يعـود اليهـا في اواخرها ، او في مدحية اخرى . .

فلا مغايرة في الشعر الجاهلي ، ولا ابداع ، الا في الشكل ، دون الجوهر ، وحين قست الحياة على صعاليك الجاهلية ، مثلا ، ثاروا وغايروا ، لكنهم في

الشعر ، في شكل الشعر ، ظلوا نمطيين تقليـديين . والأعشى رفض مثلهم وغـايـر وظـل مثلهم ، على السـطح . . واذا اعتبرنـاه مجددا ففي طـريقة كتـابـة القصيدة وانشادها : بدأهـا بنهج جـديد هـو التوطئـة للمديح بالخمرة بدل الغزل او كليهما معا ، ولم يكتف بانشادها باللسان بل على الصنج ، معلناً ولادة القصيدة العربية المغناة قلباً وقالباً . .

فاذا ما اعتبرنا هذا التجديد تجربة ، فاننا لا يمكن ان نعتبره معاناة . او تجربة نفسية خاصة . . ولن نحمل الأعشى ، في هذا المجال اكثر مما يحتمل . يكفيه انه كشاعر خمري كان اقـرب الشعراء الجـاهليين الينا ، اسلوبا وحضرية ، وروحا ، ولا ننسى معه عدي بن زيد وطرفة وامرء القيس وجزءاً هاما من عنترة .

نموذج اضافي :

اوردنا هذه الخمرية المقطوعة من قصيـدة يمدح فيها اياس بن قبيصة الطائي لأن فيهـا « تلاعبـاً » في النهـج الذي اتبعـه الاعشى ، وهو الـوصف الخمري الممزوج ، احياناًبالغزل ، تمهيداً للمدح ، او الفخر .

اما هنا فانه يبدأ بالمديح والحكمة الاعتيادية ، ثم بالخمرة ومجلسها والندامى مستغرقاً ، كعادته ، في وصفها وذكر مفاعيلها ، وكأنه خارج لتوه من الحانة . قال بعد مطلع المدح الذي استغرق ثلاثين بيتا :

وشَمولٍ تحسِب العين ، اذا
صفقت ، وردَتها نَوْرَ الذُّبَحْ [1]

مثلَ ذَكْي المسك ذاكٍ ريحُها
صبها الساقي ، اذا قيل تَوَحٌ [2]

ذاتِ غورٍ ما تبالي ، يومَها
غرف الابريق منها والقدح

واذا ما الراح فيها ازبدتْ
أفلَ الإزْبادُ فيها وامتصح [3]

واذا مكوكُها صادَمَه
جانباه ، كر فيها فسبح [4]

(١) النَّوْر : الزهر . الذُّبَح : نبتة تشبه الشقائق .
(٢) ذكا المسك : انتشرت رائحته . تَوَحُّ : أمر من توحى : أسرع .
(٣) أفل : ذهب . امتصح : ذهب . أراد أن هذه الخمرة غزيرة حتى إذا صب فيها الماء فازبدت ذهبت رغوتها .
(٤) المكوك: على قول أبي عمرو بن العلاء : إناء من فضة يشرب فيه .

فـتـرامَـت بـزجـاج مُـغْـمَـلٍ
يُخْلِفُ النـازحُ منهـا مـا نـزح[1]
واذا غـاضـتْ رفـعـنـآ زقّـنـا
طُلُقَ الاوداج فيهـا ، فـانسفـح[2]
ونـسـيـحُ سـيـلانَ صـوبِـهِ
وهــو تسياح من الـراح . مِسَح[3]
تـحسب الـزقَّ لـديهـا مُسْنَـدا
حبشيـا نـام عـمـدا فـانبـطح

ولـقـد اغـدو عـلى نـدمـانـهـا
وغـدا عندي عليهـا ، واصطبـح
ومـغـنٍ ، كـلمـا قـيـلِ لـه :
أسْمِـعِ الشَّـرْبَ ، تَـغنى فصـدح
وثـنـى الـكـفَّ عـلى ذي عَتَـبٍ
يصـل الصَـوْتَ بـذي زيـرٍ أبـح
في شبـاب كـمصـابيـح الـدجى
ظـاهـر النعـمـة فيهم ، والـفَـرَحَ

---

(١) النازح : الغارف منها الخمر .
(٢) طُلُقٌ الأوداج : أي محلول العُرى . انسفح : سال .
(٣) المِسَحَ : السائل . نسيحه نجعله يسيح يسيل .

رُجُـحُ الاحـلام في مجـلسهـم
كـلمـا كـلب مـن النـاس نـبـحِ
لا يـشحـون عـلى الشمـال ، ومـا
عُـوِّدوا في الحي تصـرارَ اللِقَـح[1]
فـتـرى الشَّـربَ تـسَـاويبُـطِحـوا
مثـلَ ما مُـدَّتْ نصاحـاتَ الـرُّبَـح[2]
بـيـن مـغـلوب تـليـلٍ خَـدُّه
وَخَـذولِ الرِّجْـلِ من غيـرِ كَسَـح[3]
ذاك دهـرٌ لأنـاسٍ قـد مَـضـوا
ولهـذا النـاسِ دهـرٌ قـد سَنَـح !

ثم يختمهـا بأبيـات فخريـة يتباهى فيهـا بمناقبـه واخلاقه . فهو ، كما يقول ، يمنح اعـداءه « كل مـا يَحسم من داء الكشح « او البغضاء . . فاذا باعـدائه ينظرون اليه شزرا ، مطأطئي الرؤوس كـالخنافس ! « قد

(١) اللقح ج لِقْحة : الناقة الحلوب . أراد أن هؤلاء الشبان ليسوا رعيان ليتعودوا صر النياق ، أوهم لا يصرون نياقهم بخلاً بألبانها . .
(٢) نصحات ج نصاح وهو الحبل : الرُّبَح : القردة . أراد أنهم مُصَرَّعون ممددون من السكر كالحبال .
(٣) تليل : صريع . خَذُولَ الرِّجْل : أي أن رجله لا تعينه في القيام وذلك من سكر ، لا من كَسَح أو عَرَج .

بنى اللؤم عليهم بيته » وهي صورة موفقة جاء في شكل كناية تجسيدية ، حين انسن اللؤم وجعله يبني على هؤلاء بيتاً لهوقبراً لهم . .

بدأ الاعشى خمريته وهذه لحظة تصورها « شمولاً » تتمايل حين تزبد وتفور ، كشقائق النعمان في لونها الاحمر الادكن وتخايلها المدل ، وكالمسك او قارورة الطيب يندلق عطرها حين تفتح وتسترهف الكؤوس بها ، فيدور بها الساقي او الساقية فور استدعائه او استدعائها . انها خمرة غالية الثمن لانها عتقت في دن دهري اسود وسيع ، يظل ممتلئاً مهما اغترفت منه الاباريق والاقداح . . وحين تقدم مُصَفقة بالماء تطغى على الماء فيذهب الزبد جُفاء ، واما ما ينفع الندامى فيمكث في الحلق والجوف والكيان .

ويكاد الاعشى لا يأتي على ذكر الخمرة الا ليذكر معها رفاق شرابه اولئك الندامى المترفين المتحضرين المتوهجين كمصابيح الدجى ،الراجحين عقولا ، المهذبين اخلاقا وأدب شراب ، المنفقين اموالهم عن سعة واريحية، لا يأبهون للوم لائم أو نباحه وهم ليسوا اجلافاً ولا رعياناً ليتعودوا صر اثداء نياقهم بخلاً بألبانها .

وينطلق المغني ، اثناء المعاقرة ، ضاربا على اوتار عوده ، وينتهي مهرجـان اللذة وعرام النشـوة بانبـطاح هؤلاء الكرام الميامين على ارض الحانة وكأنهم الحبال الممـدودة ، بعـد ان خـارت قـواهم ولم تسعفهم ارجلهم، لا عن كساح او شلل بل عن انتشاء ولذة وثَمَل . .

ذلك هو ديدن الاعشى ورفاقه ، او هكذا تصور نفسه معهم ومع الخمرة . وحين الح على ذلك فكأنه يصور لنا جانبا كبيرا من الحياة : تتاح اللذة ، في هذه الدنيا ، لأنـاسٍ فيغترفون منها ، ما استطاعـوا ، ثم يذهبون ، ثم يأتي غيرهم فيهتبلون مثلهم الفرصة اولا يهتبلون . . وهكذا تمر الحياة ويمر الأحيـاء الى أبد الآبدين ودهر الداهرين . .

ذلك هو السياق العام لهذه الخمرية ، وتلك هي معـانيهـا ومـلامحهـا ، ومنهـا نقف ، كمـا وقفنـا في الخمـريات السـابقـة على تـطور هـام لم نعهـده في خمريات من تقدموه ، اذا جاز لنا ان نسميها خمـرياتٍ متكاملة ، والحقيقة انها كانت شذرات مبعثرة مبثوثة في تضـاعيف المعلقات والقصـائـد . ولم تأخـذ الخمريـة سمتها وقوامها فتصبح جزءا هاما من القصيدة الجاهلية

الا على يدالاعشى الذي وان لم يجعل منها فناً مستقلا ، الا انه جعلها لوحة متكاملة الخطوط والتهاويل بين لوحات اخرى في القصيدة الواحدة . فوقف بامتياز بين لوحتين : اللوحة الجاهلية المشوشة المضطربة واللوحة العباسية المتكاملة . بل ان النواسي الكبير ما كان كبيرا ، ربما ، لولا هذا النواسي الجاهلي الصغير ! والفضل للمتقدم دائماً . . ولو فاقه المتأخر . .

ولا داعي ، هنا ، لتفحص كل بيت وكل صورة في هذه الخمرية ، فهي في كل جزئياتها وتفاصيلها نسخة طبق الاصل عن اية خمرية أعشوية ، لها نفس الصفات والسمات والنَفَس والنفسية . يضطرب فيها الاعشى ، كما هو دائماً ، بين ماديته الجاهلية وصوره الحسية الناجمة عن المشاهدات البصرية لا « البصائرية » اذا صح القول ، فلا يرقى الى التجريد والأنسنة . ولا الى التعليل والتحليل والاسهاب وان كانت له مطولات ، الا انها تبقى في نطاق المحدود والقصير نسبياً . . اطول مطولة عنده لا تتجاوز الستين او السبعين بيتا . .

فهذه مطولته او معلقته : ودع هريرة لا تتجاوز

الستة والستين بيتا ، والمعلقة الثانية ، التي مطلعها :

مــا بـكــاء الـكــبـيــر بــالاطــلال

وسـؤالـي ، فـهــل تــرد سـؤالـي ؟

لا تتعـدى الخمسة والسبعين . ونحن حين نقف عند العدد ، فليس ذلك ايمانـا منا بقيمـة الكثرة في الشعر ، بل لنفي اعتقاد البعض أن الاعشى كان اطولَ الشعراء نَفَسا . . كان فقط اطولهم نَفَسا مع الخمـرة والباقي هم يماثلونه بل يفوقونه . .

واذا توقفنا قليلا عند مطولته الاولى : ودع هريرة ، فلكي يبرهن ان هذاالتوقف ليس عبثآ اومضيعة للوقت ، بل ان فيها ما يستحق الوقوف عنده :

اولا : لأنها جامعة لشتى فنون الشعر الجاهلي في غزل وخمرة وذكر اسفار وتهديد وفخر ووصف مظاهر الطبيعة وغزارة معلومات تاريخية وجغرافية وملوك وابطال وحكمة . .

ثــانيــا: وضــوحهــا وانـسيــاب الــوصـف فيـهــا انسيابا ، وتدفق معاني الفخر والتهديد والخمرة تدفقا

« شلاشيليا » بات معروفا [1] وخلوها من وحشي الكلام وغريبه في كثير من ابياتها . حتى كأنها لشاعر اسلامي .

ثالثاً : تعمق فيها الاعشى في وصف حالات الحب فبدأ وكأنه عالم نفسي خبير بشوؤن المرأة ونفسيتها حين تحب وحين تكره وحين تترجح بين الحالتين . وهذا دليل على صفاء ذهن الشاعر ، ودقة احساسه ومعاناته الطويلة مع نوع من نساء الحانات كهريرة مثلا . فاذا ما وقف امامها واصفا او مناجيا او شاكيا وقف وقفة الخبير المجرب . .

رابعا : صراحته وصدقه وواقعيته . فلا نراه يتورع عن المصارحة بذكر حالته ، كما هي ، من عشا بصره ، وسوء حظه مع الدهر ومعها . مع أنه اهل للحب ، كما يقول :

أأن رأت رجلا اعشى اضرَّ به
ريب المنون ، ودهر مُفْنِدٌ خبِلُ

---

(١) انظر تحليلنا للمقطع الخمري الذي تضمنته هذه المعلقة . وقد ورد في فصل : خمريات الأعشى صفحة ٥٧ .

صـدت هـريـرة عنـا مـا تكلمنـا
جهلاً بأم خليد . حبلَ مَن تصل ؟![1]

اما عمق معرفته في نفسية المرأة وحالات الحب ، فقد اعطانا صورة رائعة وصحيحة في قوله :

عُلقتُهـا عَـرَضـا ، وعلقـتْ رجـلا
غيري ، وعلق اخرى غيرَها الرجلُ[2]

وعـلقـتـه فـتـاة مـا يـحـاولـهـا
ومن بني عمهـا ميتٌ بها ، وَهِـلُ[3]

---

(١) جهلاً .. استفهام انكاري تعجبي ، معناه : مَن تَصل إذا لم تصلنا؟!.
(٢) علقتها : احببتها . هذه العلائق بين المحبين ، ونزوات المحبوبات حيالها لا تزال شغل علماء النفس الشاغل وكبار الشعراء المسرحيين العالميين ككورني وراسين وشكسبير وأمثالهم الذين بنوا مسرحياتهم على هذه العقيدة : صراع عواطف المحبين وتقلبات أهواء المحبوبات للتفصيل أنظر : رائعة راسين « اندروماك » التي قمنا بترجمتها الى العربية ، والصادرة عن دار الكتاب اللبنانية ببيروت ١٩٧٣ ط ٢.
وخلاصة العقدة في هذه المسرحية : امرأة تحب رجلاً يحب سواها تحب سواه !
هرميون « بيربس » « اندروماك » هكطور (زوجها يقتل) .
تماماً كما يقول الأعشى!
(٣) الوهل: الذاهب العقل.

وعلقتني اخيـرى ، مـا تـلائمـني
فـاجتمع الحب ، حُبّا كلـه تَبـلُ[1]
فـكلنـا مـغـرم يهـذي بصـاحبـه
نـاءٍ ودانٍ ومـخبـولٌ ومُـخْـتَبَـلُ[2]

ووجه الروعـة والصحة في هـذه الأبيات ، انهـا صادرة عن شاعرجرب كل انواع الحب العملي . . كما يقول في مكان آخر:

واقـررت عـينـي مـن الـغـانـيـا
ت إمـا نكـاحاً، وإما أُزَنّ! (من الزنى)

وكما تقول سيرته التي بدأها عشقاً ، ومعاقـرة ، وزِنىً وفجـورا ! شيمة سلفـه امرىء القيس ! وانتهى العمر ذكريات ، ولا توبـة ، وآهـات، ولا معـاقرة ، وثمانين ، ولا إسلام ! . . . فـلا عجب ان يصور لنـا حالات المرأة ، مُحبـةً ومَحْبوبـةً ، على هذا الشكـل الرائع والصحيح الذي لا يزال ، على مدى العصور ،

---

(١) تبل : كأنه أصيب بتَبْل : من تَبَلَه : ذهب بعقله .
(٢) روى أبو عبيدة الشطرَ الأول هكذا : « وكلنا هائم في أثر صاحبه » . مخبول ومختبل : مغرم . هائم . وفي رواية الأصمعي وثعلب : محبول ومحبل من الحبالة : أي كلنا موثق الروائع ٣١ ص ٢٧ .

يثبت صحته ومصداقيته ، وسيبقى كذلك، ما دام هناك امرأة ، على وجه الارض ، وما دام هناك جمال وحب وغَيرة واعجاب . .

ونزداد إعجاباً بأبياته هذه ، لأنه استطاع ان يصور ، بحدسه الصافي ، تلك العلائق المتشابكة ، بوضوح تام ، وتراتبية بارعة ، وهذا يعني تألق الحقيقة في اعماقه ، وترسبها في كيانه نتيجة ممارستها ، على أرض الواقع ، زماناً طويلا . . .

علقها عَرَضاً ، وعلقت رجلاً
غيري وعلق اخرى غيرها الرَّجُلُ

وتروع هذه الحقيقة مجنون ليلى فيهتف :

جننابليلى ، وهي جُنت بغيرنا
واخرى بنا مجنونة لا نريدها

ويأتي شاعر فرنسا المسرحي الشهير راسين Racine (١٦٣٩ - ١٦٩٩) فيجعل من تشابك هذه العلائق ووجود هذه الحقائق موضوع رائعته : اندروماك . . ثم يأتي سيغمون فرويد ، فيقف مذهولا امام روائع مسرحيات راسين ، وكورني وشكسبير ، التي تعالج هذه

العاطفة الخالدة في الانسان وتصارع الاهواء حولها ، بايات من الشعرالمسرحي الكلاسيكي . فراح ، وقد اوحت له الكثير ، يغوص على اعماق اسبابها ومسبباتها . . فيكون علم النفس . . ثم ينبثق عنه علم الجنس وبواعثه واغراضه وأمراضه . .

ولا إخال الاعشى ، اذا ما بعث حيا اليوم ، إلا مصعوقاً ، اذ لن يصدق انه استطاع ،. وهو الشاعر الجاهلي البسيط ، ان يعبر عن هذه الحقائق الانسانية الخالدة والمعقدة ، بأبيات رائعة ، هي هذه التي بين ايدينا ، دون إعمال فكر . . بل دون ان يشعر . . ! مرة اخرى تبرز عظمة التلقائية احيانا ، وروعة العفوية ، وصفاء الحدس !

غزله :

قليلات هي المقطوعات ، بَلْهَ الأبيات ، التي نحس فيها انه عاشق فعلا ، متيم بصدق . كل غزلياته مصطنعة داخلة في خمرياته ممزوجة بها مُشَكلة معها مدخلا الى المدح ، لا اكثر . اما المواقف التي ترجمها غزلا ، وحالات العشق او الحب الصحيح التي تحدث عنها فتكاد تكون معدومة . كل ما نقف عليه ، في

غزله ، انه كان شابا فاجراً يتحدى المرأة ـ المعشوقة ، وهي من تلك الطبقة المعروفة التي لم يكن يهمها حب الأعشى وامثاله . عنيت بها طبقة الإماء وبنات الهوى والحانات . . . ها هو يقابل تحدي هريرة [1] ومثيلاتها بتحدٍّ آخر ، يغطي فيه « عشا بصره » بجواب تبريري واضح . يقول :

ودعي الذكرَ مِن عشائي ، فما يد
ريكَ ما قوتي وما تصريفي !

مثل هذه « الهرة الصغيرة » لا ترى في الشاب الا جمالَ وجهه وعينيه وقوامه ولمته السوداء بصرف النظر عن قواه الأخرى . . لذا فهو يتحداهابما تفهم وبما يهمها من القوى المادية : كقوة الفتك والممارسة . . دون ان يذكر لها ما هو عليه من النشاط الفكري والشاعرية والشهرة . . فلن يهمها ذلك في شيء !

اما اللواتيّ شبب بهن في مطالع قصائده ، فكثيرات . ولم يثبت انهن ، او بعضهن ، كن زوجاته

---

(١) هريرة : وتكنى أم خليد . هي قينة كانت لبشر بر عمرو بن مَرْثَد ، أو لأخيه حسان .

او معشـوقاتـه . . كهـريـرة ، هـنده ، وليلى ، وقَتْلة ، وقُتيلة ، وتيا ، ومَهْدَدْ ، وعلوية ، وسعاد ، وسعدى ، ومى ، وميثاء ، وسمية ، وزينب . . . حتى ليكاد يذكر في كل قصيدة وكل مطلع اسماً جديداً لمعشوقة وهمية جديدة . . . وقد يذكر في القصيدة الواحدة اكثـر من اسم ، او ما كان يسمى عـروس الشعر : فتارة هي سعاد ، فاذا بها ، في البيت الثاني سعدى ! الا اذا كان هذا من قبيل التحبب لسعاد التي تصبح سعدى ! وتارة هي هند فاذا هي سلمى ! ومهما يكن ، فان الاعشى ، كان قادرا في غزلياته ، ان يوهمنا ، بأنه ذلك العاشق المدنف . والشاعر المتيم . . لا لشيء . الا لأنه كان قادراً وبارعـاً في معرفـة صفات المـرأة ، وخصائص انوثتها . . متمكنا من انتقاء المفردات اللغوية النادرة ، واضفائها على عروس شعره ، وعلى ذلـك النوع من الحسنـاوات، حتى لتبدو كـل واحدة منهن وكـأنها عشيقته الوحيدة التي عانى منها وعانت منه . . .

الا ان براعته تلك محصورة في الوصف الخارجي والمادي للمرأة ، وذلـك النوع من نسـاء الحوانيت ، كالساقية والقينة ، اللواتي لا يخلصن عادة ، للعشير او النديم ، فهن يتنقلن ، مثله ، من نديم الى نديم ، ومن

عشير الى عشير . .

كما سنرى ان الغزل عنده لن يخرج عن كونه توطئة او تخلصا الى المدح ، تماما كالخمرة . جرى فيه على سنن الاقدمين ، فلا نطمع بجديد عنده او ابداع ، اللهم الا بعض المفردات والصور التي عرفت له دون غيره ، وتلك البراعة الاعشوية في رسم قوام عروس شعره المتخيلة ،ونحت تمثال رائع لمعشوقاته الموهومات ، يكاد يلمس باليد لبروز نتوءاته ، ووضوح تفاصيله . حتى كأنه ذلك البارناسي [1] الذي يفرغ كل

---

(١) البرناسية (أو مذهب الفن للفن) : هي نوع من العودة إلى الكلاسيكية ، بعد طغيان الرومنسية في أوروبا . فقد أعلن البارناسيون أن الفن ليس تقبلاً وتلقائية ، وليس انسياقاً وراء المشاعر والانفعالات الخاصة . وقالوا ، إن الفن هو ند العلم في تقصي الحقائق الثابتة ، وهو ليس نزوة . ان البارناسية استعادة للعقل ومنع للانفعال من التسلط والهوس . . الخ . اما الكلمة فمشتقة من اسم جبل يدعى «Parnasse بارناس» اتخذ ، اسطورياً ، قصراً للشعراء البارناسيين وملهماً لهم ، على غرار وادي «عبقر» في جاهلية العرب . وهو واد يسكنه الجن ، كما تخيلوا ، الذين يوحون للشعراء بما يقولون . (انظر : موسوعة لاروس الفرنسية ج ٨ ص ١٩٩ مادة بارناس) والبارناسيون جماعة من الأدباء والشعراء الفرنسيين (٤٠ شاعراً) قاموا ، ابتداء من سنة ١٨٦٠ بنشر قصائدهم في مجلة : البرناسي المعاصر Le Parnasse Contemporain ــ للتوسع أنظر كتاب : المذاهب الأدبية الكبرى في =

فنه في منحوتته ، حتى يستخرج لنا ، في قصائده ، تماثيل ، تماثيل للطبيعة البكر . وتهاويل ، تهاويل لأمواج البحر وسهول البر وسهوبه العذراء . . دون ان يرف ، لذلك البارناسي ، جفن ، او يتحرك له وجدان ! سوى اتساع الحدقة ، وسوى الريشة والدهن ، والكلمة ـ المفتاح . .

منحوتة غزلية اعشوية :

قال في مطلع معلقته ، يصف هريرة :

غراء ، فرعاء ، مصقولٌ عوارضها
تمشي الهوينا، كما يمشي الوَجي[1] الوَحِلُ

كأن مشيتها من بيت جارتها
مَرُّ السحابة ، لا ريثٌ ، ولاَ عَجَلُ

= فرنسا ترجمة فريد انطونيوس ص ٢٦٠ ط ١ ـ ١٩٦٧ دار عويدات للنشر .

(١) غراء : بيضاء ، واسعة الجبين : فرعاء : طويلة الفرع : شعر الرأس . العوارض : الأسنان التي بعد الثنايا أي الرباعيات والأنياب . الوجي : الدابة التي تشتكي حافرَها ، الذي آلمته قدماه من المشي حافياً . الوَحِلُ : الواقع في الوحل .

تَسْمَعُ للحلي وسواساً ، اذا انصرفت
كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[1]
يكاد يصرعها ، لولا تشددُها
اذا تقوم الى جاراتها ، الكَسَلُ
اذا تقوم يضوع المسك اصورةً
والزنبق الورد من اردانها شَمِلُ[2]
ما روضة من رياض الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ
خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكب شَرِقٌ
مؤزرٌ بنعيم النبت ، مُكْتَهِلِ[3]
يوما ، بأطيبَ منها نَشْرَ رائحة
ولا بأحسن منها ، اذ دنا الأصلُ

التمثال ، هنا ، منحوت من عَصَب ودم وحياة . والتماثيل البرناسية منحوتة من عصب الطبيعة البكر ،

---

(١) الوسواس : الصوت . العشرق كما يعرفه الأصمعي : شجيرة مقدار ذراع لها اكمام فيها حب صغار اذا جفت فمرتْ بها الريح ، تحرك الحب . شبه صوتُ الحلي بخشخشة على الحصى . .

(٢) أصورة : جمع صوار وهي الرائحة الطيبة . شِمل : شامل .

(٣) الكوكب : النبات المستطيل . الشرِّق : الريان . مؤزر : لابس الإزار (الروائع رقم ٣١ ص ٢٦) .

ودمها الكامن في اشجـارها كمـون الحياة في عصب هريرة ! كما ان النحت واحد ، والوقفة ، امام التمثال ، واحدة ! والفارق هو الزمن وما بين الوعي البـارناسي والـلاوعي الاعشوي ! هـا هي‌هريـرة « تتبرنس » عنـد الاعشى في صورة المشبه بـه‌التمثيلي الذي استغـرق ثلاثة أبيات هي :

ما روضة من رياض الحَزْن معشبةً . . . حتى :
يوما بأطيب منها نشرُ رائحةٍ . . .

فاذا بالطبيعة تشـارك في اكمال نحت الصـورة ، واعتدال التمثال !

وليس من التمحل في شيء نسبة مثل هذه الصورة التي نحتهـا الاعشى لمعشـوقتـه ، الى البـرنـاسيـة الجـاهلية ، اي الى المـدرسـة الاوسيـة التي تعتمـد التصـوير المـادي للمشـاهـدات البصـريـة والتعمق او التمادي في جزئياتها بواسطة التشبيه‌التمثيلي الاستغراقي الـذي كثر عنـد النابغـة واوس بن حجر والاعشى ثم الأخطل وأمثالهم . . ذلك لأن الشاعـر الجاهـلي كان دقيق اللحظ والملاحظة ، فلا يرتفع فوق الارض في تصوره وتصويره . ويبقى لاصقاً بالمشهد لايـدعـه حتى يأتي

على تفاصيله دون ان ينفعل كثيرا به خاصة عند الاوسيين . والاعشى هنا ، في وصفه الخارجي والدقيق لهرته الصغيرة ، يبدو اوسيا او برناسيا واضحا .

وتكاد منحوتاته البشرية تتشابه وتتوحد ، صفاتٍ ، وسماتٍ ، لتوحد الخيال الذيِ صدرت عنه والشاعر الذي توهمها . صحيح ان معشوقاته متعددات الاسماء ، كما رأينا ،لكنهن ، في الحقيقة ، واحدة . فنحن اذن امام تمثال واحد باسماء متعددة .

هذه سعاد بعد هريرة تحمل نفس السمات ، وتجسد نفس الصفات او تكاد :

بانت سعاد وأمسى حبلها رابا
واحدث النأي لي شوقا وأوصابا

واجمعت صرمنا سعدى وهجرتنا
لما رأت ان رأسي اليوم قد شابا

ايام تجلولنا عن بارد رتل
تخال نكهتها بالليل سيابا

وجيد مغزلةٍ تقرو نواجذها
من يانع المُرْدِ ، ما احلولى وما طابا

وعـين وحـشيــة اغـفـت فـارقـهـا
صـوت الـذئاب فـاوفت نحـوه دابـا
هـركولـة مثل دعص الـرمـل اسفلهـا
مكسـوة من جمـال الحسن جلبـابا

تُميـل جثـلاً على المتنين ذا خصـل
يحبـو مـواشـطه مسكـا وتـطيـابـا

رعبــويـة ، فُنُقٌ ، خمصــانـة ، ردح
قد أُشْرِبَت مثل ماء الدر اشرابا الخ

فالاعشى يحمل في جعبته اللغوية الواسعة العديد من المفـردات والصفات ، المعتـاص منهـاوالسهـل ، يوزعه على « عرائس شعره » يمينا وشمالا ، فلا يدعهن الا وقد اكتملت صورتهن في ذهنه وتحت ريشته . . وهي صورة معروفة للمرأة الجـاهلية ، لم يـأت فيها الاعشى بجديد . . اللهم الا تلك المفـردات الغزيرة المنتزعة من القاموس الاعشوي الخاص والتي تدل على تمكن الاعشى من لغته الجاهلية البدوية والحضرية على السواء . فهريرة عنده وليلى وسعاد وقيا ومهدد، لسن سوى نسخة مكررة عن فاطمة سلفهامرىء القيس ، او عبلة عنترة، واسماء الحـارث ومثيـلاتهن من معشـوقـات

شعراء الجاهلية او عرائس شعرهم .. الفارق ، فقط ، في الاسماء وبعض التفاصيل والسمات.

اما الوجد واللوعة والحرقة وتوهج الصبابة فقلما رأينا الاعشى يهتم بأظهارها في شعره . ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، الا اذا كان قادراً على توهم حالات الغرام ومن ثم تصويرها ووصفها على انها العشق والغرام ، وقطع الكيان تذوب وجداً وصبابة كما في القصيدة التالية :

نام الخلي ، وبت الليلَ مرتفقا
ارعى النجومَ عميداً مثبتاً ارقا

اسهو لهمي ودائي ، فهي تُسْهِرني
بانت بقلبي ، وامسى عندها غلِقا

يا ليتها وجدت بي ما وجدَتُ بها
وكان حب ووجددامَ ، فاتفقا

لا شيءَ ينفعني من دون رؤيتها
هل يشتفي وامق ما لم يُصِب رهقا

صادتَ فؤادي بعيَني مُغْزلٍ خذلت
ترعى أغَنَّ غضيضاً طرفُه خَرِقا

وبــاردٍ رَتِــلٍ ، عــذبٍ مــذاقــتــه
كأنما عُــلَّ بـالكــافـور ، واغتبقـا
وجيــدأ دمـاء لم تُــذعَـر فــرائصهـا
تـرعى الاراك تعاطى المردَ والورقـا
وكَفَــلٍ كـالنغـا ، مـالت جــوانبــه
ليست من الزُّلِ اوراكا ومـا انتطقـا[1]
كـأنهـا درة زهــراء ، اخــرجَـهـا
غـواص دارين يخشى دونهـا الغـرقـا
قـد رامهـا حججـا مـذ طَـرَّ شـاربـه
حتى تسعسـع يرجـوها وقـد خفقا[2]
لا النفس تؤنســه منهـا فيـتركهـا
وقد رأى الرغبَ رأي العين واحتـرقا
ومــارد من غُـواةِ الجن يحــرسهـا
ذو نيقــة ، مستعـد دونهــا ، تـرقـا
ليست لــه غفلة عنهـا يـطيف بهـا
يخشى عليها سُرى السارين ، والسَّرَقا
مَن نـالهـا نـالَ خُلْدا لا انقطاع لـه
ومـا تمنى ، فـاضمن نـاعمآ أنِقـا

(١) ليست من الزل اوراكا : ليست خفيفة الوركين .
(٢) تسعسع : هرم وشاخ .

تلك التي كلفتك النفس تَـأْمَلُهـــــا
وما تعلقت الا الحَيْنَ والحَـرَقـا

لكن هذه الصبابات والمواجد قلما يقف عندها شاعرنا لأنها ليست صادرة من اعماقه ولا من معاناته ، وسرعان ما يعود الى ازميله وريشته ينحت ويلون باصباغ وتهاويل مأخوذة من حُق واحد وقارورة واحدة . اليك هذا التمثال الكامل لقوام قُتَيلة احدى معشوقاته ، او عرائس شعره :

صحا القلب من ذكرى قُتَيلة بعدما
يكـون لها مثـلَ الأسير المُكَبـلِ

لهـا قَـدَم ريـا ، سبـاطٌ بنـاتهـا
قـد اعتـدلت في حسن خَلْق مبتـلِ

وسـاقـان مـار اللحم مـوراً عليهمـا
الى منتهى خلخـالها المتصلصـلِ

اذا التمستْ أرْبيتـاهـا تـسـانـدت
لها الكف في رابٍ من الخلقِ مُفْضِلِ

الى هـدف فيـه ارتفـاع تـرى لـه
من الحسنِ ظلا فوق خَلْقٍ مُكَمـلِ

اذا انبطحت جافى عن الارض جنبها
وخَوَّى بها راب كهاسَةِ جُنَّبُلِ[1]
اذا ما علاها فارس مُتبذل
فنعمَ فراشُ الفارس المَتَبذلِ
ينوء بها بوص ، اذا ما تفضلت
توعب عرضَ الشرعبي المُغَيَّلِ[2]
روادفه تثني الرداء تساندتْ
الى مثل دِعْصِ الرملةِ المُتَهَيَّلِ
نيافٌ كغصن البانِ ترتج ان مَشَت
دبيبَ قطا البطحاء في كل مَنْهَلِ
وثديان كالرمانتين ، وجيدها
كجيد غزالٍ غيرَ أنْ لم يُعَطَّلِ
وتضحك من غر الثنايا كأنه
ذرى اقحوانٍ نبتُه لم يُغَلَّلِ
تلألؤها مثل اللجين ، كأنما
ترى مقلتي رئمٍ ، ولو لم تكَحَّلِ

---

(١) جنبل : قَدَح .
(٢) بوص : ردف . الشرعبي المغيل : الثوب الواسع الفضفاض .

سجوين برجاوَين في حسن حاجب

وخد اسيلٍ واضح متهلل[1]

لها كبد ملساء ذاتُ أسِرَّةٍ

ونحر كفاتورِ الصريف الممثل[2]

يجول وشاحاها على اخمصيهما

اذا انفتلت جالا عليها بجلجلِ

فقد كملت حسناً فلا شيءَ فوقها

وإني لذو قولٍ بها متنخَّل

. . . اذا لبست «شيدارة» ثم ابرقت

بمعصمها، والشمس لما ترَجَّلَ[3]

وألوت بكف في سوار يزينها

بنان كهراب الدمقس المفتّل

رأيتَ الكريمَ ذا الجلالة رانياً

وقد طار لب المستحف المُعَدَّل

وقديما عَبَدَ اليونان آلهة الجمال فينيس، والفينيقيون عشتروت. . فلا أقل من أن يسجد ذلك «الكريم ذو الجلالة» امام تمثال عشتروت الأعشى، ويطير لبه وقلبه! وهنا التمايز بين النحت التعبيري وبين النحت الايحائي!.

---

(١) سجوان: من سجا يسجو سكن. برجاوان: واسعتان على صفا.

(٢) فاثور الصريف: خوان الفضة.

(٣) شيدارة: غطاء للرأس كالموشح أو الوشاح.

هجائيات الاعشى :

يبدو من هجائيات شاعرنا انه كان يحمل روحا هجائية وَسَطاً ، فيشتم ويلعن ، الا انه يَظَل خفيف الوطأة ، لا يصل الى درجة الفحش والاقذاع . . كتأبط شر مثلا، أو الحطيئة . . وهجاؤه، ان صحت نسبته، او لم تصح ، يتناول القبيلة ، قال يهجو بني قميئة بن سعد بن مالك :

ان بنيِ قميئةَ بن سعدِ
كلهمُ لِمُلْصَقٍ وعبدِ
ادنى لَشرٍ من كلابٍ عُقْدِ
وهم اذل من كلابٍ عُقْدِ
يُغْزَون بين وَبَرٍ وَقَدّ
عِبْدانُ بين عاجزٍ وَوَغْدِ
إنْ يبصروا قبراً حديثَ العَهْدِ
ينبشوا فيه اختفار الخُلْدِ
إنْقِرْ فقد بلغت قعرَ اللحد
وهامةً وَشِقةً مِن بُرْدِ

اذا صحت نسبة مثل هـذاالهجاء الاخـلاقي الى الاعشى يكـون قدتجـاوز حـد التهكم الى السخـريـة

اللاذعة حين جرد بني قميئة مما يفتخر به الجاهلي وهي السيادة ، فجعلهم اتباعاً ملصقين ، وعبيدا تابعين . . ثم نزع عنهم صفة الانسانية فجعلهم كلابا سائبة . . . بل اذل من الكلاب السائبة . . وعاد فوزعهم بين عَجَزة واوغاد . . « إن ابصروا قبرا حديث العهد » ينبشونه حتى يصلوا الى قعره فلا يجدون سوى عظام نخرة وقطع كفن بالية !

غير أني ارجح ان تكون هذه الارجوزة الهجائية من صنع اسلاميين ارادوا بمثل هذا الشعر المنحول ان يغذوا الصراع الذي قام « بين ربيعة واليمن على مضر »[1] بقصد النيل من مضر التي عَزَّت بالاسلام وعز بها الاسلام ، بعد ان عجزت ربيعة اليمن ، كما يقول طه حسين من مناهضة مضر بالاسلام وفيها النبوة والخلافة[2] .

وترى الاعشى ، اذا قسا ، يطعن في نسب مهجوه ، وانتمائه ، ومكانته الاجتماعية ، وقلما نهش

(١) انظر : في الأدب الجاهلي لطه حسين ص ٢٩٩ دار المعارف بمصر ١٩٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٩.

الأعراض وافحش ؛ كما فعل عندما هجا عمرو بن ثعلبة بن الحارث القضاعي . قال:

بنو الشهر الحرام، فلستَ منهم
ولستَ مِن الكرام بني العُبَيدِ

او حين هجا شيبان بن شهاب الجعدري . قال ، بعد التوطئة بالخمرة والغزل كعادته :

ولقد علمت لتكره
نُ الحربَ مِن إضْرٍ وغارة
ولسوف يحبك المفيد
ق فتعتصر اعتصاره
ولسوف تكلح للاسنـ
ـةِ كلحةً غيرَ افتراره

الى ان يقول :

ولقد علمتم حين ينـ
ـسَبُ كلُّ حي ذي غضاره
أنَّا وَرِثنا العز والْـ
ـمَجْدَ المؤثَّلَ ذا السرارة
وورثتُ دهماً دونكم
وارى حلومَكُمُ مُعارة

اذ انــتــم بــالــلــيــل سُــرًا
قٌ ، وصــبــحِ غَــدٍ ضُــراره

فانت لا ترى في هذا الهجاء خبثاً ولا قذارة . بل هـو اقرب الى الـذم والتجـريـح ، منـه الى الفحش والقذف ، يمازجه لون من الوان الفخر والاستعلاء على مهجوه وتعبيره مع قومه ، بالجبن في الحروب ، وقلة العقل ، والسرقة . . .

وقد يفاضل بين سيدين من اسياد القبائل ، فيهجو الاول ، حين لم يُجِرْه ، ويمدح الثاني حين اجاره ، حتى من المـوت . وهي حـادثـة زعمـوا انهـا وقعت للأعشى مع علقمة بن علاثة ، الذي لم يجره ، وعامر بن الطفيل الذي اجاره [١] قال يهجو علقمة ويمدح عامرا :

عـلقـمُ ، لا لـسـتُ الـى عـامـر
الـنـاقضِ الاوتَـارَ ، والـواتـرِ
ســدتُ بني الأحـوصِ لمَ تَعْـدُهم
وعـامـر ســاد بـنـي عـامـر
ســاد والـفــى قـومَـه ســادةً
وكــابــرا ســادوك عــن كــابــر

(١) تقدم تفصيل الحادثة في فصل سابق من هذا الكتاب .

يـا عجب الـدهـر، متى سُوِّيـا؟
كم ضـاحـك من ذا وَمِن سـاخـرِ
فـاقـن حيـاءً أنـتَ ضيَّـعتَـه
مـا لـكَ بعـد الشيب من عـاذر
عـلقـمُ لا تَـسفَـهْ ولا تـجعـلَنْ
عـرضَـك لـلوارد والـصـادر
الـخ

وهجا علقمةً هذا، بهجـاء مر، في مكان آخـر. قال:

أعلقمُ قـد حكمتني فـوجـدتني
بكم عـالماً على الحكـومة غـائصا
كـلا أبـويكم كـان فـرعـا دمـامـة
ولكنهم زادوا وأصبحـتُ نـاقصـا
تبيتـون في المشتى مـلاءً بطونكم
وجـاراتكم غـرثى يبتن خمـائصـا

لكنه سرعـآن ما يميل مع طبعـه إلى الدعـابة والتهكم. قال يهجو قوماً من وائل بن شرحبيل بن عمرو بن مرثد:

لا فَشَلٌ فيَّ ولا سِقاطُ
ليس أوانَ يُكْرَه الخِلاطُ
بنو شرحبيل سِوىً بساط
وعنهم ضُبيعَةُ المضراط..
صمحمح مُجَرب عَياط
ووائلٌ كأنه مُخاط[1]
يَزِلُّ عن جبهته الأمشاط

أو هذا الهجاء الضاحك الذي يساوي فيه بين الهاجي والمهجو.

قال يهجو عمرو بن المنذر بن عبدان:

أراني وعمراً بيننا دَق مَنْشِم
فلم يبقَ إلا أنْ أُجَنَّ ويكْلَبا..
كلانا يرأئي، انه غيرُ ظالم
فأعْزَبتُ حلمي، أو هو اليومَ أعْزَبا..

هذه الدعابة الضاحكة تنم عن روح مُجبة، غير

---

(١) صمحمح: شديد.

حاقدة، ولا شريرة، تصل به إلى درجة التهكم على نفسه، في صراحة مطلقة يصيب رذاذُها صديقه الأصم، كما يصيب ما هو فيه من عَشا. قال:

متى تقـرنْ أصمَّ بـحبـل أعشى
يَلُجَّـا في الـضـلالـة والخَسـار
فـلسـتُ بـمـبـصـرٍ شيئـاً يـراه
وليس بسـامـعٍ مـني حـواري..

وقد يشبه نفسه بالحمار. قال له صديقه قيس بن معد يكرب، بعد أن استمع إليه يمدحه في قصيدة دالية: إنك تسرق الشعر. فقال له الأعشى: قيدني في بيت حتى أقول لك شعرا. فحبسه وقيده، فقال:

أأزمعتَ مـن آل لـيـلى ابـتـكـارا
وشـطّت على ذي هـوى أن تُـزارا
وقـيـدني الـشـعـرُ فـي بـيـتِـه
كمـا قيـد الآسـراتُ الحِمـارا..

وما رأيك بشاعر يعترف بأن طلاقه لزوجته لم يكن بسبب تهديد أهلها له، بل بسبب تهديدها له بضربه على رأسه! اسمعه يصارحها ويصارحنا:

وبيني فـإن البينَ خيـرٌ من العصــا
وألا تــزالَ فــوق رأسيَ بــارقــة!

ومنهم من روى البيت معكوساً:

وَبِيني فـإن البينَ خيـرٌ من العَصــا
وألَّا تــزالَ فوق رأســكِ بــارقــة

ولكن المعنى الأول أصح لتتم المفارقة، ويصبح الـطلاق مبـرراً من قبـل الـزوج المخـدوع والمهـدد بالضرب. وتأمل روحَ الدعابة في قوله:

وذوقـي فتـى قــوم، فــإني ذائـقٌ
فتــاةَ أُناسٍ مثـلَ مـا أنتِ ذائقـة!!

كم يصبح الطلاق مثيراً للضحك والسخرية حين يخرج عن شرعيته وجديته وغايته، إلى غايات أخرى: ليذوق غيرَها وتذوقَ غيرَه!!!

وهكذا يمضي الأعشى في عبثه وتهتكه ومجونه وظله الخفيف سادرا ومغايراً وسائرا في الزمن! ذلك لأنه قـادر على اضحاكنـا. ومن كان كـذلك يحق لـه أن يعتبـر من «أطباء الإنسـانية» على حـد قـول مـولييـر

الفرنسي . وفن الإضحاك فن صعب ، في حين ان فن الإبكاء فن سهل ، لأن كل ما حولنا وما فينا يثير البكاء والشفقة ، في نفوس كبار المفكرين والشعراء ، حتى ولو كانوا في صميم النعيم . ألم يقل المتنبي :

ذو العقــل يشقى في النعيم بـعقـله
واخـو الجهالـة في الشقـاوة ينعمُ !؟

فاذا جاء شاعر وابكانا ، في رثـائية ، او مسرحية يكـون قد جسـد لنا مـأساة ليست غـريبة عنـا، مـأسـاة يعيشها كل يوم .. كلمـا تأملنا في وجودنا : مبدئـه ومنتهاه ، وفي عبثية هذا الوجـود .. اما اذا استـطاع شاعر او اديب ان ينتشلنا من خضم كآبتنا وسويداء احزاننا بالبسمة ينتزعها من اعماقنا ، والضـحكــة من صميم قلوبنا ، يكون قد غير المقاييس وقلب الحقائق المـرة للأشيـاء ، وأنسانـا ، ولو الى هنيهـات ، همنا المقيم ، وشقـاءنا الـدائم .. وسبيله دائما الينـا هـو الملهاة وقوامها التهكم (اي عنصر الإضحاك السـاخر) الذي « يأخذ على عاتقه تحريـر الانسان من سيـطرة الآراء السائدة والافكار المتعارف عليها ، كما ينتشـل الذات من ضياعهـا وسط الجموع وطغيـان المألـوف

والمعتاد . . . » [1] .

ان الدور الايجابي للتهكم هو ان يعيد الفرد من جديد الى نفسه ، وان يخلق فيه اهتماماً بوجوده الأخلاقي ، فلا يمكن ان تكون حياة بشرية اصيلة بدون التهكم [2] .

ولسنا هنا لنقول ان الاعشى هو ذلك الفيلسوف الصغيرالمتهكم الساخر . . فذلك تمحل وافتراء لا نريده لأنفسنا ولا للأعشى . . ولكنه استطراد ساقتنا اليه فكرة التهكم تعميما للفائدة ، وليس اكمالاً للبحث في خصائص الشاعر الهجائية . علماً بأن للتهكم بعداً فلسفياً يتمحور حول الذات والأنا ، والحرية ، والزمن ، يجدر بالقارىء ان يعود اليه في مظانه من المراجع والابحاث الفلسفية الخاصة بفلسفة الضحك [3] او التهكم [4] وما شابهها .

---

(١) للتفصيل انظر كتاب : مفهوم التهكم عند كيركجور ـ الرسالة التاسعة عشرة ـ الحولية الرابعة ـ عن جامعة الكويت ١٩٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤ وخاصة صفحة ٢٥ .

(٣) انظر كتاب فلسفة الضحك La Philosophie du rire برغسون .

(٤) مفهوم التهكم Concept of irony عند كيركجور .
ترجمة الدكتور عبد الفتاح إمام الرسالة التاسعة عشرة ـ جامعة الكويت ـ ١٩٨٣ .

رفيقة سفره :

كانوا ثالوثا متلازما : الأعشى والناقة والخمرة ، وما عداهم كان وسيلة لإغنائهم وراحتهم .. وقد وفى الأعشى نَفْسَه حقها من المتعة والتعهر. كما وفاها قسطها من التفاخر والاستقواء بقومه من بكر وتغلب ، ولم يَنْسَ رفيقةَ سفره ، بل رفيقة عمره الـجَـوَّال :

ناقته ! تلك التي امضى معها ، وعليها ، اكثر مما امضى مع زوجته او زوجاته ! فوفاها حقها وخَلَّدها في شعره بما اسبغ عليها من نعوت وصفات واسماء فتارة هي : شِمِلَّةٌ حِـرْفٌ ، من فصيلة النحائص الجدد المكتنزة . او :

صـعلة بـالـقـارتيـن تـروحـتْ
ربـداءَ تتبـعُ الـظليمَ الأربـدا [1]

او : طليحٌ ، جَسْرةٌ ، سُرُح [2] عسير ، أدماء ، حادرة العين ، خنوف ، عيرانةٌ ، شِمْـلال [3] كقنطرة

(١) الظليم : ولد الناقة .
(٢) طليح ، جرة : سُرُح : ناقة ضخمة قوية.
(٣) خنوف شملال ، عيرانة : نشيطة ، سريعة ، تشبه العير. الإرقال : نوع من السير .

الرومي تغري الهجيرُ بالإرقال ، عرندسة ، عنتريس ! :

تقطع الأمعزالمكوكبَ وَخْدا
بنواجٍ سريعةِ الايغالِ
عنتريس ، تعدو اذا مسها السو
طُ ، كعدو المصلصل الجوال[1]

وتارة يُذَكّرُها بعد تأنيثها ، فاذا هي : شجاع الجنان ، يحتفر الظلماء ! تأملْ هذه الصورة الرائعة : يحتفر الظلماء فكأن هذا الجَمَل حفار صخر لا مدلج في ليل .. يشق الظلماء شقاً ..

بشجاع الجَنانِ ، يحتفر الظل
ماءَ ، ماض على البلاد خَشوفِ[2]
مستقل بالرِّدْفِ ما يجعل الجر
رةَ بعد الإدلاجِ غيرَ الصريف[3]
ثم يضحي من فوره ذاهباب ٍ
يستطير الحصى بخف كثيف ..

ومرة هي تلك الناقة المهزولة لكثرة السفر :

---

(١) عنتريس: قوية الأركان ، ملتهبة نشاطاً .
(٢) خشوف : مدلج في الليل .
(٣) صريف الأسنان : صكها من شدة الخوف أو الجوع

طليحٌ ، رذيةٌ ، قداعياها التجوال وشدالكور على متنها ، او هي كأتان الثميل [1] :

جـمـالـيـة تـغـتـلي بـالـرداف
اذا كَـذَّبَ الاثـمـاتُ الهـجيـرا [2]

ومرة اخرى هي : عفرناة [3] ، حرجوج [4] ترى لها فخـذين تتحفزان ، وصليبـاً كبنيـان الصفـا متـلاحكـاً متماسكا :

وزورا تـرى فـي مـرفقيه تـجـانفـا
نبيـلاً كبيت الصيـدلاني دامكـا [5]
وراسـاً دقيق الخـطم صلبا مـذكـرا
ودأيـاً كـأعنـاقِ الضبـاع وحـاركـا

وهي قبل وبعد كل شيء الرفيق الملازم والمركب الأمين ، والصاحب الأدنى » :

---

(١) الاتـان ، أصلاً ، انثى الحمـار ، وهنا بمعنى الصخـرة القائمـة في الماء . والثميل هو الماء الغزير .
(٢) الأثمات : النوق الهزيلة .
(٣) هي أصلاً : الغول . وقد قصد بها الشدة هنا ، لوصف ذات اللون وهي الناقة ، القوية .
(٤) حرجوج : ناقة بيضاء طويلة .
(٥) دامكا : كثيفاً سميكاً .

هي الصـــاحب الادنى وبيني وبينهـــا
مجـــوف عـــلاني ، وقـــطع ونمـــرق
وتصبـح من غِب السـري ، وكـأنمـا
ألم بهـــا مـن طـــائف الـجن أولـق

واليك هذه الصورة الموفقة لناقته الناجية « من سَراةِ الهجـان » حين تـدخـل فُجاجَ الارض « فتغتـالـه » اغتيالا .. بدل ان يقول : تقطعه بسرعة فائقة ، وهذا تجسيد وانسنة حضارية ، شك معها طه حسين ، ومع أمثالها ، في ان تكون مثل هذه الصـور التجريدية وتلك القصائد الوصفية ، للأعشى الجاهلي البدوي الخشن الكلام المادي التشبيه والتصوير .. اما نحن فنقول : ان تماثل الصور والتشابيه والأسماء في وصف الناقة او الجَمَل شيء موجود في كل قصيدة من قصائده التي تعرض فيها لوصف الناقة ، وقوتها وسرعتها ولونهـا . وذلك المزج بين وصف الخمرة والمرأة والناقة توطئة للمدح ، أمرٌ يكاد يكون خاصاً بالأعشى وهو ما سماه صاحب الروائع « بالمنهج الأدبي الذي سار عليه الشاعر دون دافع حاضر او ذكرى مخصوصة [١] فتكون النتيجة

(١) الروائع رقم ٣١ ص ٥٦ .

غير ,ما ادعى طه حسين ويكون النحل في غير هـذا إلباب . . اما التجسيد والتجريـد والأنسنة ، وهي من خصائص الشاعر شبه المتحضر ، فشيء نادر جداً في شعـــر الاعشى المـاديالحسي ، الجـاهلي الصـــورة والتصور . . ولكنه موجود . .

مدائحه ومفاخره :

ستضرب صفحاً عن ذكر مدحياته وفخرياته . . لا لأنها لا تستحق الوقوف عندها ، سيما وهي تشغل في ديوانه حيزا كبيرا ، وفي وجدانه مقاما مماثلا . لكننا ، كنـا وسنبقى ، نحترم ، في دراسـاتنـا هـذه النهـج ، الانتقائي ، لا التاريخي : التحليلي لا السردي ، فما نراه جديرا بالنقـد والتذوق والإحيـاء ، وقفنا عنـده ، وحللنـاه ، واحيينـاه . ومـا لم . رفضنـاه واهملنـاه . . وإلاّ ، فَلْيُـطْلَبْ اعشى التاريـخ ، والسيرة المفصلة ، والانتاج الكامل عند غيرنا . . أمـا اذا طلب القارىء الـطُّلَعَـةُ اعشى جـديـدا ، شـاعـراً فـريـدا ، في اهم خصائصه ، لا في كلها ، فها هو بين يديه ، قدر ما سمح به الجهد ، وأملاه الذوق ، واكتشفته الخبرة .

رأيه في الحياة والأحياء :

ليس الأعشى فيلسوفا كأبي العلاء ، ولا متفلسفاً كأبي الطيب ، حتى ولا مهتما بشأن الحياة وما وراء الحياة اهتمام بعض شعراء عصره كزهير وطرفة وعدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت . كل ما في الأمر ، ان له نتفاً من جوامع كلِم ، وشيئا من نظرات تائهة ، في الله وفي الوجود ، لا يجمعها نهج ولا يحدوها قصد . اقتبسها ، فيما اقتبس ، من نصارى الحيرة واليمن ، نراها مضغوطة في بيت أو أبيات ، سماها الاقدمون حكمة ، ونسميها نحن رأيا وموقفا ، وهما عند شاعرنا غير ثابتين . . واذا كان لهما من قيمة فنية فلأنهما حصيلة ملاحظة خاصة ، او تجربة مع الآخرين . وقد يأتيان نتيجة « تجربة عقلية » انفعل فيها الشاعربمعانيه انفعالا شديدا ، شيمةالمتنبي مثلا . . فصاغها صياغة الحكمة . او ربما انبثقا عن تجربة شعورية ذاتية ، استطاع الشاعر ، في لحظة تجلٍ ان يصوغهما كحكمة او رأي ، او موقف ، دون قصد منه او صناعة . . واسوأ الحِكَم ، في الشعر العربي الكلاسيكي ، هي تلك المعاني والآراء المتداولة بين الناس والتي « ينظمها »

شاعر ما ، دون ان ينفعل بها ، او يبدعها . كارجوزة ابي العتاهية، على ما في بعض ابياتهـا من لمحات تأملية حارة . واسوأ منها لامية ابن الوردي ، وشبيهات لها كثيرات زخـرت بهاعصـور الانحطاط حين انقلب الشعـر العربي عفـوا النظم احـاجي وطلاسموتعـاويـذ ومواعظ . . كما انقلب مبـاخِرَ على اقـدام السلاطين والمماليك !

وحِكمُ الأعشى اين موقفها من كل هذا ؟

لا شك ان حكم شاعرنا ، وهي جد قليلة ، قد نبتت كـالفطر ، من خـلال الـوصف او المـدح ، او الهجاء ، هكذا عفو الخاطر ، لم يقصد اليها اطلاقا ، بل اتت نتيجة وضوح رؤ يا حينا ، وصفاء ذهن احيانا . . او شيئا من « تجربة عقلية » سرعان ما يعود ، بعدها ، الشاعر الى مـوضوعـه الخاص ، من وصف للخمـرة والناقةوالمعشوقة والممدوح ، والمهجووسوى ذلك .

اذ نجد فيقصائده حكمة او حكمتين ، وقـد لا نجد . . ففي مطولته : ودع هريرة ، نجد وصفا صادقا لحالات الحب ومواقف المحبين، خصوصا ذلك الحب الـذي يجري بين فتيـان الحانـات وفتيـاتهـا . نجـده

مضغوطا في اربعة ابيات بشكل رأي او حكمة . قال:

عُلِّقتُها عَرَضا ، وعلقتْ رجلا
غيري ، وعلق أخرى غيرها الرجلُ
وعلقته فتاة ما يحاولها
من اهلها مَيِّتٍ يهذي بها وهلُ
وعلقتني اخرى ما تلائمني
فاجمع الحب حباً كله تَبلُ
فكلنا مغرم يهذي بصاحبه
نان ودانٍ ، ومخبولٌ ومخْتَبلُ

وقد قَيَّمنا هذا الرأي ، في فصل سابق ،. وبرهنا مصداقيته في حالات كثيرة مماثلة تحدث في كل زمان ومكان . .

كما نجد له حكمة مبثوثة في قوله :

من كل ذلك يوم قد لهوتُ به
وفي التجارب طول اللهو والغَزَل

وهذه الحكمة السائرة :

كنا طحٍ صخرةً يوماً ليفلِقَها
فلم يُضرها ، واوهى قرنه الوعِلُ

او :

قالوا الركوب ؟ فقلنا تلك عادتنا
او تنـزلـون فـإنـا معْشَـرٌ نُـزُلُ

كل هذا نجده في « ودع هريرة » في حين لا نجد في مطولته الثانية ، شيئا منه . .

وقال في معرض الفخر بنفسه وتعداد مناقبه :

وقـور اذا مـا الجهـل اعجبَ اهلَه
ومِن خيرِ اخلاقِ الرجالِ وَقُورها

وتعجبني لمحة بارعة من لمحات ذهن الأعشى الذي يتفتق احياناً عن فكرة انسانية جليلة ، في قوله يتغزل بسلمى احدى عرائس شعره :

انـت سـلمى هم نـفسـي ،فاذكـري
سَلْمُ ، لا يـوجـد للنـفس ثمـن !

لعل اللهفة والتضرع الى سلمى بالا تُحَمل نفسَه همًا فوق همها ، هما اللذان جعلا وجدانَه يهف بهذا المعنى الرائع : لا يوجد للنفس ثمن ! اجل ايتها الظالمات شقيقات سلمى ، ايها الظالمون ، في كل مكان وزمان ، ايها المتاجرون بالأنفس ، تذكروا قول هذا الأعشى الذي لا يبصر ، كما تبصرون ، ولكنه يرى ما لا ترون ! لا يوجد للنفس ثمن . . هل تفهمون ؟!

والانسان اكبر رأسمال في العالم ! هل تدركون ؟!

وقد نجد عند الأعشى آراء مبثوثة ، هنا وهناك ، في الديوان ، ولكنها ليست بمستوى حكمه السائرة ، ولا قيمة فنية لها .

ومن حكمه السائرةالتي نرددها دائما دون ان نعرف صاحبها ، قوله :

وكـأسٍ شـربـتُ عـلى لـذةٍ
واخـرى تـداريـتُ مـنـهـابـهـا

وهي حكمـة في ثوب مثـل او توريـة . نرِددهـا باعجاب لا يقل عن اعجابنا بحفيدتها الشرعية :

دع عنـك لـومي فـان اللوم اغـراء
وداوني بـالتـي كـانت هـي الـداء

ومن آرائه العابرة :

جمـاع الهـوى في الـرشـد أدنى الى التقى
وتـرك الهـوى في الـغـي أنـجـى وأوْفَـقُ

او :

ومَن يـطع الـواشين لا يتـركـوا لـه
صديقاً ، وإن كـان الحبيبَ المُقَربا

وعلى سبيل الاستعارة ، يمكن ان يتمثل بقوله يهجو علقمة بن علاثة :

تبيتــون في المشتى مــلاءً بــطُونـكم
وجــاراتكم جَـوْعى يبتن خمــائصــا

وفي قصة السموأل التي صاغها الأعشى شعرا جاء قوله على لسان السموأل :

وقال :

لا اشــتــري عــاراً بــمــكــرمــة
واختـار مكـرمـة الـدنيـا على العـارِ

قيمة الحكمة :

وبعـد . فاذا كـان للحكمـة في شعـرنـا العـربي الكلاسيكي من قيمة ففي كونها قادرة بصياغتها الفذة ، ان تخرج من مناسبتها الخاصة الى المناسبات العامة المماثلة ، ذلك لأن تجارب الناس مع الحياة والوجود متشابهة . ومن هنا نحن نردد حِكَم الشعراء وكأننا نحن قائلوها ، ومنا مَن يُبَدلِ ويُغير في صياغتها وفقاً لمزاجه وثقافته وحافظته . . وهكذا يشركنا الشـاعـر الحكمي بتجاربه وآرائـه الخاصـة ، فيخرج بهـذا ، من إطار

قصيدته ومشاعره الآنيةالمحدودة الى اطار اللامتناهي واللامحدود . .

اما في الشعر الحديث واحتراما للفكر العربي الجديد ، والروح الحضارية والانسانية الجديدة فلم تعد الحكمة شيئا مقبولا فيصياغة التجربةالشعورية او العقلية التي يمر بها شعراء الابداع الحديث . والأفضل ، كما يقول ادونيس ان نقلب الحكمة الوعظية ذات الصياغة الخطابية الى تساؤل . بمعنى ان ننقل الحكمة التقريرية التي هي يقين وتقبل الى شك وتساؤل . فلم يعد العالم ، امام الشاعر شيئاً مسلماً به وحيزاً مُطَمئنا يُعاش فيه، جاء في كتاب زمن الشعر، قوله: «هل كراهية التجديد غريزة فينا، نحن العرب؟ هل نحن محصنون ضدالمجهول، الخطر، المفاجيء؟ هل سحقتنا «الحكمة» فلا نستطيع بعدها أن نشرئب نحو البحث والتساؤل»؟ . .

ومهما تكن خلفية هذا القول وغاياته فنحن مع صاحبه في رفض « اخلاقية الحكمة » في الشعر العربي الحديث ، واستبدالها « باخلاقية التساؤل » ان صح التعبير . ونحن اذا برزناها في الشعر العربي القديم ،

او الشعر العربي الجديد ـ القديم . فذلك لان الشاعر القديم كان شاعر النموذج الجاهز في القيم والاخلاق والعادات وحقائق الوجود ، يحتذيه ويصب شعره على مثاله . حتى النقاد في اكثريتهم الساحقة كانوا سلفيين يقيمون الشعر على أساس احترامه لذلك النموذج او تنكره له .. وكثيرا ما بَدَّعوا كل شاعـر يخرج بعض الشيء عن السمت المرسوم ، وكالوا لهشتى التهم : كالغموض والشعوبية والهرطقة .

يحاور الأشخاص والأشياء :

وبعـد ، هـذا هـو الاعشى : محـاور متعـدد الأصوات ..

حاور الصنج ، والناقة ، والظليم ..

حاور الآخرين بالذهاب اليهم ، ولو على اطراف الجزيرة .

حـاور الخمـرة والخمـارين .. وبـالحـوار انقلب المحاوَر صديقا اليفا مشاركا ..

(١) زمن الشعر ط ٢ ص ١٤٤ دار العودة ـ بيروت ١٩٧٨ .

حاور المحلق وبناته العوانس ، فانقلت ابو كلاب سيدا ، وانقلبن عرائس . .

حاور عتاة قريش ، والصعاليك ، ورواد المواخير . .

حاور السجان وشريح وكسرى وقيس وعبد المسيح . .

دخل بالشعر ، الى صميم الأشياء والناس ، واللغات ، والحضارات والأديان والتوافه . . الأعشى ، في نظري ، اول من اخضع الشعر للحوار ، والأخذ والرد ، والمتاجرة ، والقصة . .

رافضا ، بعض الشيء ، الاتباعية الموروثة ، خاصة في المطالع ، فلم يقف على الاطلال ، ووقف على الخمرة ، ودخل الى الحانوت ، رأساً ، وبلا مقدمات . .

تصحبه « شلاشيله » ورفاقه ، وحريته ، وريادته . . وهناك ، شربها مع كل هؤلاء . . وغناها . . وشربها ، . خارج الحانوت ، مع الكبار والصغار ، مع الاغنياء والفقراء ، وعاقرها في جميع حالاته :

على كـل احوال الفتى قـد شـربتهـا
غنيـا وصعلوكـاً ومـا إنْ أُقـاتِهـا [1]

كما سماها بما يليق بها من أسماء الحضارة وكنى الفرس والروم والمجوس . .

وفي الهجـاء سمى الأشياء بـاسمـائهـا ، وكشف السوءات والمساويء بلا مواربة ، ولكن : بلا وقاحة . وفي المدح والفخر وصل الارض بالسماء وجعل المجد حكراً على قبيلته ونفسه واصدقائه . .

وحين لَمْ يجد ما ومن يحاوره . . مات !

ذلكم هـو مـا يقـربـه منـا : حـواريتـه وشعبيتـه وصراحته !

وفي الحقيقة : ان الشعر حـوار فني ونفسي بين الشـاعـر والأشيـاء ، والصـور والقيم ، والاشخـاص والرموز ، يعانق ما يرضيه منها ، فيغنيه ، ليحييـه . . ويرفض ما يؤذيه منها ، فيعبث ، ليرديه . .

وحسب الأعشى شاعريـةً انه اكثـر من الاستيحاء والحوار .

---

(١) أقات الشيء : اطاقه ، اقتدر عليه .

تمنعه قريش ويرفعه المعري!

تقدم معنا أن شاعرنا أدرك الإسلام، وأن مشركي قريش وعلى رأسهم أبو سفيان اعترضوا سبيله وكان في طريقه إلى النبي ليعلن إسلامه بين يديه ويلقي قصيدة كان قد أعَدَّها يوم سمع بالمبادىء الجديدة والمُثُل العليا التي أعلنها النبي وبشر بها. وتمضي الرواية فتزعم أن القصيدة هي:

ألمْ تغتمض عيناك ليلةَ ارمدا
وعادك ما عاد السليمَ المسهدا
وما ذاك من عشق النساءِ وإنما
تناسيتَ قبلَ اليوم خُلَّةَ مَهْددا
ولكن أرى الدهرَ الذي هو خائلٌ
إذا اصلحتْ كفاي عاد فأفسدا

شبــابٌ وشيــبٌ وافتـقــار وثــروةٌ
فللهِ هــذا الـدهــرُ كيف تـرددا
وما زلت أبغي المالَ مذ أنا يافع
وليـداً وكهلاً حـين شبتُ وأمْـردا
وابتــدلُ العيسَ المـراقيــل تغتــلي
مسافةَ ما بين «النجير» «فصرخدا»
فإن تسألي عني فيا رب سائـلٍ
حفي عن الأعشى به حيث اصعدا
ألا أيهذا السائـلي: أين يممتْ
فـإن لها في أهـل يثرب مـوعدا
فـأما إذا مـا ادلجت فتـرى لهـا
رقيبين «جديـا لا يغيب وفرقـدا»
وفيهـا إذا مـا هَجَّـرتْ عجـرفيـةٌ
إذا خلَت جرباء الظهيرة اصيـدا
اجـدَّتْ بـرجليهـا نجـاءً وراجعتْ
يـداهـا خنـافـا لينـاً غير أحْـردا
فـآليتُ لا أرثي لها مِن كـلالـةٍ
ولا مِن حَفىً حتى تـزورَ محمدا
مَتى ما تُناخي عند بابِ ابنِ هاشمٍ
تُـريحي وتَلْقَي من فـواضله يــدا

نبي يرى ما لا ترون، وذكره
أغار، لعمري، في البلادِ وانجدا
له صدقات ما تُغبُّ، ونائلٌ
وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجِدَّكَ لم تسمعْ وصاةَ محمدٍ
نبي الإله، حين أوصى واشهدا:
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد الموت مَن قد تزودا
ندمتَ على ألا تكون كمثله
وأنك لم ترصد لما كان ارصدا
فإياك والميتات لا تأكُلَنَّها
ولا تأخذنْ سهماً حديداً لتفصدا
وذا النُّصُبِ المنصوب لا تَنْسُكَنَّهُ
ولا تعبد الأوثانَ، والله فاعبدا
وَصَلِّ على حين العشيات والضحى
ولا تحمد الشيطان، واللّهَ فاحمدا
ولا السائلَ المحرومَ لا تتركنَّه
لعاقبة، ولا الأسير المقيدا
ولا تسخرَنْ مِن بائسٍ ذي ضراوةٍ
ولا تحسبنَّ المرءَ يوماً مُخلدا
ولا تقربَنَّ جارةً، إن سرها
عليك حرامٌ، فانكِحَنْ أو تأبدا

ومهما قيل في هذه القصيدة (العصماء!!) فإني لا أرى فيها إنساناً ينوي أن يُسلم حقاً.. فليس تنضح عنها حرارة الشوق إلى الدين الجديد. ولا تلك اللهفة التي يتضور معها صاحبها طلباً للخلاص.. فلا يهدأ له بال «حتى يزور محمدا» كما زُعم أنه قال. بل إنه توارى خلف ناقته وجعلها هي التي «لا يرثي لها من كلالة ولا من حَفيً حتى تزور محمدا» ثم إني أراه ما فتيء منشغلا بفتاته «مَهْدد» - ويا ليتها فتاة حقيقية - أكثر من انشغاله بملاقاة النبي والاستماع إلى مبادئه ومثله وتعاليمه. ولعله قد فطن أخيراً، وفي منتصف القصيدة، إلى أنه بصدد مدح الرسول، فنادى ناقته وأقسم ألا يرثي لها من كلالة حتى تنتهي به إلى رحابه بَدَلَ أن ينتهي بها.. ثم نراه ينيخها عند باب النبوة «لتلقى من فواضل النبي يداً... بدل أن يتلقى هو من مبادئه وتعاليمه ما يتطهر به من درن الجاهلية.. وبعد، فليست هذه مما يسمى «مشاركة وجدانية» حين استخدم الناقة وجعلها تشاركه مشاق السفر إلى مكة أو يثرب، بل هي مواربة وتحايل يخفي وراءهما نَفْساً جاهلية غير تواقة، ولا مشتاقة قادمة بكل جوارحها إلى غايتها، تتعجل التوبة والغفران.. لا إلى الصدقات، ولا إلى الأعطيات! لكأن النبي لا يُقصد إلا من أجل توزيع الصدقات.. ثم إن تعاليم الإسلام لا

تأتي، في هذه القصيدة الفاشلة، في المقام الأول من سائر التعاليم والمبادىء.. فنراه يسارع إلى ذكر بعضها: كالامتناع عن أكل الميتة، وعبادة الأوثان.. والأدهى) من ذلك أن الأعشى لم يصور نفسَه في «عصمائه» خاشعاً تائباً منيباً ووجهاً لوجه أمام النبي وظل مختفياً وراء ناقته وفتاته وذكرياته وأحوال صباه وأسفاره.. حتى إذا انتهى من طوافه بعيداً عن ممدوحه، لبث بعيداً عنه.. وراح يخاطب أهل يثرب ويروي لهم بصورة الغائب بعض التعاليم الإسلامية التي سمع بها.. من مثل التزود بالتقوى، والندم، يوم الحساب، على عدم التزود بها.. والامتناع عن عبادة الأوثان، وإقامة الصلوات الخمس، والتصدق على السائل والمحروم، واجتناب الزنى واحترام المرأة ولا سيما الجارة، والتقرب إليها بالزواج، وإلاّ فالتأبد، أي البقاء أعزب إلى الأبد، ذلك خير وأبقى.

مما تقدم تتضح، في هذه القصيدة البليدة، الحقائق التالية:

إنها، برمتها، منحولة مصطنعة وضعها بعض شعراء قريش من غير المضريين لينالوا من النبي ودعوته، ومن الأعشى على السواء. من النبي حين صوروه، في القصيدة، أقرب إلى كونه زعيماً أو رئيس قبيلة غنياً..

يوزع الصدقات والأعطيات لا نبياً مرسلاً فقيراً «عائلاً».
والأعشى، حين جعلوه يلهو عن غايته بأمور جاهلية وذكريات أعز عليه من مطلبه، فقدمها وأخره..

وتلطى خلف ظل ناقته الكثيف، بدل أن يدخل إلى رحاب النبي المنيف مباشرةً، وبحرقة النادم عما أسلف وأساء، والاسترسال في مخاطبته أو الضراعة إليه، والارتفاع إلى مستوى شخصيته الخارقة بربانيتها ونورانيتها والعيش في رحابها، وهو القادر فعلاً لو كانت القصيدة حقاً له.. كما فعل كعب بن زهير وقبله حسان والحواريون من شعراء الدعوة. علماً بأن الأعشى أستاذ لهم في مجال الشاعرية والتأثر بأشياء الحضارة ولو بنسبة ضئيلة..

أما الصياغة فليست على الاطلاق اعشوية متينة السبك بارعة الخيال: كل ما هنالك أبيات تائهة ضحلة، ضعيفة الأركان هزيلة البنيان إلى درجة الركاكة والزحاف النظمي والايقاع المضطرب. أما ناظمها، وهو غير الأعشى، حتما، فليس من طبقة فحول الشعراء بالتأكيد.. فنحن نربأ بأبي بصير، وهو من هو أصالة وأوسيَّةً ألا يرتقي، في هذه القصيدة المزعومة، إلى مصاف النبي، وهو مَن هو... فالقصيدة، اذن، لا

شك منحولة مدسوسة لغاية في نفس يعقوب. . . وهذا ما أشار إليه طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي صفحة ٢٩٥ وفصّله وذكر أسبابه.

والحقيقة الثانية هي: أن الأعشى لو كان حقاً يريد أن يُسلمَ، ويتطهر بالإسلام، ويغسل به أوزاره، لما قفل راجعاً، إلى خمرته وهو الشيخ الكهل، بمجرد أن نهاه المشركون عن بلوغ قصده، وبمجرد أن النبي ينهي عن شرب الخمرة. . فمن كان كالأعشى، في أخريات أيامه وقد أثقلته أوزاره، أحْرِ به ألا يرتد، ولو وهبه أبو سفيان مائة ناقة جزور حمراء. . أو هكذا يخيل إلي. . وهو ليس من الغباء بحيث لا يدرك مدى ما في نصيحة قريش من غش. . أو أنه لم يسمع من جملة ما سمع، بتحريم النبي للخمرة ونهيه عنها. .

ويجيء المعري ـ بعد أربعة قرون ـ ليرفع الحيف عن الأعشى ويقر له بالشاعرية، والكرامة عند النبي والإمام علي، نكاية بأولئك الشعراء الذين يتربعون على الأرائك في الجنة، وهم مثله وأكثر منه جاهلية وكفرا[1].

أما هو فيصوره أبو العلاء وقد راحت زبانية جهنم،

(١) رسالة الغفران تحقيق نبت الشاطىء ص ١٧٧ ط ٦ دار المعارف.

تدفعه دفعاً إلى الجحيم. فلماذا؟.. لاحظ النقد المرير الذي يرمز إليه حكيم المعرة مشيراً إلى التسرع في المحاكمة هناك!! ولولا مبادرة الأعشى، وإسراعه في رفع شكواه وضراعته إلى النبي حين رآه وقد تجمع حوله الأقارب والأصدقاء والمتضرعون من كل أمم الأرض يسألونه الشفاعة..

تماماً كضراعة الأعشى في الدنيا حين أُسِرَ عشوائياً، إلى شرحبيل بن السموأل الذي كان في ضيافة آسره فأطلق ضراعته تلك ضمن قصيدة قصصية رائية رائعة معروفة، أدت إلى اطلاق سراحه يومها. فكيف لا يطلق سراحه هنا، في الآخرة، وينتقل من الجحيم إلى النعيم، إنصافاً له على أنه قد نوى ـ يوماً ـ أن يُسلم ولو لم يُسلمْ؟!... وإلا فما الفرق، وأين العدالة؟! ويروي له أبو العلاء (في الرسالة) بيتين غير موجودين في ديوانه فيثبتهما له بالرغم من كذب الرواة حين نسبوهما إلى عمرو بن العلاء وراحوا يعنعنون النسبة، كابراً عن كابر، وشيخاً عن شيخ..

ويبدأ التصحيح على الصراط بين الجنة والنار حين يهتف الهاتف (وهو الأعشى): أتا صاحب هذين ألبيتين، وليس عمرو بن العلاء. ولقد مَنَّ الله علي بعدما صرت

من جهنم على شفير وئيست من المغفرة والتكفير، فيلتفت إليه الشيخ هشاً بشاً مرتاحاً، فإذا هو بشاب غُرانق، غَبّرَ النعيم المفانق[1]، وقد صار عشاهُ حَوَراً معروفاً، وانحناء ظهره قواماً موصوفاً. فيقول: أخبرني، كيف كان خلاصك من النار، وسلامتُك من قبيح الشنار؟ فيقول: سَحَبتني الزبانية إلى سَقَر، فرأيت رجلاً في عَرَصاتِ القيامة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، والناس يهتفون به من كل أوب: يا محمد، يا محمد، الشفاعة، الشفاعة!! نَمُتُّ بكذا، ونَمُتُّ بكذا. فصرختُ في أيدي الزبانية: يا محمد أغِثْني فإن لي بك حُرْمَة! فقال: يا عَلي، بادرْه فانظرْ ما حرمته؟ فجاءني علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وأنا أُعْتَلُ كي أُلْقى في الدرك الأسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيهذا السائلي أين يَمَّمَتْ
فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليتُ لا أرثي لها من كلالة
ولا مِن حَفىً حتى تلاقي محمدا

---

(١) عيش مفانق: ناعم، وتفنق: تأنق (الرسالة).

وذكر للإمام علي سائر أبيات قصيدته التي جاء يوماً ليلقيها على مسامع النبي في دار الدنيا، ولكن كفار قريش منعوه وردوه عن قصده، كما تقدم معنا .

ويقول الأعشى: قلت لعلي: وقد كنت أومن بالله وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء. فمن ذلك قولي: (من رائية في مدح قيس بن معد يكرب الكندي).

يـراوح في صـلوات المـليـك
طـوراً سجـوداً وطـورا جـؤارا
بأعظم منـك تقى في الحساب
إذا النسـمـات نفضن الـغبـارا

فذهب علي إلى النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، هذا أعشى قيس قد رُوى مدحُهُ فيك، وشهد أنك نبي مرسل. فقال: هلّا جاءني في الدار السابقة؟ فقال علي: قد جاء ولكن صدته قريش وحبه للخمر، فشفع لي، فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمراً، فقرت عيناي بذلك. وإن لي منادح في العسل وماء الحيوان (بمعنى اللبن هنا) الخ..

وهكذا ينقذ الأعشى نفسَه، أو ينقذه المعري، على

الأصوب، ويخلصه من النار ومن جور الرواة وجهلهم ومن قريش في آن. .

مع شرحبيل برسالة شعرية شفوية من وراء قضبان السجن.

ومع النبي بواسطة الإمام علي. .

ولنتأملِ، بعدُ، الخيالَ العلائي والنظرة النقدية العلائية الجريئة البعيد الرمز، إلى حقيقة شعر وشعراء، وجنة ونار، وبراءة أحرار، وتصحيح مفاهيم وأفكار، وفضح أسرار. إنها المأساة إياها في دنيا الأقدار حين تنقلب ملهاة في عالم الليل والنهار، وحتمية قاهرة في الدينونة بين يدي قاهر جبارا. . . ولولا شفاعة محمد وعلي لقذف الأعشى في دار ليس لها قرارا .ويبرز الحق، في آخر الصراع، لينتصر على شراسةِ الأقدار حيث الرحمانية أقوى من الأقدار. .

ويكتمل العدل الإلهي ـ في رؤيا المعري ـ كما يشاء الأبرار، لا كما يشاء العابثون والفجار. .

ـ يكفي الأعشى أنه لم يسقط في اليومي والاجترار ـ كما العَتَاهِي ـ بل وصل إلينا عبر المعري، بل عبر المعاناة والتجربة. . ثم عبر طه حسين أخيراً لا آخراً. .

بين دفتي الكتاب :



مكتبة
تيجرام
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب

